ماذا بعد حرب رمضان؟

فلسطين والوطن العربي في عالم الغد

أحمد صدقي الدجاني



ماذا بعد حرب رمضان؟

فلسطين والوطن العربي في عالم الغد

أحمد صدقي الدجاني

الاهداء

الى الانسان العربي الجديد بشخصيته المؤمنة المعاصرة وبلغته الجديدة .. الذي يتحمل مسؤوليات المرحلة القادمة .

مقـــدمة

الطبعة الثـانية

هذه طبعة جديدة من كتابى « ماذا بعد حرب رمضان » تصدر بعد مضى ست عشرة سنة على يوم السادس من اكتوبر عـام ١٩٧٣ الموافق العاشر من رمضان عام ١٣٩٣ ، وهو يوم من أيام العرب المجيدة وهناك عدة أسباب تجعلنى فرحا بصدور هذه الطبعة ·

فهى أول طبعة تصدر فى مصر العربية التى لم يوزع فيها الا عدد محدود من نسخ طبعات الكتاب السابقة ·

وهى تضع الكتاب بين أيدى جيل جديد من شبابنا العربى لم يع أحداث تلك الحرب ، فتيسر له التعرف عليها ·

وهى تتيح الفرصة أمام القارىء ليسبر أغوار « دراسة مستقبلية » بعد مضى أربع عشرة سنة على صدورها ، وليتحقق من مصداقيتها ، ويرى مدى صمودها أمام ما « أبدته الأيام وجاءت به الانباء والاخبار » حين دارت دورة الزمن وأصبح « بعض المستقبل » حاضرا ثم ماضيا ·

وهى أخيرا تدعو الى وقفة نتشرف فيها ما هو آت مما عرض له الكتاب على المدى المتوسط والمدى البعيد ، ولما يصبح ماضيا بعد ·

كتبت هذا الكتاب فى أعقاب حرب رمضـــان فى محاولة للاجابة عن سؤال ماذا بعد ، وطرحت فيه رؤية لمستقبل الصراع العربى الاسرائيلى · وكنت قد انشغلت بالدراسات المستقبلية وتحمست لها من موقع تخصصى فى الدراسات التاريخية ملاحظا الصلة الوثيقة بينهما « فكلتاهما رحلة عبر الزمان الذى يتميز الانسان عن غيره من المخلوقات بادراكه ، ومدركا أن الحاجة الى استشراف المستقبل واستشفاف كنـــه ما سيأتى ، هى حاجة انسانية تشتد فى فترات معينة وهى تلح فى طرح سؤال ماذا بعد وتفرض محاولة الاجابة عنه » ·

ان التفكير المستقبلى الذى تعتمد عليه الدراسات المستقبلية « يجمع بين وعى عبر الماضى وسنن الكون وحركة التاريخ وبين ادراك حقائق الحاضر وتصور احلام المستقبل » • وهو يوفر النظرة المســـتقبلية التى هى عنـد قسطنطين زريق من أولى صفات العقلية العلمية ، وبها نسـتطيع أن نجابه مشكلات عصرنا ونفوز فى مصائر الحياة المقبلة ، وهى تعنى الريادة فى الاستطلاع والامتداد زمنا الى أمام ، ونحن لا نستطيع بناء عالم الغد اذا لم نحسن تصوره وندرك كنهه وقديما كنا نصف من لديه هذه النظرة بأنه صاحب نظر بعيد ، وهو يملك من خلالها خاصية القدرة على الحكم • وكما نشير ونحن ندرس التاريخ الى قدرة الانسان على التذكر ، فاننا نشير ونحن نتحدث فى المستقبل الى قدرته على الحلم ، وبهاتين الخاصيتين يتميز الانسان • وقد أدت خاصية القدرة على الحلم دورا كبيرا فى تحقيق التقدم وبناء الحضارات، وكان الحالمون فى مختلف مجالات الحياة مصابيح اضاءت طريق المستقبل • وقد تحصن الانسان بالحلم من الاستسلام للامر الواقع •

ويقترن الحديث عن النظرة المستقبلية بالرؤية المستقبلية • وقد وقفت طويلا أمام هذا المصطلح حين كتبت مقدمة كتابى « رؤى مستقبلية عربيـــة للثمانينات » فرجعت الى المعاجم ، والى بعض كتابات الاقدمين حول الرؤية والرؤيا • وأعدت قراءة ما أورده شيخنا ابن خلدون فى المقدمة السادسة من مقدمته وهى « فى أصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو بالرياضة ويتقدمه الكلام فى الوحى والرؤيا » •

وجدت ابن خلدون يعرف الانسان بأنه « صاحب الفكر والرؤية » فى معـــرض حديثه عن تدريج التكوين • ووجـــدته يتحدث عن « تشـــوف الأمور المستقبلية » فى معرض حديثه عن الرؤيا ، وحقيقة الرؤيا عنده « هى مطالعة النفس الناطقة فى ذاتها الروحانية لمحة من صور الواقعات » • ولم يتحدث أبن خلدون عن الدراسات المستقبلية ، ولكنه تحدث فى مطلع مقدمته عن « علم التاريخ » والد « علم المستقبل » ، فعرفه تعريفا شاملا تناول ظاهره وباطنه • وباطنه « نظر وتحقيق ، وتعليل الكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق » • وواضح أن هذا هو الاساس الذى تقوم عليه دراسة المستقبل ، وتنطلق منه الى الوفاء بمهمتها فى تشرف ما هو قادم وطرح الاحتمالات والايحاء بما ينبغى عمله • وواضح أيضا أن ما فعله

ابن خلدون فى مقدمته هو تطبيق عملى لمنهج علمى فى التعامل مع التاريخ أو مع حديث الحاضر والماضى فى الدراسة المستقبلية الذى يمكن من تحديد مجرى حركة الاحداث والاحاطة بالظروف التى جرت فيها ٠

ان « الرؤية » فى المعاجم هى النظر بالعين والقلب ، والنظر بالعين والعقل وادراك المرئى بطرق عدة ٠ أما الرؤيا فما رأيته فى منامك ٠ وتجمع والرؤيا على رؤى ٠ وقد حدد الراغب الاصبهانى فى « المفردات فى غريب القرآن طرق ادراك المرئى بالحاسة ، وبالوهم والتخيل ، وبالتفكر ، وبالفعل ولاحظ أن « رأى » اذا تعدى الى مفعولين اقتضى معنى العلم ٠ وجميع هذه الطرق تدخل فى الدراسة المستقبلية ٠

كان على أن أعاود النظر فى مضمون هذا الكتاب الذى صدر فى بيروت فى الذكرى الأولى للحرب ، لأقرر جدوى اعادة الطبع من حيث المبدأ ، أو اجراء تعديلات فيه ٠ وقد فعلت فوجدت نفسى بعد أن قرأته بامعان بنظرة نقدية متجاوبا مع فكرة اعادة الطبع ، ومؤثرا الا أجرى فيه تعديلات ٠ وكنت قد مررت بالتجربة ذاتها حين اصدر ناشر الطبعة الأولى طبعتين مصورتين عنها ، ووصلت الى النتيجة نفسها ٠ وهذا يعنى أننى مطمئن لسـلامة مضمونه ، ومستشعر فائدة نشره ، وحريص على التعريف من خلاله بنمط من التفكير ظهر فى اعقاب حرب رمضان ٠

لقد فكرت بعد أن اطمأنت الى اعادة طبع الكتاب بدون اجراء تعديلاته أو اضافة هوامش ، أن أعرض فى هذه المقدمة الى بعض ما جاء فيه بالتعليق وأن تحدث عما صدق ولما يصدق من توقعات ، وأن أشير الى جديد تضمنه ولكنى توصلت بعد أن فكرت الى أننى لو فعلت ذلك لتعديت على حق القارىء أن يفعله هو بنفسه وعلى هواه ، وأكون قد صادرت مسبقا أحكامه ، وهذا مالا أريده ٠

لى اذن الا أتعرض بالحديث لمضمون الكتاب ، واكتفى بأن أتحـدث فى هذه المقدمة عن مناسبة الاحتفال بذكرى حرب رمضان ، فأورد ما كتبته مؤخرا فى الذكرى الثانية عشرة لها محاولا الاجابة عن أسئلة ثارت أمامى ٠

« متى نحتفل بهذه المناسبة ، أفي الشهر الهجرى أم الشهر الميلادى ؟

وما الاسم الذى نرجحه حرب رمضان أم حرب اكتوبر تشرين ؟

السؤالان مطروحان لأن المناسبة حدثت فى يوم مجيد يحمل تاريخين هجريا وميلاديا ٠ فهو يوم العاشر من شهر رمضان المبـــارك ٠ وهو يوم السادس من أكتوبر تشرين ٠ وقد نسب البعض اليوم الى الشهر الهجرى ، ونسبه بعض آخر الى الشهر الميلادى كما حدث لمناسبات أخرى ٠ وربما لو لم يكن الشهر الهجرى هو رمضان لما طرح السؤالان بقوة ٠ ذلك لأن للشهر الذى نصوم فيه والذى أنزل فيه القرآن منزلة خاصة ٠

ان الاسم الذى رجحته وما زلت أرجحه هو حرب رمضان ٠ واذكر أننى فكرت فى الأمر مليا حين فرغت من تاليف كتابى عن الحرب فى صيف عام ١٩٧٤ ووصلت الى اختيار عنوان له ٠ ويومها رجحت النسبة الى رمضان وذهبت الى الناشر الصديق المرحوم د٠ عبد الوهاب كيالى فوجـــدت معه الصحفى الصديق الأستاذ كامل زهيرى الذى أكد ترجيح النسبة الى رمضان وعدد أسباب ذلك فحسمت الأمر ، واسميت دراستى المستقبلية « ماذا بعد حرب رمضان » ؟

ان نسبة هذا اليوم المجيد الى رمضان تبرز البعد الروحى فيه ٠ وقد كان لهذا البعد الروحى دور خاص فى تحقيق الضربة الأولى ٠ « واقتحام العقبة » على الجبهتين الجنوبية والشمالية فى سيناء والجولان ٠ كذلك فان النسبة الى رمضان تجمع هذا اليوم المجيد بأيام مجيدة أخرى حدثت فى الشهر الكريم ، وفى مقدمتها يوم بدر ٠

ينبغى اذن أن نحتفل بهذه المناسبة فى شهر رمضان ٠ ويجب أن يستمر احتفاؤنا بها عاما بعد عام ما دام الصراع العربى الاسرائيلى مستمرا ، وحتى نحرر الأرض ونسترجع الحق ٠ وان احتفالنا بالمناسبة فى رمضان لا يمنع ابدا أن نحتفل بها أيضا يوم السادس من أكتوبر تشرين لتسلط الاضواء على ابعاد أخرى فيها ٠ وهى تستحق منا هذا الاهتمام ، فنحتفل بها مرتين ٠

كيف نحتفل بالمناسبة ؟

قد يبدو السؤال غريبا فى نظر البعض • وذلك لما يظهر من بساطته • والحق انه مطروح اليوم بعد مضى اثنى عشر عاما شب خلالها جيل جديد لم يعش ذلك اليوم المجيد ، وحدثت خلالها أحداث كثيرة ضمن الصراع العربى الاسرائيلى وعلى صعيد العلاقات العربية تستجوب النظر •

لا يكفى ابدا اقتصار الاحتفال بالمناسبة على حديث انشائى يصف ما حدث أو بعضه ، ويشيد بالبطولات وهى تستحق الاشادة بها • وانما ينبغى أن يتضمن هذا الاحتفال اعمال الفكر بما يمكن أن نسميه « حال الصراع العربى الاسرائيلى اليوم » • وعرض دراسات حول مختلف أبعاد حــــرب رمضان الوطنية والقومية والروحية والعالمية ، وتعريف الاجيال الشابة بهذه المناسبة تعريفا صحيحا يحقق تواصل الاجيال •

لقد كان من بين الكتب التى رجعت اليها فى مكتبتى كتاب « الندوة الدولية لحرب اكتوبر ٧٣ » بمجلداته الأربعة ، وهى الندوة العالمية التى عقدت بالقاهرة عام ١٩٧٥ • وقراءة عناوين البحوث فى القطاعات العســـكرية والسياسية والاقتصادية والحضارية تعطى فكرة عن نوعية الدراسات التى ينبغى أن تنشغل بها كلما احتفلنا بهذه المناسبة •

وطبيعى أن نهتم حين نحتفل بذكرى حرب رمضان بتسليط أضـــواء جديدة على ما حدث ، لنوفر فهما معاصرا له • وهذا هو المقصود باحياء الذكريات • ومطلوب أيضا أن نحلل الواقع القائم ونتشوف المستقبل ويضيق المجال هنا عن اثبات عناوين موضوعات تتعلق بأبعاد حرب رمضان تستحق أن تبحث •

ان أهم ما يثمره هذا النوع من الاحتفال هو تحقق فهمنا لما يجرى اليوم من احداث فى ساحاتنا ، ومن ثم استعدادنا بشكل افضل للتعامل مع هذه الاحداث على نحو يلبى مصالح وطننا وأمتنا •

ما هى الثوابت والتغيرات التى يكشف عنها الاحتفال بالمناسبة ؟

السؤال مطروح وسط انغماسنا فى احداث يومية ينقلها اعلام العصر

بوقعه السريع وبانعطافه للتركيز على « الأزمات » ، فيسقط هذا الانغماس الكثيرين فى دوامة لا ترحم ، وتأخذهم بعيدا عن النظر المتردى للامور ٠

السؤال مطروح ايضا أمام المنشغلين بالدراسات المستقبلية الذين تشوفوا ماذا بعد حرب رمضان ، وقد كنت واحدا منهم ٠ واذكر أن طلابى بكلية الاعلام فى الجامعة اللبنانية عمدوا فى الفصل الدراسى الثانى لعام ١٩٨٢ الى عقد ندوة ناقشوا فيها ما صح من توقعاتى التى اثبتها فى قسم حديث المستقبل من كتابى ، وما لم يصح ٠ كما اذكر أن صديقا ناشرا نظر فى الكتاب بنية اعادة طبعه ليقرأه جيل جديد ، فاثار هذا السؤال ، وأشار الى أن بعض التوقعات لم تتحقق ٠

لقد وضعت السؤال نصب عينى وأنا أراجع ما كتب عن حرب رمضان ومن بينها دراستى ٠ ووجدت أننى ازددت اقتناعا بوجهة النظر التى احملها عن الدراسات المستقبلية ٠ فهذه الدراسات لا تتنبأ تنبؤا عشوائيا ، ولا تعمد الى التنجيم والضرب بالرمل ، وانما هى تكشف عن الثوابت والمتغيرات من خلال رؤية الحاضر وربطه بالماضى ثم هى تطرح تشوف المستقبل وفى اعتبارها أن الانسان وهو يتشرف مستقبله يختار بين بدائل ويدرس احتمالات ٠ وفى اعتبارها أيضا أن عنصر الحلم فى رؤية المستقبل يتفاعل مع ارادة الفعل عند الانسان ٠

نضرب مثلا على الثوابت التى أدت الى نشوب حرب رمضان ، وحكمت السياسة الاسرائيلية بعد تلك الحرب ٠ وهذا الثابت هو جمود الموقف الاسرائيلى على التمسك بالافكار الصهيونية التوسعية العنصرية ٠ وقد لاحظ جون زيجلر فى بحثه الذى قدمه لندوة اكتوبر عن « التغيرات فى الموقف الاسرائيلى تجاه الصراع العربى الاسرائيلى » أن ثلاثة من العلماء الاجتماعيين البارزين كشفوا عن هذا الجمود وفسروه ودعوا الى تحرك دولى لتجاوزه ٠ وهؤلاء هم « بريجنسكى من جامعة كولومبيا الأمريكية ودويشين من جامعة ساسكس الانجليزية ، وساكى من معهد نومورا اليابانى » ٠ وقد ذكروا سبب هذا الجمود وهو « أن النظام السياسى الاسرائيلى نظام جامد فى الأصل ٠ ويضاعف فى هذا الجمود طريقة التمثيل النسبى المعقدة التى تعطى الجماعات السياسية الهامشية سلطة تقرير مصير الحكم الائتلافى الحتمى ٠

هذا الوضع يذكر المرء بعجز الجمهورية الرابعة الفرنسية عن تغيير سياستها تجاه الجزائريين ، برغم أن العناصر القيادية الحكيمة كانت تعى ضرورة اتخاذ بعض الاجراءات التوفيقية • « وقد رفض هؤلاء العلماء دبلوماسية المراحل الكيسنجرية ، ونادوا بالتسوية المفروضة دوليا • وتجدر الاشارة هنا ان كاتب البحث اضاف « أن عملية منع السياسة الاميريكية ، وخاصة فى الثمانية عشر شهرا السابقة على انتخابات الرئاسة تتميز بنفس الجمود والحاجة الى ارضاء جماعات المصالح المتعددة • ولهذا لا يمكن أن يتوقع المرء أى تحرك نحو مقنية قضية الاراضى العربية المحتلة قبل اجراء إنتخابات إميريكية ديمقراطية » •

مثل آخر على الثوابت هو أن التحرك العربى المواجه للعدوان « واقتحام العقبة » يفرض تحرك جميع أطراف الصراع فرضا فى محاولة ضبط الأمور قبل أن تتحول المواجهة اقليمية الى مواجهة عالمية •

هناك متغيرات كثيرة حدثت بعد حرب رمضان على مختلف الصعد • ولعل اخطر هذه المتغيرات هو ما إتصل بالموقف العربى الواحد • فما تحقق من انتصار فى تلك الحرب انما جاء بفعل حد أدنى من الموقف العربى الواحد • وقد تشوفت دراساتنا المستقبلية بروز العرب كقوة جديدة فى عالمنا وأعطاها البعض رقم القوة السادسة ، على أساس الحفاظ على الموقف العربى الواحد والانتقال به الى حده الأعلى •

كان واضحا فى تشوفناتنا انها مشروطة •• فنحن اذا فعلنا كذا وسرنا فى هذا الطريق سنصل الى هذه النتيجة • أما اذا لم نفعل وسرنا فى طريق آخر فاننا بالقطع سنصل الى نتيجة أخرى • وهذا ما حدث على صعيد الموقف العربى الواحد •

لقد مرت اثنتا عشرة سنة على ذلك اليوم المجيد •• يوم العاشر من رمضان • واكدت جميع التغيرات انه لا بديل عن بذل قصارى الجهد لبناء الموقف العربى الواحد كى نواجه العدوان وننتصر فى الصراع • وهـــذه الحقيقة هى من أبرز الثوابت • فهل لنا وسط الاحداث التى نعيشها والمناسبات التى نحييها أن نعطى هذا الأمر العظيم حقـــه ، ونضعه على رأس ســلم الأولويات ، ونصبر صبر أيوب على متطلباته ؟

بقى أن أشير الى أننى اكتب هذه المقدمة ونحن نعيش فى زمن انتفاضة شعبنا العظيمة فى فلسطين • وقد دخل الصراع العربى الصهيونى بهـــذه الانتفاضة مرحلة جديدة شرحت ابعادها فى كتابى « الانتفاضة الفلسطينية والصحوة العربية » الذى صدر حين اكملت الانتفاضة شهرها الخامس • وكتابى « الانتفاضة الفلسطينية والتحرير» الذىصدر بمناسبة مضى عام عليها وكنت قد قمت خلال السنوات الخمس عشرة الماضية باصدار عدد من الكتب فصلت فيها ما أجملته فى كتاب ماذا بعد حرب رمضان ؟ وتابعت بالمعالجة تطورات قضية فلسطين والصراع العربى الصهيونى • واننا نتطلع الى أن نحقق فى هذه المرحلة الجديدة هدف تحرير اراضينا الفلسطينية والعربية المحتلة من خلال انتصار الانتفاضة •

اسأل الله ان يجعل اعمالنا خالصة لوجهه الكريم • وهو ولى التوفيق •

احمد صدقى الدجانى

مصر الجديدة رمضان ١٤٠٩/ايار ـ مايو ١٩٨٩

مقدمة

حين نشبت الحرب يوم السادس من أكتوبر (تشرين الاول) من عام ١٩٧٣ م الموافق للعاشر من رمضان من عام ١٣٩٣ هـ عشنا أحداث المعارك بكل ذرة فينا . ومع اعلان وقف اطلاق النار برز سؤال ماذا بعد ؟ وبدأ يلح مع تتابع الاحداث .

ويصدر هذا الكتاب في الذكرى الاولى للحرب ليحاول الاجابة عن سؤال ماذا بعد حرب رمضان ؟ ماذا عن قضية فلسطين في عالم الغد ؟

لقد شغلني هذا السؤال منذ ان برز .. كان يقفز في محاضراتي عن تاريخ العرب المعاصر وقضية فلسطين التي ألقيها على طلابي في الجامعة ، وفي مقالاتي السياسية التي كتبتها بعد الحرب . وكان يبرز في اجتماعات العمل الفلسطيني التي شاركت فيها ، وفي لقاءات عربية كثيرة حضرتها . وكنت مثل آخرين كثيرين أحاول الاجابة واجتهد رأيي . وكان رأيي كما سجلته بايجاز في رسالة بعثت بها لاخ صديق مطلع هذا العام ضمن حوار حول نتائج الحرب هو « انني لا زلت أرى من خلال اعمال الفكر فيما حدث أن محصلة حرب أكتوبر هي محصلة ايجابية . وحري بأهل الفكر ورجال

السياسة أن يستخلصوا عبرها ودروسها ويخططوا للمرحلة الجديدة التي بدأت بعدها . ورؤيتي أن صراعنا مع العدو مستمر ، واننا نقف على رمال متحركة . والمهم ان نتصدى لما جد من معطيات بفعل المعركة ونحن واثقون من قدرتنا على العمل .. واثقون بأننا فاعلون . وان أكثر ما يقلقني في بعض أوساط أمتنا شعور من الحيرة والتمزق يسيطر . الامر الذي يشير الى اهتزاز الثقة ، وقد يدفع الى التخبط واليأس . ان هناك مبررات للقلق ، ولكن توافر الثقة بالنفس والقدرة على الفعل كفيل بالتغلب على كل ما من شأنه منع شعبنا العربي من متابعة نضاله . »

ومع الحاح السؤال عقدت العزم على كتابة دراسة مستقبلية يضمها كتاب أشرح فيها رأيي فيما حدث ورؤيتي لما سيحدث ، بايجاز لا يخل بمستلزمات الشرح . وباشرت العمل أوائل هذا العام وعكفت عليه طوال أربعة شهور أنجزت اكثره خلالها ، ثم أكملته بعد ان فرغت من اجتماعات المجلس الوطني والامتحانات الجامعية في حزيران (يونيو) الماضي . واني أقصد من هذا التحديد لمدى الكتابة الزمني ان يكون واضحا للقارىء تاريخها ، لشعوري بأن هذا الوضوح ضروري في الدراسات المستقبلية التي تتعامل بطبيعتها مع زمن قادم سرعان ما يصبح مع تتابع الايام حاضرا ثم ماضيا . ولقد حدث عدة مرات أن وجدت نفسي أثناء الكتابة أشير الى أحداث نتوقع حدوثها في القريب سرعان ما تحدث وتدخل التاريخ ، فاضطر للتنويه عنها في الهامش .

هذا الكتاب اذن دراسة مستقبلية ، وهو يتناول حديث المستقبل بعد أن يمهد له بحديث الحاضر والماضي . وما أوثق الصلة بين الدراسة التاريخية والدراسة المستقبلية ، فكلاهما رحلة عبر الزمان الذي تميز الانسان عن غيره من المخلوقات بادراكه .. وقد شعرت بأهمية دراسة المستقبل بصورة خاصة من خلال تخصصي في التاريخ المعاصر وتدريسي له ، ووضح لي الحاح حاجتنا كعرب في طور انبعاثنا الجديد الى الدراسات المستقبلية التي ستساهم

في بناء عقلية علمية جديدة للانسان العربي الجـديد تنطوي عـلى الريادة والاستطلاع وتتصف بالعالمية والمرونة . ويمكننا ان نلاحظ مدى انتشار دراسات المستقبل عند الامم المتقدمة ، وبعض هذه الدراسات يختص بنـا وبوطننا، في حين أننا لا زلنا في أول الطريق . وعلينا ان نتابع جهود مفكرينا العرب الذين كان لهم فضل الريادة في الدراسات المستقبلية .

ويهمني أن أنوه بفضل هؤلاء الرواد على هذه الدراسة مسجلا مدى استفادتي مـا كتبوه ، وقـد حرصت ان أشـير الى افكارهم وكتبهم في الهوامش وفقا للمعتاد . كما يهمني ان أسجل أيضا استفادتي من الآراء التي سمعتها خلال الحوار المتصل الواسع الذي شاركت فيه سواء في المجـالين الفلسطيني والعربي أو في مجالي عملي الجامعي والصحفي . ويؤسفني انني لا استطيع حصر هذه الآراء وتحديد أصحابها . ولكن لا بد لي ان اسجل على الخصوص قيمة الساعات الطويلة التي استغرقها حوار الفكر مع اخي ابراهيم الغويل على مدى فترة الكتابة ، فقد كان هذا الحوار بالنسبة لنـا غذاء فكريا وروحيا وواحة خضراء نأنس اليها ونستظل فيهـا من هجـير الصحراء . وأشير الى العون الكبـير الذي قدمتـه لي مكتبته الزاخرة . وبالطبع فان تسجيل فضل هؤلاء جميعا لا يعني مسؤولية أحد منهم عـن الآراء الواردة في الكتاب ، فأنا وحدي مسؤول عنها .

ولا يفوتني أن أسجل فضل زوجتي التي هيـأت لي جوا مكنني من انجاز هذا العمل ، وتحملت في سبيل ذلك اعباء كثيرة بصبر وبدون ملل . كما تجاوبت معي في حوار مستمر ساعدني على المتابعة .

واشير الى أن عددا من الكتب عن الحرب ونتائجها صدر خلال فترة عكوفي على الكتابة ، ولم أطلع عليها آنذاك . وبعضها كتبه كتاب أصدقاء أقدر فكرهم ، وكان بودي أن اغني دراستي بالافادة منها .

واني اذ أحمـد اللـه سبحانه الذي به نستعين عـلى عونه ، أرجو أن

يساهم هذا الكتاب في الدفع لمتابعة النضال من أجل تحرير اراضينا وبناء مستقبلنا العربي المنشود وقيامنا بدورنا الحضاري الانساني .

والله الموفق ..

المؤلف

مصر الجديدة ٢٧ يوليو (تموز) ١٩٧٤

القسم الأول

حديث الحاضر والماضي

الفصل الاول

السؤال المطروح

ماذا بعد ٦ أكتوبر ـ تشرين الاول ـ من عام ١٩٧٣ في وطننا العربي؟ سؤال ألح على كثيرين منا منذ أن طرحته حرب رمضان . وهو لا يزال يلح وسط تتابع الاحداث السريع في المنطقة ، وواضح أن سلسلة الاحداث لم تنته وأن الفترة الحاضرة التي نعيشها حبلى بالكثير منها . وهذا يعني توقع جديد في المعطيات الراهنة ، ويغري من ثم بالانتظار والتريث في الاجابة على السؤال الملح . ولكن الحاجة في الوقت نفسه الى استشراف آفاق المستقبل واستشفاف كنه ما سيأتي . وهي حاجة انسانية تشتد على الخصوص في مثل هذه الفترة الحاضرة ، تلح في طرح السؤال وتفرض محاولة الاجابة عليه ، ويؤكد هذه الحاجة ادراك بأن الجديد الذي يغري بالانتظار لن يكون من نوع التغيرات الجذرية بعد أن شقت حرب رمضان المجرى العريض للاحداث لفترة قادمة .

ان الرؤية التاريخية ليوم السادس من أكتوبر أنه نقطة تحول وبداية مرحلة جديدة في الصراع العربي الاسرائيلي ، وفي النضال العربي من أجل تحقيق أهداف الثورة العربية ، والحاح السؤال « ماذا بعد ؟ » علينا متصل بهذه الحقيقة .

ويهمنا ونحن نثبت هذه الحقيقة أن نحدد ما نعنيه « بنقطة التحول

وبداية المرحلة الجديدة » ، فأحداث التاريخ متصلة تترابط حلقاتها وتتابع مع تدفق تيار الزمن . وتقسيم التاريخ الى مراحل عمـــل اصلاحي نستشعر الحاجة اليه في الدراسة التاريخية ، لان تتابع الاحداث في التـــاريخ يرسم خطا بيانيا متموجا لكل جزء منه طابعه الخاص الغالب عليه ، فضلا عن أن هذا التقسيم يسهل دراسة التاريخ عموما . وهكذا فبداية مرحلة جديدة في فترة تاريخية يتوافق مع تحول في الخط البياني للاحداث . ونقطة البداية هي نقطة التحول ، واذا كان هذا العمـــل الاصطلاحي يصلح في دراســـة التاريخ الحضاري الانساني في مجراه العريض فانه يفيد أيضا في تنـــاول فترة محددة كفترة الصراع العربي الاسرائيلي .

ان هذه الرؤية التاريخية ــ كما نود ان تؤكد في بداية هذا الحديث ــ تنطلق من أن الزمن الذي أقسم الله به في سورة العصر تنبيها لاهميته هو أحد العوامل الفعاله في بناء الحضارات : فبه ومن خلاله يتفاعل الانســـان مع التراب بوحي من العقيدة والفكر فيصنع الحياة ويشيد الحضارة[1] . ومن هذا المنطلق نفهم كلمة ميكيافيلي « الزمـــان .. خالق كل حقيقـــة » ، وندرك ايجابية الحدث التاريخي ومسؤولية المشاركين فيه . فلهذا الحدث وزنه وتأثيره حتى انه قد يبلغ منزلة «الفتح المبين»[2] بنتائجه التي يجـــب دوما أخذها بعين الاعتبار ، وهذا يعني أن يتحمل المشاركون في الاحـــداث مسؤولياتهم كاملة عنها ، كما يعني ادراك قدرة الانسان على الفعل وصنـــع الاحداث ، ومن ثم وعي تغير التاريخ المستمر . ومن هذا المنطلق تصبـــح الرؤية التاريخية هي مضمون الثورة التاريخية التي هي عند مينكه « أكبر

---

(١) يراجع توينبي في دراسته عن الحضارة « دراسة في التاريخ » .
ويراجع مالك بن نبي في « شروط النهضة » حيث يورد معادلة الانسان التراب الوقت .
وقسطنطين زريق في « معركة الحضارة » ووليد قمحاوي في « النكبة والبناء » .

(٢) نزلت آية : « انا فتحنا لك فتحا مبينا » بعد هدنة الحديبية ، تراجع سيرة ابن هشام ، وكتب السيرة الاخرى .

ثورة ذهنية عرفها العقل الانساني » والتي حدد معالمها علامتنا ابن خلدون في مقدمته .

ان تأكيدنا على هذا المنطق الواضح للرؤية التاريخية التي عنيناها في حديثنا . ولدور الزمن فيها ، نابع من استشعارنا لاهمية تقدير قيمة الزمان في مثل هذا المجال الذي تتناول فيه مستقبل قضية فلسطين ، خصوصا وأن هناك من أطلق حكما قاسيا على معالجة العرب لقضية فلسطين لا نريده أن يصدق ـ عبرت عنه كلمة عبد الله العروي «منذ أن نشأ المشكل الفلسطيني والعرب لا يقيسون للزمان وزنا : كأن الانسان قادر على اطالة واختزال الزمان حسب ارادته . تركوا الزمان يمر على الاوضاع وكأنهم مقتنعون ان كل شيء غير مرغوب فيه سيمحى في الساعة الموقوتة ويشيد من جديد[1] .

ولكن لماذا كان ٦ أكتوبر في الرؤية التاريخية نقطة تحول وبداية مرحلة جديدة ؟

يقفز هذا السؤال ونحن في معرض الاجابة عن السؤال الاساسي « ماذا بعد ؟ » ونجد له جوابا واضحا نورده الآن بايجاز لنفصله بعد ذلك في موقع آخر من هذا الحديث .

لقد كان النضال العربي قبل ٦ أكتوبر يعيش مرحلة نكسة يونيو ـ حزيران ١٩٦٧ ـ التي بدأت عند نشوب الحرب الثالثة يوم ٥ يونيو، ودخل معها الوجود الصهيوني الاستعماري في منطقة الوطن العربي مرحلة التوسع. وقد شهدت تلك المرحلة طور حرب الاستنزاف بعنصريها النظامي والمقاومة بين عامي ٦٧ و ٧٠، ثم طور وقف اطلاق النار بين عامي ٧٠ و ٧٣ الذي أوقف عمل العنصر النظامي ، وغلب على هذا الطور بفعل عوامل محددة اسم حالة اللاحرب واللاسلم ..

---

(١) انظر عبدالله العروي « العرب والحكم التاريخي » .

وجاء ٦ أكتوبر ليكسر جمود تلك الحالة ، ولينهي وقف اطلاق النار . ولتنشب الحرب الرابعة في الصراع العربي الاسرائيلي فتطرح معطيات جديدة فيه ، وهكذا آذن ٦ أكتوبر بانتهاء مرحلة وبداية مرحلة جديدة ، وطرح معه سؤال « ماذا بعد » .

ان محاولة الاجابة عن هذا السؤال تدخل في نطاق حديث المستقبل. وهذا الحديث كما سبق أن أشرنا يعبر عن حاجة انسانية تشتد في مثل الفترة الحاضرة . وقد دأب الانسان منذ أن وجد على محاولة النظر في المستقبل ومعرفة ما سيأتي .. كذلك فان حديث المستقبل وثيق الصلة بحديث الماضي . وهو لم يعد مجرد تنبؤات او رجما بالغيب ، وانما أصبح اليوم علما تلاحظ فيه سنن الكون وحركة التاريخ من خلال دراسة الماضي، وتتكامل فيه الدراسات لتغطي جوانب الحاضر المختلفة وترسم على ضوء ذلك كله صورة المستقبل .

وتقتضي محاولة الاجابة عن هذا السؤال ان تنظر الى الاحداث الجارية بالنظرة الشاملة التي تأخذ بعين الاعتبار مختلف أبعاد الصراع وتحيط بشتى جوانبه . فهي ترى الابعاد الدولية والقومية والمحلية ، وما يخص العدو منها وما يخصنا نحن ، والجوانب العسكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية والفكرية . وان أي افتقار لشمولية النظرة عند تقويم ٦ أكتوبر وتصور ما بعده أو غفلة عنها ، يعني تحكم النظرة الجزئية وتكرر قصة العميان والفيل .

كما تقتضي محاولة الاجابة أيضا أن يكون واضحا فيها الفرق بين دور المؤرخ السياسي ودور المناضل السياسي في النظر الى المستقبل . فالمؤرخ السياسي وهو يستعرض ما جرى ويحلله ليصل الى توقع ما سيجري يحرص على أن يكون مجرد العواطف حياديا تجاه سير الاحداث ، ويتخذ بعد ذلك دور المراقب الذي ينتظر أن يرى صحة توقعاته . أما المناضل

السياسي فهو حين يستعرض . ويحلل ما جرى انما يفعل ذلك بهدف تحديد ما ينبغي أن يجري ومن آجل أن يساهم هو في صنع المستقبل . أي انــه ينطلق من كونه فاعلا في الاحداث ومن ادراكه أن الارادة الانسانية وان لم يكن بامكانها الوقوف في وجه حركة التاريخ وتيار الاحداث المتدفق ؛ فان بامكانها التأثير على هــذا التيار وهذه الحــركة وتحويل المجرى لصــالح الانسان . وهكذا فان المناضل السياسي لا يمكن أن يتخذ موقف المراقب الذي ينتظر لان موقفه هو موقف الفاعل المؤثر الذي تزداد بالوعي قدرته على الفعل والتأثير ... وواضح ان حديثنا هــذا انما هو حديث النضــال السياسي العربي الذي يتطلع للفعل والتأثير . ومحاولة الاجابة هي حــديث عما ينبغي أن يكون دون الغفلة عن توقع ما سيكون . وان أعظم فوز للامم المناضلة أن تتوافق بفعل اراداتها ونضالهــا صورة الآمــال مــع صورة التوقعــات .

قلنا ان حرب رمضان طرحت معطيات جديدة في الصراع العربي ــ الاسرائيلي ؛ وشقت المجرى العريض للاحداث في هذا الصراع لفترة قادمة .. وتلك هي طبيعة المعارك والحروب الفاصلة التي تمثل نقاط تحول وبدايات مراحل جديدة . وقد حملت المعطيات الجديدة معها ما فاجأ كثيرين من أبناء أمتنا ، وألقت بينهم أسئلة عديدة ضمن سؤال « ماذا بعد ؟ »

فما ان صدر على المستوى الدولي قرار مجلس الامن رقم ٣٣٨ يوم ٢٢ من أكتوبر ــ تشرين الاول ــ ١٩٧٣ القاضي بوقف اطلاق النــار ، وبتنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ الصــادر في ٢٢ نوفمبر ــ تشــرين الثاني ــ ١٩٦٧ ، حتى جاء الاعلان عن عقد مؤتمر للسلام في جنيف يحضره أطراف النزاع والدولتان الكبيرتان . وبرز في وطننا التساؤل عن مبــدأ الذهاب الى جنيف بالنسبة للعرب عموما ، ولعرب فلسطين خصوصــا ، وتعددت الاجابات وتباينت تباينــا شديدا . وألــح التساؤل عن مستقبل قضيــة فلسطين لو نجحت مفاوضــات الكيلو ١٠١ عــلى طريق السويس

العسكرية للفصل بين القوات المتحاربة في جبهة قناة السويس .. أو في حالة مشاركة منظمة تحرير فلسطين في مؤتمر جنيف .. أو في حالة وصول دول المواجهة العربية في المؤتمر ــ بحضور الفلسطينيين أو بغيابهم ــ الى ابرام اتفاقية سلام .. وتعددت الاجابات وتباينت تباينا شديدا . وثارت اسئلة أخرى حول مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة لو حدث أن انسحب العدو منها تطبيقا لقرار مجلس الامن .. هل تعود الضفة الغربية للاردن !! وهل يعود قطاع غزة للادارة المصرية ؟ أم هل تقوم دولة فلسطينية ؟ واذا قامت فما الصلة بينها وبين الضفة الشرقية ؟ وأسئلة أخرى تتصل بتأثير ذلك كله على مستقبل قضية فلسطين .. وتعددت الاجابات وتباينت تباينا شديدا .. وقبل ذلك تساءل البعض ــ هل من الممكن لاسرائيل أن تنسحب ؟ أو أن تشارك في مؤتمر جنيف ؟ وكان التساؤل من موقع الشك في الامكانية . وتساءل هؤلاء وغيرهم عن مواقف الدولتين الكبيرتين ودول غرب أوربا وأثر ذلك كله على سير الاحداث .. كما كثرت التساؤلات حول سلاح النفط العربي الذي استخدم في الحرب .. وتعددت الاجابات ، وتباينت تباينـا شديدا . وأسئلة أخرى واجابات ..

يمكننا ونحن نقف أمام هذه الظاهرة التي رافقت المعطيات الجديدة التي طرحتها حرب رمضان أن نقرر بأنها ظاهرة طبيعية متوقعة تصـاحب فترات التحول التي تشهد اتخاذ قرارات تحسم بين اختيارات ، وقد تخرج عما ألفه الناس من أحكام . ونقول ايضا انها ظاهرة صحية حيث يحتـــدم الحوار ويشارك الجميع لبلورة الرأي وتحديد معالم طريق المستقبل ، ما دام هذا الحوار منطلقا من ثقة بقدرتنا على الفعل ومحكوما بضوابط مبدئية وموضوعية تمكن من توظيف الحوار والفكر لصنع المستقبل . ولكن هذه الظاهرة تصبح ظاهرة مرضية مقلقة اذا فقد الحوار فيها، ذلك المنطلق وتجاوز تلك الضوابط فيتسلط عليه مزاج سوداوي وروح تشاؤمية يثبط العزائم ويشل القدرة ويشيع اليأس من المستقبل ، ويدور في حلقة مفرغة لا يخرج

منها كذلك الحوار الذي سجله لنا مؤرخ بيزنطي في القرن الخامس الميلادي حين احتدم الجدل بين أهالي القسطنطينية حول طبيعة السيد المسيح وتعددت مذاهبهم فاختنقوا في الحلقة المفرغة التي طوقتهم على مدار أيامهم وأينما كانوا في العمل أو السكن .. في الليل أو في النهار .

ونلاحظ أنه صاحب هذه الظاهرة عند البعض تسلط شعور بالحيرة ازاء ما يحدث . بل الى شعور بالتمزق حيال المستقبل . وبدأ يخيم على هؤلاء جو الحيرة والقلق والتمزق حتى أوشكت الظاهرة أن تصبح مرضية مقلقة. ولعل أكثر ما يلفت النظر من مظاهر هذه الحالة ما نسمعه يتردد بين هذا البعض من أحكام قاطعة مسبقة وتعبيرات تكشف مدلولاتها عن الجو المخيم عليهم والمنطق الذي يحكمهم . من ذلك « أن العرب عموما أو عرب فلسطين خصوصا محشورون في مأزق صعب » ، « وان قضية فلسطين توشك أن تنتهي ان لم تنته فعلا » . « وأنه لن تقوم لنا قائمة ان حدث كذا » ... الخ. كما يلفت النظر أيضا من مظاهر هذه الحالة ما نراه عند هذا البعض من انسحاق تحت شعور التآمر يعبر عنه الحديث عن «مؤامرات تطبخ .. ودوامة نحن في غمرتها ... والسمك الذي تأكله الحيتان الكبيرة » .. الخ . ونلاحظ أيضا من هذه المظاهر المبالغة في قوة العدو والتفنن في التدليل عليها واصدار الاحكام على أساس ذلك مع التهوين من شأننا والتقليل من قدراتنا وبخس ما يتوافر لدينا . ونشير كمثل على هذا المظهر الى ما نشر في بعض المجلات العربية واسعة الانتشار بعد انعقاد الدورة الاولى في مؤتمر جنيف : وتضمن مقارنة بين وفد العدو الذي يرأسه « عالم سياسي واستاذ دولي في الدبلوماسية » والوفود العربية التي يرأسها « موظفون » والاسهاب في وصف قدرات الوفد الاسرائيلي « الذي يضم مجموعات من أشهر رجال الدبلوماسية وأساتذة الجامعات ، كل مجموعة متخصصة بناحية ، مجموعة في الوثائق ، ومجموعة للتحليل ، ومجموعة الاعلام ، ومجموعة تعودت أن تمثل الشخصيات البارزة التي تتولى مسؤولية القرار .. » على

النسط الذي شرحه كوبلاند في حينه عن المخابرات الامريكية في « لعبة الامم » . وقد تردد هذا المضمون على ألسنة كثيرين في أنحاء مختلفة من الوطن العربي في معرض ايراد الحقائق المرة والحديث عن قوة العدو . وكانت المفارقة أن ينشر في الاسبوع نفسه في جريدة دافار هجوم عنيف على «خبراء الشؤون العربية الاسرائيليين ، وانتهاء زمن خبراء النفسية العربية الذين أثبتوا فشلهم الذريع وكشفوا عن ادعاءاتهم » .

لا نود ضرب أمثلة تفصيلية عن مظاهر هذه الحالة وأمثلتها كثيرة يمكن أن نلاحظ العديد منها ، سواء في مجال الاحكام المسبقة التي تصادر المستقبل مقدما « وتجفف البحر » حسب التعبير الشائع الشعبي ؛ أو في مجال الانسحاق تحت شعور التآمر الذي يتولد عن نفسية توشك أن تكون ماسوشية ؛ أو في مجال التهويل في قوة العدو والتهوين من شأننا الذي يغذي شعور الانسحاق ويقدم المبرر للاحكام القاطعة . ولكننا نود أن ننبه الى خطورة هذه الظاهرة حين تصبح مرضية ونلاحظ أخطر نتيجة لها وهي فقدان الارادة الفاعلة عند من يقع في براثنها وسيطرة الشلل عليه ولجوئه الى رد الفعل الانكماشي تجاه التحديات المحيطة ، ودفن رأسه في الرمال كالنعامة : وهكذا يصبح الرجل « مضبوعا » وفق ما ورد في الحكاية الشعبية التي تنتشر في بلادنا ..

لقد عانت أمتنا الكثير من هذه الظاهرة على مدى سنوات الصراع العربي الاسرائيلي وخصوصا بعد نكسة يونيو (حزيران) عام ١٩٦٧ حين تفشت مظاهر الظاهرة المرضية على السطح وبدا خطر نتائجها ضمن حرب العدو النفسية التي شنها بعد عدوانه العسكري . ولعلنا نذكر كل ما تردد آنذاك في أوساط الكثيرين وخصوصا من المثقفين عن « العدو الذي لا يقهر » وعن « الفارق الحضاري بيننا وبين العدو » وعن « الفجوة العلمية الواسعة التي تجسد هذا الفارق » وعن « حدود وامكانيات الجندي العربي .. وحدود العقل العربي » وعن « المؤامرات الدولية التي لا قبل لنا

بها . وسيطرة الصهيونية على العالم » الخ .. ضمن مئات المقاولات والكتب والاحاديث الاذاعية التي رافقتها حرب نفسية شنها العدو فكانت تصريحات زعمائه اليومية . ومثل بارز لها تصريحات موشي ديان . التي كونت ركاما وأعجزت المعلقين عن تتبعها لكثرتها . ولعلنا نذكر كيف وازنت أمتنا هذه الظاهرة وهي تتمالك نفسها بعد النكسة مصممة على الصمود ومتابعة النضال فكانت الردود الفكرية على مقومات تلك الظاهرة المرضية . ثم كان الرد العملي باستمرار النضال وتكامل عنصري المقاومة والجيش النظامي في حرب الاستنزاف(١) .

واذا كانت الظروف الصعبة التي أحاطت بأمتنا اثر نكسة ٦٧ تقدم تفسيرا لتفشي تلك الظاهرة . وتبرر الى حد وقوع البعض أسرى لها ، فان الامر قد اختلف اختلافا بيّنا اثر حرب رمضان حيث تبدلت الظروف غير الظروف . ومع ذلك ـــ ولعل هذا أشد ما يقلقنا في الظاهرة ويفرض علينا ان نخصص لها هذا الحديث ـــ فان البعض لا زال يتحدث اللغة القديمة ويعاني من الظاهرة ، وكأن شيئا لم يكن في حرب رمضان معبرا عن الجديد .. بل وكأن حرب رمضان جاءت لتدلل مرة أخرى على منطقه . وهكذا بلغ عند هؤلاء الامر ان يتحدثوا عن نكسة ١٩٧٣ التي كررت نكسة ٦٧ ويندبوا حظ العرب العاثر وينعوا على كل من تفاءل بنتائج حرب رمضان . وهناك من كان أقل تطرفا فاعترف لحرب رمضان ببعض الايجابيات ولكنه ذهل أمام معطياتها الجديدة ، فبانت عليه جميع المظاهر للظاهرة المرضية .. ولا نجد تفسيرا لهذا الذي ظهر بعد السادس من أكتوبر وعلى الرغم من كل ما حمله

---

(١) يراجع كتابنا « من المقاومة الى الثورة الشعبية » كواحد من كتب صدرت بعد النكسة وتضمنت مناقشة الظاهرة • كما نشير الى مثل على الظاهرة الى التحليلات السياسية التى بدأت تظهر منذ نكبة ١٩٤٨ . وتخصصت بها بعض المنظمات السياسية وكانت تفسر جميع أحداث المنطقة باعتبارها صراع معسكرات استعمارية ومؤامرات دولية أو صهيونية مسقطة تماما اي تأثير للمنطقة على الاحداث • ويلاحظ انعكاس ذلك على الاعلام العربي •

معه من جديد الا تأصل الظاهرة عند البعض بعد نكسة ٦٧ حتى بات من الضروري التصدي لمعالجة جذرية لها .

ان هذه المعالجة الجذرية انما تكون بتحويل الظاهرة المرضية الى الظاهرة الصحية . اي انها تنطلق من الاعتراف بأن الظاهرة في أصلها طبيعية متوقعة كما قلنا ، وتبقى صحية ما دامت تعبر عن ثقة بقدرتنا على الفعل وتحكم بضوابط تمكن من توظيف الحوار والفكر لصنع المستقبل . وهذا يقتضي منا وكخطوة اولى للاجابة عن سؤال : « ماذا بعد ؟ » أن نبدأ بتقويم موضوعي لحرب رمضان . واذا كنا قد أكدنا على خطورة الظاهرة حين تصبح مرضية لشعورنا بتأثيرها على مسيرة النضال العربي ، فاننا ننبه بشدة الى أن ظهور العارض المرضي لا ينبغي أن يؤثر على احترامنا للتفكير وحرية الرأي ، وانما يدفعنا الى الحرص على الحوار لان الظاهرة في أصلها طبيعية. بل ونزيد أن حدا أدنى من العارض المرضي فيها مطلوب لحدوث التفاعل تماما كالحد الادنى الذي يحتاجه الجسم من الجراثيم في عملية التطعيم ليساهم في تكوين المناعة .

الفصل الثاني

تقويم حرب رمضان

لا بد لنا اذن ونحن نحاول الاجابة على السؤال الملح « مـاذا بعد ٦ أكتوبر ؟ » الذي طرحته حرب رمضان ، وعلى أسئلة عديدة برزت ضمنه أن نبدأ بتقويم موضوعي لما حدث لنقف على أرض صلبة من ادراك الواقـع الذي نعيشه ، وفهم المعطيات الجديدة فيه ، ووعي عبر الماضي ودروسه . الامر الذي يمكّن من رؤية وتحديد المجرى العريض للاحداث ، فضلا عن تلبية نداء ظاهرة التساؤلات ومعالجة اعراضها المرضية .

لقد سبق لنا أن أوجزنا نتيجة التقويم كما نراها في بداية هذا الحديث حين قلنا ان ٦ أكتوبر في الرؤية التاريخية نقطة تحول وبداية مرحلة جديدة في الصراع العربي الاسرائيلي . كما سبق ان بيّنا بايجاز لماذا كان كذلك ، ووعدنا أن نفصّل ما أوجزناه . ولسنا هنا في مجال تسجيل وتأريخ ما حدث ساعة بساعة ولا في مجال البحث عن أسرار الحرب ، ولكن الذي يهمنـا هو أن نلاحظ الجديد فيما حدث الذي يعطي لحرب رمضان قيمتها ، ونحن لا نزال نعيش ذكريات الحرب وأحداثها .

في يوم السبت الموافق ٦ أكتوبر ــ الموافق العاشر من رمضان ــ صدر

قرار للقوات العربية المصرية والسورية في جبهتي قناة السويس والجولان باطلاق النار على العدو الاسرائيلي في الاراضي التي احتلتها بعدوان ٦٧ ، وبالهجوم على مواقع العدو . وهكذا بدأت الحرب الرابعة في الصراع وأنهت حالة اللاحرب واللاسلم التي استمرت بين عامي ٧٠ و ٧٣ ..

كان أول جديد فيما حدث هو اتخاذ قرار الهجوم الذي عبر عن انطلاق الارادة العربية في المجال الحربي بحجم أكبر وبشدة أعظم من أي مرة سبقت خلال الصراع . ونقف عند قرار الهجوم مستشعرين أهميته البالغة ونحن نستحضر تاريخ الصراع والحروب الثلاث التي حدثت فيه قبل هذه الحرب . فلقد قامت استراتيجية عدونا في تلك الحروب على أن تكون الضربة الاولى له يفاجئنا بها . وطفق بعد حرب ٦٧ الثالثة يلوّح دوما بالعدوان مستهدفا خنق الارادة العربية . وهكذا فرض علينا في تلك الحروب الثلاث توقيت المعركة والموقف الدفاعي فيها . الامر الذي كلفنا الكثير ، وخاصة يوم الخامس من يونيو ؛ وجنّبه الكثير من ويلات الحرب. ومع ان التعبير عن الارادة العربية تحقق مرات قبل ٦ أكتوبر في المجال السياسي كما حدث يوم تأميم القناة ، ويومي التاسع والعاشر من يونيو . وفي المجال العسكري المحدود كما حدث في المقاومة والاشتباكات المتوسطة المدى في حرب الاستنزاف بين عامي ٦٧ ، ١٩٧٠ ، الا أن قرار الهجوم ، وحجم الهجوم وتوقيته يوم ٦ أكتوبر جعل حرب رمضان تحمل معها الجديد في مجال التعبير عن الارادة العربية العسكريا وحربيا .وهكذا انحلّت عقدة وحدث تحوّل وكا نلهذا الجديد نتائجه الكبيرة على جميع مستويات الصراع وخاصة على مستوى العدو كما سنرى .

وكان الجديد الثاني فيما حدث هو الوحدة الفعلية بين جبهتي مصر وسوريا منذ اللحظة الاولى وعلى مدى ايام الحرب . وحدة حققت تكامل الجبهتين وتناغمهما عسكريا ، وأبرزت عمليا مدى فعالية وحدة خطوط النار في حرب العدو . ولقد قامت استراتيجية عدونا في الحروب السابقة على

افقادنا مزايا الطوق الاستراتيجي الذي تمثله الجبهات العربيـة المحيطـة بالاراضي العربية ، وخوض الحرب مع كل جبهة على حدة . وهذا ما فعله حين هاجم سيناء وغزة في عام ١٩٥٦ وحين بدأ الهجوم على مصر عام ١٩٦٧ حتى اذا حقق ما يريده تحول الى الجولان والضفة الغربية . وكنا نحن نردد نظريا ضرورة وحدة خطوط النار ونرفع شعاراتها ونفصل الدراسات عـن استراتيجية العـدو العسكرية وكيـف نجابهها وقد خرجنـا بعبارات في التجارب العسكرية السابقة بسبب تفكك الجبهات . وجاء ٦ اكتوبر فاذا حد أدنى من الوحدة الفعلية يتحقق بين الجبهتين . ويأتي لنا بالخير الكثير ويكشف عن مدى الامكانيات التي بأيدينـا لو اكتملت هـذه الوحـدة باشتراك جبهة الاردن ولبنان ليحكم الطوق وتفعل الكماشة فعلها .

ولقد ساهم في هذا الجديد الثاني اشتراك عنصر المقاومة الفلسطينية مع الجيش النظامي في الجبهتين في المعارك الحربية. وقيامه بدور داخل الاراضي المحتلة الامر الذي جسد تكامل عنصر المقاومة مع الجيش النظامي بصورة أوضح وكان هذا التكامل قد تجسّد بعد النكسة في حـرب الاستنزاف وحقق نتائج طيبة .

ومهد هذا الحد الادنى من الوحدة العسكرية في الجبهات لمزيد من المشاركة العسكرية العربية فساهم العراق على الخصوص بدور يؤهله له موقعه وامكانياته وساهمت مختلف الاقطار العربية بنصيبها ضمن ظروف الحرب ومواقعها وامكاناتها . الامر الذي كان له اثره المادي فضلا عن أثره المعنوي الكبير . وكانت له دلالته المستقبلية .

وكان الجديد الثالث فيما حدث هو المشاركة العربية الفعلية في المعركة على مستوى الوطن العربي كله ، ليس في المجال العسكري الذي أشرنا اليه فحسب بل في مجالات أخرى سياسية واقتصادية واعلامية هامة ؛ فحققت وقفة عربية رسمت صورة مشرفة لمفهوم قومية المعركة . واذا كانت الوقفة

العربية في حد ذاتها ليست جديدة لانها تحققت من قبل ابان العدوان الثلاثي وحرب ٦٧ وفي جميع معارك النضال العربي وثورة الجزائر على الخصوص. الا ان الجديد فيها هنا هو حجم الوقفة وأسلوب فعلها . فالامر تجاوز هذه المرة في الحجم ضمن أيام الحرب المعدودة كل الاحجام السابقة واتخذ أسلوبا متقدما في التأثير على صعيد مجابهة العدو في الحرب وعلى صعيد البعد الدولي للحرب . ولقد كان العدو في استراتيجيته حريصا على منع هذه المشاركة الفعلية ، متحسبا من حدوثها لوعيه أخطارها . وساهم في المرات السابقة في الحد منها . ولكنه جوبه هذه المرة بما أذهله .

وكشفت هذه المشاركة العربية الفعلية عن مدى فعالية قومية المعركة، على الرغم مما شابها من نقص . وأكدت فعالية العمل العربي الموحد كمسلك يتكامل مع مسلك العمل العربي الثوري وفق ما طرحته الثورة العربية . ومطلوب طبعا ان ندرس النقص الذي شاب المشاركة العربية لتلافيه مستقبلا . ولا بد أن نشير أيضا الى أن هذه المشاركة مرتبطة ارتباطا وثيقا بما حدث من وحدة الجبهتين ومن اصدار قرار الهجوم ، حتى يمكن اعتبارها الى حد ما نتيجة لها .

وكان الجديد الرابع فيما حدث هو ظهور قدرات الشعب العربي على العطاء وامكانيات الانسان العربي على الابداع في مختلف المجالات . فلقد كان الوعي بوجود هذه القدرات والامكانات موجودا عند المناضلين العرب ولكنه كان بحاجة ماسة الى ظهورها بعد ان تراكم الشك بوجودها عند كثيرين بفعل نكسة يونيو ٦٧ على الخصوص ، سواء في نطاق أمتنا أو على مستوى العدو أو بين شعوب العالم أجمع . ونلاحظ ان الحرب النفسية التي شنها العدو ركزت على استغلال هذا الشك وتعميقه وليصل الى حد اليأس والكفر ، واستفادت من حالة اللاحرب واللاسلم الى آخر مدى . وجاء ٦ أكتوبر ليمكّن القدرات والامكانيات من الظهور في شتى المجالات.

ففي المجال العسكري : بدا الشعب العربي محاربا يخوض غمار المعارك ويصبر عليها ويتقن تخطيطها وتنفيذها . وظهر الجندي العربي مقاتلا صلبا . يعيش عصره مستوعبا ما فيه من تقنية وعلم . وهكذا تحقق عبور قناة السويس واقتحام خط بارليف . وتحقق في سماء دمشق اسقاط عشرات من طائرات العدو المقاتلة .. واستمرت الحرب اياما فيها الكر والفر . وأبلى الشعب في مصر وسوريا بلاءا حسنا . وسجل تاريخنا بفخر معركة العبور ومعركة دمشق التي شارك فيها الشعب والجيش .. والجدير بالذكر الذي نقف عنده هنا أن شعبنا خاض حربا كاملة في ساحة الوغى . وهو ما لم يحدث في الحروب الثلاث السابقة ،. الامر الذي مكّنه من الكشف عن قدراته وامكانياته لاول مرة . ومكنته أيضا من الكشف عما في عدوه من نقاط قوة وضعف ومن تفجير تناقضاته الداخلية.وطبيعي أن تكون قد برزت ضمن قدراتنا وامكاناتنا سلبيات ، ومفهوم أيضا أن يكون العدو قد نفذ من هذه السلبيات الى تحقيق اهداف جزئية . ومطلوب بالحاح دراسة هذا النفاذ ، ولكن .. هذه جميعها جزئيات هامة في الصورة التي بدت بمجملها على الصعيد العسكري مشرفة لنا .. وأصبح من حقنا بعد حرب رمضان أن نكتب تجاربنا العسكرية السابقة كلها وننشرها . ولعلنا نذكر أن مصر العربية كانت محجمة عن نشر بطولات كثيرة حدثت في حرب ٦٧ بسبب الصورة الاجمالية لتلك الحرب وفي انتظار المناسبة التي جاءت بعد سنوات ستة .. ولا بد من اشارة خاصة ضمن هذا الحديث الموجز عن المجال العسكري لعامل التوقيت في بدء الهجوم يوم سبت عيد الغفران اليهودي الذي كشف عن تقدم في التخطيط العسكري .

وفي المجال الاعلامي : ظهر الشعب العربي قادرا على التعبير عن نفسه بصدق وبلغة العصر . وخاض الاعلام العربي معركة انتصر فيها . فشرح لماذا كانت الحرب . وأعلن مجريات أحداثها أولا بأول موردا الحقائق بلا مبالغة أو تزوير ، فكسب الثقة وكان واعيا وهو يخاطب العدو بطبيعة المعركة، كما

خاطب العالم وهو ممثل روح العصر فاهم لغة التعبير فيه . وهكذا تحقق جديد في اعلامنا العربي الذي خذل الانسان العربي باخفاء الحقائق في الحروب السابقة ، وألّب العالم علينا حين أخل باستخدام اللغة الاعلامية غافلا عن روح العصر ولغته . ولقد قلب هذا الجديد الصورة السابقة لاعلامنا واعلام العدو . فاذا باعلام العدو يتورط في اخفاء الحقائق على جمهوره وعلى العالم ويفقد توازنه فيلجأ الى المبالغة والجعجعة ..

وفي المجال السياسي : ظهر العرب قادرين على التحرك والتأثير بفعالية في عالمنا المعاصر بكتله وتقسيماته واستراتيجياته بعد أن أصبحوا أكثر فهما له .. واذا كنا قدّمنا الحديث عن المجالين العسكري والاعلامي فلأن حرب ١٩٦٧ الصقت بنا شبهات حولهما ، وليس لقلة أهمية المجال السياسي الذي له تأثيره الكبير أيضا ، وقد أثمر التحرك العربي سياسيا توفير مناخ مناسب للحرب العسكرية ؛ واستطاع ان يعزل العدو في أكثر من ساحة . وما جرى في افريقيا خير مثل ، كما ان تحول اليابان عن موقفها وتغير موقف أوروبا الغربية عما كان عليه حرب ٦٧ مثلان آخران .. ومع ان العلاقات العربية بالدولتين الاعظم لا زالت مطروحة للتحديد العلمي الدقيق وسط صورة عالمنا المعاصر بعد حرب رمضان ، وسنعود للحديث عنها ، الا أن ما رسم من خطوط فيها خلال الحرب يبرز قدرة سياسية يمكن ان تكون لها آثارها مستقبلا .. ولا بد ان نشير هنا الى ما بدا من تكامل بين الدول العربية في التحرك السياسي ، وهذا جديد برز للمرة الاولى بفضل الاستفادة من التنوع الذي جعله البعض سببا للتناقض حين غفلوا عن تكامل مسلكي العمل العربي الموحد والعمل العربي الثوري . كما لا بد أن نشير الى اللغة السياسية المحكمة التي خاطبنا بها العالم ابان الحرب ، ومن أمثلتها خطاب الرئيس السادات في مجلس الشعب وخطاب الرئيس الاسد في اليوم الاول للحرب .

وفي المجال الاقتصادي ظهر العرب واعين بأهمية العامل الاقتصادي

في رسم السياسات ، مدركين ما لديهم من امكانيات وقدرات اقتصادية خصوصا في نطاق الطاقة ورأس المال ، وقد تجسد ذلك في استخدام السلاحين لأول مرة . ومع ان هذا الاستخدام يستحق دراسة مفصلة تكشف عما أظهرته التجربة وتحسم في الاجابة حول التساؤلات والآراء التي طرحت الموضوع للتجربة العملية . وطبقت القرارات الاقتصادية لأول مرة قرارات قديمة اتخذها مؤتمر القمة العربي الاول والمؤتمرات التالية حول استخدام سلاح النفط وتحديد العلاقات العربية بالدول وفقا لمواقفها من قضية فلسطين . وهكذا وضعنا أقدامنا في أول الطريق .

هذا هو الجديد الذي يعطي لحرب رمضان قيمتها ويوحي باعتبارها نقطة تحول في الصراع العربي الاسرائيلي وبداية مرحلة جديدة في النضال العربي . وواضح ان الجدة فيه كانت في وضع الافكار التي يقوم عليها موضع التطبيق ، لان الفكر العربي كان قد بلور هذه الافكار وطرحها خلال مراحل النضال السابقة . والتطبيق هو الذي يبعث في الافكار الحياة ويمكّنها من صنع المستقبل .

وقد حرصنا في تقويمنا لحرب رمضان على ابراز هذا الجديد لان له تأثيره في رؤيا المستقبل . ويجدر ان تتنبه هنا الى ان ظهور هذا الجديد في حرب رمضان لا يعني اختفاء السلبيات القديمة منها ، فقد كشفت الحرب أيضا عن هذه السلبيات التي عانى منها النضال العربي طويلا . وهذا لا يقلل من قيمة الجديد لان التغيير الحضاري لا يتحقق دفعة واحدة . وانما يظهر في بدايات جديدة تنمو وسط القديم تماما كما تنمو الاوراق الجديدة الخضراء في الشجرة التي لا تسقط أوراقها مرة واحدة . وبالطبع تكون ظهور هذه البدايات حافزا على رعايتها لتعم .

ولكن .. كيف تحقق هذا الجديد وتبلورت الافكار ووضعت موضع التطبيق ؟

يقفز هذا السؤال ونحن على وشك التعرف على نتائج حرب رمضان في نطاق استكمالنا عملية التقويم . والاجابة عليه ضرورية ليقوم فهم النتائج على أساس علمي .

لم يتحقق هذا الجديد فجأة ، بل احتاج ليتحقق سنوات طويلة من النضال العربي . وهكذا فهو ليس من قبيل المعجزات التي ليس لها مقدمات وانما اعجازه في كونه ممتد الجذور في أعماق تربة النضال العربي . ولقد قلنا ان الفكر العربي بلور الافكار التي قام عليها هذا الجديد وطرحها خلال مراحل النضال السابقة . والحق ان هذا الجديد هو ثمرة النضال العربي خلال نصف قرن او يزيد . وقد ساهمت في انضاجه على الخصوص الثورة العربية وتجربتها النضالية في العشرين سنة الماضية . ولا بد ان نلاحظ الصلة الوثيقة بين نكبة عام ١٩٤٨ وبين انطلاق هذه الثورة منذ عام ١٩٥٢ في مصر ، ثم في أجزاء أخرى من الوطن العربي[١] . لنكون على وعي دائما بالتحدي والاستجابة مدركين جدلية الصراع . ثم نذكر كيف تبلورت شعارات الثورة وطرحت قضية الوحدة والتحرير . وكيف بدأت تتضح لنا أبعاد عالمنا المعاصر ومكان الصراع العربي الاسرائيلي في الصراع العالمي. ونذكر أيضا المعارك التي خضناها سياسيا واقتصاديا وعسكريا والعبر والدروس التي خرجنا بها من تلك المعارك بعد أن أصبنا وأخطأنا فيها . وكيف استطعنا مباشرة بناء الجيش العربي .

والحق أن النضال العربي منذ بداية حركة اليقظة العربية الحديثة قبل قرن وحتى حرب رمضان استطاع أن يحقق للأمة العربية الكثير على طرق التقدم واللحاق بالعصر وبناء حضارتنا من جديد . ويهمنا أن نؤكد على أهمية

---

(١) نعني بالثورة العربية ، الثورة العربية الواحدة الشاملة . وقد شرحنا مدلولها في كتابنا « عبد الناصر والثورة العربية » . ويمكن التوسع في دراسة التحدي والاستجابة بالرجوع الى « النكبة والبناء » لوليد قمحاوي . والى كتاب توينبي الجامع : « دراسة في التاريخ » .

النظر الى حقبة تاريخية مكتملة قبل ان نصدر أحكامنا على احداث جرت فيها ؛ والا كان الوقوع في اصدار أحكام خاطئة . وقد حدث ذلك بشكل مريع إثر نكبة ٤٨ ونكسة ١٩٦٧ وأوصل البعض الى نتائج غير صحيحة . ونحن حين ننظر الى هذين الحدثين وغيرهما من الانتصارات او النكسات ضمن الحقبة التاريخية المكتملة . نجد ان جميع هذه الاحداث تقع في فترة تعيش فيها أمتنا العربية انبعاثا حضاريا جديدا بدأت بيقظة ثم بنهضة ولا تزال تغذ السير . أي أن الخط البياني لسير الامة العربية منذ قرن هو في مجمله باتجاه صاعد وفيه ما فيه من نكسات وانتصارات . واننا لنستشعر أهمية ادراك هذه الحقيقة ووعي مجرى الحركة التاريخية لما لهذا الادراك والوعي من علاقة وثيقة برؤية المستقبل وصنعه .

وهكذا يحق لنا بعد معرفة كيف تحقق الجديد ان نحيي في يوم الاحتفال بالنصر المبدئي جميع الذين ساهموا في الاعداد له على مدى سنوات ، ونشير على الخصوص الى الجهود الصادقة التي بذلت منذ نكسة ٦٧ لبناء القوات المسلحة العربية .

الفصل الثالث

نتائج حرب رمضان

ونستكمل عملية التقويم بالتعرف على نتائج حرب رمضان . ونود بداية أن ننبه الى صعوبة تحديد هذه النتائج ولما يمض على الحرب الا وقت قصير ، ونتائج الحروب عادة تستغرق وقتا حتى تتحدد وتستقر . ولقد سبق أن قلنا في مطلع الحديث أن سلسلة الاحداث لم تنته وان الفترة الحاضرة حبلى بالكثير منها . ولعل ذلك ما كان يقنع المؤرخين بتجنب كتابة التاريخ المعاصر . ولكن على الرغم من هذه الصعوبة فانه يمكننا التعرف على النتائج الاولية لحرب رمضان التي رسمت خطوط المرحلة لفترة قادمة . وقد سبق أن أوضحنا أن الحرب شقت المجرى العريض للاحداث المقبلة شأنها في ذلك شأن الحروب عامة . وبالطبع سيكون حديثنا عن النتائج الاولية بأسلوب التصدي لاحداث التاريخ المعاصر الذي نراه يختلف عن أسلوب التصدي لاحداث التاريخ البعيدة [1] .

حين نعرض للنتائج الاولية للحرب يبرز أمامنا التغير الذي طرأ على

---

(١) من المعلوم ان التاريخ المعاصر لم يتقرر تدريسه فى الجامعات الا حديثا ، وعلى الخصوص بعد الحرب العالمية الثانية ، ولا يزال الحوار متصلا بين علماء التاريخ حول كتابة التاريخ المعاصر ومدى علاقتها بالكتابة التاريخية عموما .

خطوط وقف اطلاق النار التي حددتهـا حرب ١٩٦٧ . ونلاحظ أن هـذا التغير لم يستقر بعد فهناك الصورة التي ظهرت عشية وقف اطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وفيها نرى مثلا العبور المصري الى الضفة الشرقية للقناة . وحدوث الاختراق الاسرائيلي المحدود في الضفة الغربية . ثم تغيرت الصورة حين استغل العدو وقف اطلاق النار ليوسع الخرق ويصل الى طريق القاهرة السويس . ثم تغيرت الصورة بعد الاشتباكات المحدودة في الضفة الغربية وابرام اتفاقية فصل القوات ــ التي لم تكن قد أبرمت حين شرعنا في كتابة هذه الدراسة ــ ومن المتوقـع ان تجري تغـيرات أخرى ضمن المراحل التي سيتفق عليها لتطبيق قراري مجلس الامن ٣٣٨ و ٢٤٢ . ويمكن أن تتتبع الصورة أيضا على الجبهة السورية التي لم يتحقق فيها فصل القوات عند كتابة هذه السطور[1]. ونصل من ذلك الى القول بأن النتائج الاولية للحرب بالنسبة للاراضي التي احتلها العدو عام ٦٧ هي عودة بعض هذه الاراضي . وقد هيأت الحرب المناخ ــ كما سنرى من عرضنـا لنتائجهـا الاولية ــ على مختلف مستويات الصراع لتحقيق انسحاب العدو من جميع هذه الاراضي . أي أن الثمرة التي أنضجها النضال العربي منـذ النكسة وبحرب رمضان على الخصوص هي استعادة الضفة الغربية بما فيها القدس العربية وقطاع غزة وسيناء وجولان وهي ثمرة لا بد أن تقطفها الامة العربية ويتوقف ذلك بالطبع على النضال العربي في الفترة الراهنة ، وهو الـذي سيحدد تفاصيل الصيغة والشكل وحدود الشروط التي ستوضع لقطـف الثمرة . ومن الواضح أن الحوار قائم الآن في الوطن العربي حول هـذا الموضوع . ولعلنا نساهم فيه ونصب أعيننا جميعا بلوغ أفضل صيغة تمكن النضال العربي من الاستمرار .

بدأنا بالحديث عن هذه النتيجة الاولية لان استرداد أراضينا المحتلة

---

(١) تم التوصل الى اتفاقية فصل القوات على الجبهة السورية في ٣١ مايو ١٩٧٤ بعد جهد دبلوماسي كبير وحرب استنزاف خاضتها سورية ببسالة .

هو الهدف الاساسي الذي لا بديل لنا عنه . وهو من ثم المقياس الدقيق لمدى نجاح النضال العربي بما يقدم لامتنا من واقع ملموس . ولكن بلوغ هذا الهدف مقترن بتحقق نتائج أخرى للحرب سابقة لهذه النتيجة النهائية التي هي محصلة النتائج جميعها . وهذه النتائج الاخرى هي التي أوصلت الى تهيئة المناخ للانسحاب وهي تحدد امكانيات استمرار الصراع ومتابعة نضالنا العربي فيه . فلنتعرف اذن على النتائج الاولية للحرب كما تبدو على طرفي الصراع .. العدو ونحن وعلى رؤية العالم المحيط بنا للصراع . ونبدأ بالعدو لان معرفتنا به عامل أساسي في معرفتنا بأنفسنا .

*

الصورة التي كان عليها عدونا اسرائيل قبل ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ومنذ حرب ٥ يونيو ١٩٦٧ وظهر بها علينا وعلى العالم لا تزال ملامحها في الذاكرة، وهي تقترن في نفس الوقت في نفوسنا بمرارة لا تنسى .. ولسنا في مجال تفصيل وصفها هنا فقد حفظتها كتابات كثيرة يمكن الرجوع اليها . ويكفي أن نشير الى صورة اسرائيل المنتصرة في حرب يونيو التي احتلت المساحات الواسعة من الاراضي العربية في ستة أيام ، والى مئات التصريحات الاسرائيلية ــ بل وألوفها .. عشرات كل يوم يدلي بها ديان وآلون ورابين وهور وباوليف ومائير وآخرون كثيرون حول أطماع اسرائيل التوسعية في الوطن العربي وحول « معجزة اسرائيل العسكرية » و « جيشها الذي لا يقهر و « الصقور والحمائم » و « والمثل الاسرائيلي الفريد » ، والى سياسة اسرائيل في الاراضي العربية المحتلة وبناء المستعمرات الاستيطانية الجديدة فيها ، والى اعتداءات اسرائيل خاصة بعد سريان وقف اطلاق النار اثر قبول مبادرة روجرز منذ أغسطس سنة ١٩٧٠ في أعماق أراضي الدول العربية المجاورة لفلسطين ، والى غطرسة اسرائيل وتبجحها على المستوى العالمي وتحكم الصهيونية في اليهودية العالمية ومجاهرتها بأسطورة الشعب الله المختار ... صورة غريبة بشعة ساهمت في صنعها عوامل كثيرة ، من أهمها الانتصار العسكري الاسرائيلي في حرب يونيو ١٩٦٧ وطبيعة التجمع

الاسرائيلي كتجمع استيطان استعماري فريد . ولقد تنبه الى مدى بشاعة هذه الصورة وأخطارها كثيرون مـــن بينهم صحفي اسرائيلي هرب مـــن اسرائيل الى لندن ليصدر نشرة عن « أخبار اسرائيل الاستعمارية » [1] .

وتحت سطح هذه الصورة الغريبة البشعة كان يمكن للمتأمل الدارس أن يرى تحرك تناقضات هذا التجمع الاسرائيلي ، ويتابع حركة الصـــراع داخله ويلاحظ بوادر اهتزاز نفسي في أفراده بفعل حرب الاستنزاف بين عامي ٦٧ و٧٠ بعنصريها المقاومـــة والجيش النظـــامي .. ثم بفعل استمرار المقاومة على الرغم من توقف اطلاق النار على جبهة القناة في عام ٧٠ وتعرض منظمات المقاومة لاحداث أيلول الاسود وما تلاه .. وقد تجلى هذا الاهتزاز النفسي في مظاهر عـــدة ولكنه بقي محـــدود الاثـــر تغطيـــه صـــورة « الاسرائيلي المنتصر » [2].

ونشبت الحرب الرابعة ظهر يوم السبت السادس من أكتوبر ، وبدأت تفعل فعلها في التجمع الاسرائيلي الذي كان يحتفل بعيد الغفران ، ومـــع ساعات الحرب الاولى .. ثم مع أيامها التالية تغيرت صورة العدو في داخله شيئا فشيئا حتى بدا عند توقف القتال في صورة أخرى .

ونتتبع بايجاز هذا التغير ، فنلاحظ على الاسرائيليين نوعا من المفاجأة وان كانت الحكومة الاسرائيلية لم تفاجأ تماما بالحـــرب . وتصدر الصحف الاسرائيلية مليئة بالتصريحات الرسمية «توحي جميعا بالثقة بالنفس وبالنصر

---

(١) يراجع كتابنا « من المقاومة الى الثورة الشعبية » الذى تضمن عرضا لهذه الصورة مفصلا وقصة هذا الصحفي وامثلة أخرى . كما نشير الى مسرحية « هذه الليلة الطويلة » التى تناولنا فيها عرض تلك الفترة .

(٢) من هذه المظاهر حركة النزوح الاسرائيلي عن فلسطين المحتلة. وقد تتبعنا ظاهرة الاهتـــزاز النفسي هذه في كتاب سابق الذكر . وفي مجموعة مقالات نشرت بجريدة الجمهورية القاهرية والبلاغ الليبية .

وبالتفاؤل أكثر من تفاؤل الناطق العسكري الاسرائيلي » . ولا تلبث هذه الصحف في اليوم الثالث للقتال « أن أخذت تعكس حالة القلق اذ ظهرت في كل منها عشرات الاعلانات تصل في مجموعها الى بضع مئات وكلها يبين فيها ناشروها أرقام هواتفهم معلنين استعدادهم لتلقي مخابرات المجندين...» وتعلن الاذاعة الاسرائيلية بالعبرية « عن اقامــة وحــدة في القدس يسكن للمصابين بتوتر نفسي نتيجة الحرب الاتصال بها هاتفيا ليلا ونهارا لطلب المشورة من مختصين في العلاج » . وتنتشر شائعــات « ان عــددا مــن المجندات الاسرائيليات قد وقع أسيرا في يد العرب » وشائعات أخرى عن خسائر الاسرائيليين خلال اقتحام الجيش المصري لخط بارليف » . وتنبري أجهزة الاعلام الاسرائيلية لمحاربة الشائعات وتلسح الصحف عن حالة الذعر التي سادت المدن امام الحوانيت وفي أسواق المواد الغذائية . كما تحدثت عن ملاجيء كثيرة في تل أبيب لم تكن معدة وعن مخالفات الناس لاجراءات التعتيم وأن احدى المشكلات الحادة التي جابهت بلدية تل أبيب خلال أيام الحرب الاولى هي المحافظة على معنويات السكان في المدينة . ولخصت احدى الصحف الاسبوع الاول للقتال بأنه « كان أسبوع اهتزازات حادة في معنويات الجمهور »[1] .

بدأنا بتتبع الآثار النفسية للحرب على تجمع العدو ، لانها في رأينــا من أهم العوامل التي تحسم في الصراع ، بل لعل العامل النفسي هو العامل الاهم في مثل الصراع العربي الاسرائيلي باعتباره صراعا بين أمة تناضل عن حقها في مواجهة استعمار استيطاني عنصري . وهذا العامل هو جماع تأثير وتفاعل العوامل الاخرى السياسية والاقتصادية والاجتماعية . والحرب في

---

(١) مراجع ملحق العدد ٢٠ من نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية بتاريخ ٦-١١-١٩٧٣ وفي النشرات التالية عرض واف لما كتبته الصحف الاسرائيلية عن الحرب . وهذه النشرات هي أحد مصادرنا في تتبع النتائج على نفسية العدو .

النهاية صراع ارادات والغلبة فيها لمن تبقى ارادته معه تعززهـا نفسيتـه المتماسكة .

نلاحظ اذن على الايام الاولى للحرب انها تركت آثارا نفسية واضحة على التجمع الاسرائيلي توجزه كلمة « القلق » .

وما ذكرناه كان البدايات التي سرعان ما اتضحت في أيام الحـرب التالية مع استمرار المعارك وتزايد خسائر الاسرائيليين بشريا وفي جميـع الاسلحة . وقد اضطر ديان في خطاب له في تخريج دورة طيارين ان يعترف « ان اسرائيل في ذروة الحرب ربما للمرة الاولى » ، وأن يحذر « من البكاء والتذمر » وأن يؤكد « أن العرب يختلفون الآن عما كانوا عليه . فسلاحهم وعتادهم مختلفان والى جانب ذلك لديهم النفـط والاموال والاصدقـاء وأوروبا والاتحاد السوفيتي ، فالعـالم الذي نعيش فيه اليوم ليس عـالم الامس ..« ونلاحظ على هذا الحديث بروز العامل النفسي فيعدة جوانب.. تأثير الحرب على الاسرائيليين ، والنظرة للعرب ، والشعور بالعزلة عالميا . ونتتبع هذه الجوانب على مدى جمهور التجمع الاسرائيلي ككل فنرى أن الاهتزاز النفسي بفعلها بلغ مداه نتيجة الحرب . وقـد نقلت الصحـف الاسرائيلية صورة واضحة لهذا الاهتزاز النفسي نأخذ مثلا عليه ما كتبته هاآرتس في ٦ـ١١ : « ليس من شك اليوم ان الجمهور يمر في أزمة ثقة، فهو لا يثق بالمسلمات والنظام والاعلام ولدى كثيرين شعور بأنهم خدعوا ولم تقل لهم الحقيقة . والاسوأ من هذا أن احدا لم يخبرهم بالحقيقة حتى الآن . ان ازمة الثقة هذه لم تتولد دفعة واحدة ولقد تولدت على مراحل ، عندما كان الجمهور يكتشف في كل مرحلة شيئا جديدا لم يكن يعرفه في المرحلة السابقة . وبدأ كل شيء في اليوم الاول من الحرب عندمـا بدأت حملة التشويه والاخفاء والتضليل والكذب المفضوح بهدف رفع المعنويـات كما يبدو. ولقد اتضح هذا لدرجة اصبحت معها برامج الاخبار العبرية من

اذاعة القاهرة والتلفزيون الاردني خلال الايام الاولى للحرب مصدر معلومات موثوقا به أكثر من اسرائيل» .

ويفصل المقال كيف عرف الاسرائيليون حقائق الحرب من الاذاعات العربية ثم كيف انهارت مسلمات كثيرة بفعل ذلك: «ولقد حدثت نقطة تحول عندما علمنا بالحصار على باب المندب في اليمن الجنوبي. فقد اتضح لنا فجأة أن شرم الشيخ ليس حيويا كما كنا نعتقد طوال أعوام عديدة. والى جانب ذلك انهارت الشعارات القائلة: «ان وضعنا لم يكن مرة احسن مما هو عليه الآن » . «واذن فان الزمن في مصلحتنا» ، «وان العرب لايستطيعون مهاجمتنا.. الخ » بدأنا جميعا تتذكر مئات الالاف من المقابلات والمقالات والخطب والمحاضرات التي سمعناها وقرأناها طوال أعوام لزعماء الامة وكبار الضباط حول قوة ردعنا الجبارة. والسهولة التي سنقضي بها على الجيوش العربية التي ستهاجمنا» .

والحق أن الصحف الاسرائيلية فاضت بالمقالات عن «اهتزاز فرضيات أساسية في المفهوم الاسرائيلي للحرب والسلام»[1] .وكرر أكثر من كاتب الحديث عن الأوهام التي بددتها الحرب ومن بينها «النبوءة القائلة ان الفجوة التكنولوجية بين الجيش الاسرائيلي والجيوش العربية سوف تكبر وتتسع، فقد اتضح أن العرب قادرون على تعلم أساليب التقنية الحديثة حتى لو لم يلحقوا بعد بالتفوق العلمي الاسرائيلي ». من بينها ايضا ــ وهو أهم من ذلك كله ــ تبددت اسطورة اسرائيل صانعة المعجزات وهازمة الاعداء.. بنزهة الى القاهرة » كما تساءل أكثر من كاتب : « هل ستعود حياتنا حقا الى ما كانت عليه؟ وهل يمكن ان تعود؟ وهل ننسى؟ وهل نستطيع ان ننسى؟ بعد أن حطمت حرب الغفران مثل قبضة جبار طمأنينة الغفلة التي ركنا لها وصعقتنا كالبرق » وقد لخص محرر عسكري اسرائيلي حصيلة ما توصل اليه من

---

(١) نشره مؤسسة الدراسات الفلسطينية بتاريخ ١١ـ١١ـ١٩٧٣ .

خلال أحاديث كثيرة مع الجنود والقيادات تقول : «انه نشأ انفصام بين غالبية القيادة السياسية والعسكرية وبين جماهير الجنود. فالذين في القمة لا يحسون بمشاعر الشعب ولا اقصد بقولي الجبهة الداخلية المتأرجحة من النقيض الى النقيض فقط، بل ايضا جمهرة الجنود النظاميين والاحتياطيين الذين في أذهانهم اسئلة لا حد لها، ولايجدون اجوبة عنها » .

كانت من أهم اسباب هذا الاهتزاز النفسي الخسائر البشرية التي تكبدتها اسرائيل وهي في ذروة الحرب، ربما للمرة الاولى ـ على حد قول ديان ـ ولاشيء أفعل في مجابهة الاستعمار الاستيطاني من انزال الخسائر البشرية فيه وافقاد الفرد المستعمر أمنه. ولقد تكبد عدونا آلاف القتلى ، ورفضت سلطاته اذاعة الرقم النهائي لعدد قتلى الحرب الى ان يتم حصرعدد المفقودين واكتفت بذكر رقم يقارب الالفين لمن تم دفنهم في فلسطين المحتلة. وتذهب بعض التقديرات العالمية الى ذكر رقم يتراوح بين خمسة أضعاف وعشرة أضعاف ما ذكره العدو. وحتى لو قبلنا رقم الالفين فان أثره النفسي على الاسرائيليين كبير، وقد شرحه كاتب اسرائيلي في جريدة دافار بقوله: «ان خسارة ألفي يهودي هي من وجهة النظر العددية النسبية فقط، مثل خسارة ٧٥ ألف رجل في العالم العربي أو ١٥٠ ألف رجل في الولايات المتحدة .. وذلك عشرين يوما، أي أكثر مما حدث خلال كل اعوام حرب فيتنام .. لقد كانت هذه (حرب يوم غفران) ، ولم تكن أبدا (حرب يوم حساب). »[1] ولقد سمعنا من اهلنا الذين شهدوا الحرب في الضفة الغربية وقطاع غزة ما لاتستطيع الصحف الاسرائيلية نشره من تأثير الخسائر البشرية على الاسرائيليين ، فتحدثوا لنا عن رؤيتهم لعدد من المجندين الاسرائيليين ـ الفارين من جبهات القتال، وعن مجندين من اليسار

---

(١) نشرة مؤسسة الدراسات فى ٢٦ـ١١ـ٧٣ وعدد دافار بتاريخ ١٩ـ١١ـ٧٣ . وقد ارتفع هذا العدد الذى اعترف به العدو الى ألفين وخمسمائة بعد شهر من كتابة هذه السطور .

الاسرائيلي لجأوا الى بعض قرى الضفة الغربية واختبأوا فيها كيلا يساقوا الى المعارك. وعن حالة الهلع التي أصابت المدنيين الاسرائيليين وهم يتلقون أنباء الخسائر او يستقبلون قتلاهم.

ولقد زاد في هذا الاهتزاز النفسي، الذي ينبع في الاصل عند المستعمرين الاستيطانيين من شعور مؤرق في الاعماق بأنهم غاضبون ، ما بدا من بطولات المقاتل العربي، الامر الذي يفرض عليهم تغيير النظرة اليه والاعتراف بقوة صاحب الحق المغتصب بعد محاولات انكار استمرت زمنا. ولقد أحدثت حرب اكتوبر هذا التغيير واضطرت ديان الى التأكيد ان العرب يختلفون الان عما كانوا عليه.وتتالت الكتابات والاعترافات بشجاعة الجندي العربي. فهذا كاتب في هاآرتس يقول يوم ٢٣ــ١ــ١٩٧٣ «لقد ظهر امامنا جيش عربي يثق بسعداته ويتمتع بالتالي بثقة اكبر بنفسه» .. وهذا قائد المنطقة الشمالية يتسحاق حوفي يقول في مقابلة صحفية: «لقد اندفع السوريون الى الداخل كاللهب» . وهذا اللواء احتياط ميتاهو بليد يكتب في معاريف ٢١ــ١. «من الواضح حتى الان ان الجندي المصري لايزال يظهر روحا قتالية قوية ، ولم يفقد بعد ارادته في مواصلة القتال..». وتقترن هذه الشهادات باعترافات تتصل بالحروب الماضية. فيعترف بيليد قائلا «اننا نعرف هذه الظاهرة ، ونذكرها جيدا منذ حرب التحرير. والجدير بالذكر انه خلال حرب سيناء أيضا في سنة ١٩٦٥ لم تكن قليلة الحالات التي حارب فيها الجندي المصري حربا عنيدة ومجدية في المعارك الدفاعية وفي جميع الحالاتالتي كان الجندي المصري موجودا فيتجهيزات عسكرية محسبة يعرفها تماما ، واذا لم يحدث انهيار في الجيش ، ولم تتولد ظروف جديدة لايعلم بهاتماما، فانه سيستمر في تنفيذ مهمته باخلاص. وهذا ما يحدث الان ...». ويفصل محرر دافار الحديثفي الموضوع ليفسر ما حدث من ثغرة بين توقعات الاسرائيليين وبين مجريات الحرب، الامر الذيجعلهم يستنتجون حدوث تحول كبير في الكفاية القتالية للعرب ويرددون: «ان

الجندي المصري والسوري هما اليوم غير ما كانا في سنة ١٩٦٧» ان الثغرة بين التوقعات والنتائج التي حدثت هذه المرة تكمن في الحقيقة التي نسيها شعبنا ، وهي ان العربي لم يكن خلال الاعوام العشرين الماضية مقاتلاسيئا. وفي اماكن كثيرة قاتل بشجاعة وتصميم، الا ان آباء مبدأ «هذه ليست لهم» طمسوا ذلك وشوهوه واوضح برهان على ذلك هو حرب الاستنزاف ، فعلى الرغم من الضربات الرهيبة التي انزلها الجيش الاسرائيلي ـ خصوصا سلاح الجو ـ بالجندي المصري، فقد اظهر قدرة على التحمل لاتصدق ـ وبرزت هذه الصفة بصورة واضحة في المعارك والحروب السابقة.الا انهذا الامر نسى بسبب اقوال العجرفة والتعالي التي كانت تصدر عن بعض القادة والسياسيين. وهناك امثلة لاحصر لها. هناك جيب الفالوجا ١٩٤٨، وهذا يمكن ان يكون اليوم نموذجا لقوة صمود المصري المحاصر، ومن حرب سيناء يكفي ان نذكر صمود المصريين في منطقة ابو عجيلة. حيث اضطر الجيش الاسرائيلي الى العمل ثلاثة أيام لاختراقهم ... وخلال حرب الأيام الستة تكشفت مظاهر مشابهة، وعلى مفترق طرق رفح، دارت معركة ضارية بين قوة اسرائيلية مختارة وبين الجيش المصري ، الذي أغلق عدة مرات الثغرة التي اوجدتها القوة الاسرائيلية .. بيد ان هذه الحقائق نسيت، كما نسيت الابحاث السيكولوجية التي اجريت على الاسرى المصريين الذين قبض عليهم سنة ١٩٦٧ وكانت النتيجة بعيدة عن الاستهتار بالجندي المصري فقد وجد ان هذا الجندي يتمتع بقوة تحمل كبيرة، وكفاية جسدية جيدة، وبروح هجومية» .

قصدنا ان نثبت هذه الشهادة كاملة لنرى من جهة مدى التغير الذي طرأ على نظرة الاسرائيليين، ويكفي ان نذكر ركام التصريحات والكتابات اثر حرب ١٩٦٧ التي تحدث فيها العدو عن الجندي العربي عامة والجندي المصري خاصة . ولنتنبه من جهة اخرى الى مدى الخطأ الذي اقترفه كثيرون منا حين انساقوا آنذاك وراء تلك الاقوال ووقعوا فريسة الحرب النفسية

ولنسجل ايضا القصور العربي في تأريخ معارك الجندي العربي بأمانة . ونذكر هنا ان الزعيم الراحل عبد الناصر في خطابه يوم ٢٣ يوليو بعد النكسة أشار بمرارة الى ذلك الخطأ وحذر منه . وقد جاءت حرب رمضان لتمزق الحجب عن حقيقة شجاعة المقاتل العربي الذي يقاتل في سبيل الله دفاعا عن حقه واستردادا له . وبقى أن نوفي هذا المقاتل حقه بكتابة أعماله [١]. كما يبقى ان يتابع المقاتل العربي جنديا كان او رجل مقاومة كفاحه المسلح ليعمق الاهتزازات في نفسية عدوه على كل مستوياته، ويفرض على ديان الذي تكلم كثيرا بعد حرب يونيو ، أن يتكلم بلغة اخرى كحديثه في محاضرة القاها في تل أبيب بعد حرب رمضان وقال فيها : « انني كوزير دفاع . لم اقوم فعالية القدرة القتالية عند العرب على الرغم من معرفتي بنوعية الاسلحة التي يملكونها وبكمياتها ، وبالجسور التي جهزت لعبور القناة ... ان باستطاعة العرب تجديد الحرب في أية لحظة ، فليست لديهم مشكلات جيش الاحتياط وجميع جيوشهم جاهزة ولن يسمعوا اعتراضات من الخارج اذا بدأوا بفتح النار ، لان وجودنا على أرض عربية مسألة مهمة جدا بالنسبة اليهم»[٢] .. وهكذا نرى ديان يعترف بالعرب كمقاتلين ، ويعترف بأراض عربية محتلة بعد ان كان يتحدث عن حدود التوراة والاراضي المحررة[٣].

ويقترن بهذا العامل ـ عامل القدرة القتالية العربية ـ في هز نفسية العدو تحطم أسطورة الجيش الاسرائيلي الذي لا يقهر بعد حرب رمضان. وقد لاحظنا فيما أوردناه من استشهادات ظهور هذا العامل الآخر . ويمكن لنا أن نقدر مداه أكثر حين نتتبع الحديث عنه في الكتابات الاسرائيلية ،

---

(١) أشرنا الى هذا القصور في مناقشة الجانب العسكري من حرب سيناء أبان العدوان الثلاثي في كتابنا : « عبد الناصر والثورة العربية » كما فصلنا الحديث عن حملة التشكيك بالجندي العربي اثر حرب ٦٧ في كتابنا عن « المقاومه الى الثوره الشعبية » .

(٢) نشرة مؤسسة الدراسات في ١٦ـ١ـ٧٤ نقلا عن هاآرتس في ٣٠ـ١٢ـ٧٣ .

(٣) وانتهى ديان كوزير للدفاع اثر استقالة وزارة مائير بعد ان شهد تصاعد المقاومة وعملياتها الخالصة ومعلوت في ربيع ٧٤ واشتدت الحملات عليه داخل التجمع الاسرائيلي .

ونكتفي بنماذج هنا ، منها ما كتبه يعقوب تلمون أستاذ التاريخ المعاصر في الجامعة العبرية في هاآرتس ١١/٢٧ : « ان ما يؤلم ويقلق هو تقوض أسطورة قومية عظيمة ـ أسطورة جيش الدفاع الاسرائيلي » . ويصب تلمون جام غضبه على الجنرالات ليحمي الجندي العادي حفاظا على معنوياته: « لا أقصد الجندي كفرد .. بل تمجيد جنرالات معينين في الصحافة العالمية، فوصلت الديمقراطية الوحيدة في الشرق الادنى (كذا !!) الى أن يصبح جيشها مستتبا لجنرالات على غرار جنرالات أمريكية جنوبية وحكام مرتزقة هنود صينيين » . ومنها ما كتبه ناحوم جولدمان في هاآرتس أيضا في تفسير ظاهرة التشاؤم والكآبة والقلق التي تسود معظم الاسرائيليين ويهود العالم على السواء : « لقد جاء ذلك نتيجة تحطم نماذج ومفاهيم وأوهام كثيرة عاشها معظمنا ، وتست وتدعمت بواسطة سلسلة انتصارات مذهلة خلال بضع سنوات . وأول هذه الاوهام الوهم الخاص بتفوق اسرائيل المستمر على العرب الذي زعم عدد كبير من الخبراء المزعومين بأنه يزداد بمرور الوقت .. » .

وعلى الرغم من التطورات العسكرية في مجرى المعارك خلال الايام الاخيرة للحرب وبعد وقف اطلاق النار التي حاول بها العدو مستعينا بدعم الولايات المتحدة تحقيق نصر باختراق الضفة الغربية للقناة والخط الشمالي في الجولان ، وما رافق ذلك من اعلام فيه صور لشارون وديان ومائير مليئة بالابتسامات على الطريقة الدعائية الغربية ، فان عامل تحطيم الاسطورة بقي راسخا في النفسية الاسرائيلية بفعل ما يرويه الجنود العائدون وذكريات الحرب بمجموعها عند الاسرائيليين وما تنشره الصحف تدريجيا من حقائق عن المعارك . ولقد كشفت دافار عن بيان أعده ديان للاذاعة مساء يوم ٦ أكتوبر ولم يذع خوفا على المعنويات ، اعترف فيه بالخسائر ولخص الوضع: « بأنه مأساوي ولكنه غير خطير » ، وبيان آخر اعده اليعازر بعد يوم اعترف فيه بفشل الهجوم الاسرائيلي المضاد فشلا ذريعا ، وخشيته أن يحطم

العرب عظام الاسرائيليين ويطلب الثقة والشجاعة » . كما كتبت هاآرتس ودافار عن توقيع اتفاق بين وزارة الدفاع الاسرائيلية وصندوق المرضى ليقوم بمعالجة الانهيارات النفسية لدى الجنود الاسرائيليين التي كثرت ابان الحرب وبعدها .

وساهم في الاهتزاز النفسي لدى العدو عامل آخر هام هو شعوره بالعزلة الدولية سياسيا خلال الحرب ، وكنتيجة لها . وقد لاحظنا هذا الشعور في حديثديان أمام الطيارين المتخرجين ــ الذي أوردناه ــ وقال فيه : « فعالم اليوم الذي نعيش فيه هو غير عالم الامس » . ونلاحظه أيضا فيما كتبه هرتزوج في هاآرتس (١٣ــ١١ــ٧٣) : « اننا نعيش اليوم بعد الطوفان .. واقع عزلة سياسية دولية وضعف مخيف في الغرب ، واستعداد للخضوع للتهديد الروسي والابتزاز العربي (كذا !) . واقع الاعتماد الكبير على الولايات المتحدة ، وتقليص مجال مناوراتنا السياسية .. » .

كما نلاحظ هذا العامل في مقال آخر لجولدمان في هاآرتس (١٣ــ١ــ٧٤) اعترف فيه بعزلة اسرائيل الدولية وعزا ذلك الى « سياستها غير الواقعية التي تقضي على أي امكان للسلام الحقيقي والاستقرار في الشرق الاوسط».وقد حفلت الصحف الاسرائيلية بشرح آثار حرب رمضان في علاقات اسرائيل بأفريقيا واليابان وأوروبا ، وبمناقشات تحاول تفسير قطع غالبية الدول الافريقية علاقاتها باسرائيل.ويلفت النظر ان هذا العامل ذو فعالية كبيرة في هز نفسية الفرد ، ضمن الاستعمار الاستيطاني ، ولكنه يقترن عند الاسرائيلي بتوجه الى مزيد من التعصب والانحاء باللائمة على الآخرين .. وسنتابع في موضع آخر التعرف على هذه الوجهة في السياسة الخارجية الاسرائيلية .

كان متوقعا اذن بفعل هذه العوامل التي نتجت عن النضال العربي في حرب رمضان ان تهتز نفسية العدو وان تتفجر تناقضاته الداخلية . وهي

تناقضات كانت كامنة تحت السطح لا يراها الا الدارس المتعمق. والتناقضات في الاستعمار الاستيطاني عامة وفي التجربة الاسرائيلية الفريدة بين تجاربه التي تشمل خليطا من يهود ينتسبون لقوميات مختلفة تجد مجال تفجرها في حالي الحرب والسلم ، وتسكن وتهدأ في حالة اللاحرب واللاسلم وفي حالة الانتصار العسكري .

ومظاهر تفجر هذه التناقضات الداخلية بفعل حرب أكتوبر نراها في مختلف المجالات العسكرية السياسية والاقتصادية وقد وردت ضمن حديثنا عن العوامل السابقة أمثلة عنها . ففي المجال العسكري رأينا الانفصام الذي نشأ بين القيادة والجنود . وقد نقل الينا بعض مقاتلينا وأهلنا في الاراضي المحتلة أمثلة على هذا الانفصام فيما كان يردده الجنود والضباط الصغار [1] في مواقع القتال أو التجمعات السكنية . ونشير الى حرب الجنرالات وابعاد شارون والى لجنة التحقيق العسكرية المكلفة بالكشف عن القصور ، والى المطالبة باقالة ديان ..

وفي المجال الاقتصادي نشير الى تصريحات سابير عما تكلفته اسرائيل في الحرب ، وقد بلغ ثمانية مليارات دولار ، وعن انخفاض حجم الاستثمارات وارتفاع الاسعار ، وعن توقف حركة العمل في المصانع بسبب سحب الاحتياطي واحجام العمال العرب عن العمل ابان الحرب[2] . وتأثير الحرب على الاقتصاد الاسرائيلي يستحق دراسة خاصة ليس هذا مجالها .. وفي المجال السياسي الداخلي نشير الى استقالة وزير العمل الذي طالب باقالة ديان . والى تأجيل الانتخابات وطبيعة الجو الذي جرت فيه ، والبيانات التي أصدرتها القوائم الانتخابية والتباين الشديد فيها والجماعات الجديدة

---

(١) من ذلك قول أحد الضباط الاسرائيليين الصغار لضابط عربي في الجبهة بعد وقف اطلاق النار وهو يرجو ألا تحدث اشتباكات بين القوات المتلاصقة « انا لن ابدأ اطلاق النار .. لا أريد أن أخسر نفسي وجنودي . بينما جولدا مائير تتفرج على التليفزيون » .

(٢) يراجع تصريحات سابير في نشرة مؤسسة الدراسات بتاريخ ١٠-١-١٩٧٤ .

التي ظهرت بفعل الحرب يمينية كانت أو يسارية [1] .

يتضح مما سبق ان نتائج حرب رمضان على العدو الصهيوني خطيرة... بل خطيرة جدا ، نقولها دون ان نقع في محذور التهويل والمبالغة حتى انه يمكن لنا ونحن نتمثل هذه النتائج الاولية ان نفرق بالنسبة للوجود الاسرائيلي في فلسطين المحتلة قبل ٦ تشرين الاول (أكتوبر) وما بعد ٦ تشرين الاول (أكتوبر) في مجابهة النضال العربي له . وهكذا تبدو حرب رمضان نقطة تحول وبداية مرحلة جديدة بالنسبة لهذا الوجود الاستعماري في قلب الوطن العربي . سواء في نظرته للعرب أصحاب الحق أو في نظرته لمستقبله بينهم .. مرحلة تنذر ببداية النهاية ..

ويبرز سؤال ملح عن وجهة اسرائيل في هذه المرحلة ؟ وما اذا كانت العدوانية الصهيونية المتشددة ستستمر او تهدأ ؟ وما اذا كانت ستشهد مراجعة لاهدافها العنصرية التوسعية ؟ ونؤجل الاجابة عن هذا السؤال والحديث الضافي عن المرحلة القادمة ، لنتابع التعرف على نتائج الحرب الاولية علينا نحن العرب .. الطرف الآخر في الصراع .

*

أشرنا في موضع سابق من هذا الحديث اشارة موجزة الى الصورة التي كانت عليها الامة العربية قبل ٦ أكتوبر . وقلنا ان النضال العربي كان يعبر مرحلة نكسة يونيو ١٩٦٧ التي شهدت طور حرب الاستنزاف ثم طور حالة اللاحرب واللاسلم . ولقد استفحل خطر حالة اللاحرب واللاسلم على النفسية العربية خلال السنوات الثلاثة التي استمرت فيها منذ أغسطس سنة ١٩٧٠ ؛ بفعل عوامل عدة ، وعمل عدونا على استغلال الوضع الى آخر مدى لتمزيق النفسية العربية وطحن الانسان العربي ، فاشتدت «عربدته» وهو يضرب المدنيين الآمنين في المخيمات والمدن ، والطائرات المدنية في

---

(١) براجع بيان قائمة الفهود السود كمثل على هذه البيانات . وقد تحدث افنيري في مقال له عن ظهور سب حركات يمنية متطرفة . نشرة مؤسسة الدراسات ١-١-٧٤ .

الاراضي والاجواء العربية . وكلنا يذكر بمرارة يوم ٢١ فبراير سنة ١٩٧٣ الذي شهد ضرب مخيم نهر البارد في شمال لبنان واسقاط الطائرة الليبية ، وهدد خطر الحالة بتفجير الاوضاع الداخلية كتعبير عن الغضب والضيق. وظهرت بوادر لهذا التفجر في أجزاء عدة من الوطن العربي ، كما ظهرت تعبيرات تحمل طابع اليأس في أوساط المقاومة لتثبت تصميم الامة على النضال رغم كل شيء . وعانى الانسان العربي من صورته أمام نفسه ، كما ظهرت تعبيرات تحمل طابع اليأس من نظرة العالم له . ومرت العلاقات العربية الرسمية بأزمات .. ومجمل القول عن هذه الفترة التي عشناها بأنها كانت صعبة جدا وأن الصورة العربية فيها كانت مظلمة ، بينما كان العدو يعدد ــ وهو يجري حساباته ــ نتائجها الطيبة عليه ــ ولسان حاله يردد « ليس في الامكان أبدع مما كان »[1] .

ولا بد من القول هنا أن هذه الصورة المظلمة كانت تتضمن تحت السطح تفاعلات صحية ظهرت بمجموعها في حرب رمضان. وقد ساهم في هذه التفاعلات قطاعات واسعة من أمتنا بصور مختلفة ، كما لا بد من الاشارة الى انه حين بلغت الصورة اشد حالاتها قتامة فان الرؤيا كانت واضحة للفكر العربي بمجموعه تؤكد أن الارادة العربية ستعبر عن نفسها وتكسر جمود حالة اللاحرب واللاسلم، وتدعو من ثم الى التماسك وخوض المعركة . كما تكشف عن صورة العدو الحقيقية بما فيها من تناقضات وجوانب قوة وضعف. ونستشهد هنا كمثل على هذه الرؤيا الواضحة بالبيان الصادر عن لقاء المفكرين العرب من أجل الاعداد لمعركة التحرير الذي انعقد في مارس ١٩٧٣ وصورة الوضع العربي في أشد حالاتها قتامة. فقد وصف البيان فترة انعقاده ... «في ظل ظروف صعبة تخيم على كل أمتنا العربية في

---

(١) تراجع تصريحات القادة الاسرائيليين وكتابات الصحف في شهر اغسطس ١٩٧٣ بمناسبة مرور ثلاث سنوات على وقف اطلاق النار • نشرة م·ف·د·

هذه الفترة نتيجة لامتداد حالة اللاحرب واللاسلم، واستفحال خطر الوجود الصهيوني الاستعماري. وعجز الواقع العربي الاقليمي عن القيام بمتطلبات المرحلة الراهنة من النضال العربي. وسط مناخ مأساة يثقل على نفوس جماهيرنا وأزمة نفسية طاحنة للمفكرين والمثقفين العرب في وطننا، وشعور عند الكثيرين منهم بالضياع واليأس بلغ حد التشكك بجدارتنا كعرب بالحياة .. » . وجاء في رؤية اللقاء للمعركة القول عن العدوان الاسرائيلي بعد تحديد طبيعة الصراع . « ان الدراسة المستفيضة لهذا العدو تكشف عن تناقضاته وتبدد أوهاما تبالغ في قوته . وان افتقاد الفرد الاسرائيلي الشعور بالامن واشعاره بالمعركة بتصميم صاحب الحق على استرجاع حقه كفيل بهز الكيان الاسرائيلي من أساسه » كما جاء في الرؤية حديث عن الامة العربية يوضح انها في نضالها ضد هذا العدو لا تنطلق من فراغ . وتسعى لتحقيق ذاتها وأخذ مكانها في عالمنا المعاصر ، ويقرر « ان الدراسة العلمية للقوة العربية الذاتية تبين عظم الامكانيات الروحية والمادية للامة العربية . وهي امكانيات لا بد أن نحشدها جميعها للمعركة » . بل وحددت هذه الرؤية : « ان كسر حالة اللاحرب واللاسلم هو البداية وان الحرب النظامية عنصر رئيسي في هذه المعركة . وان القوات العربية المصرية الرابضة على ضفة القناة هي قلب القوة الضاربة للامة العربية ، ومعها الشعب العربي في مصر . وكذلك الشعب العربي في سوريا وطليعته القوات المسلحة. وان المقاومة الفلسطينية المسلحة عنصر رئيسي في معركتنا الراهنة يتعامل مع عنصر حرب الجيوش النظامية » . وبشرت هذه الرؤية بالاعلام المسلح بنهج علمي ثوري حضاري والآفاق الرحبة التي ستفتح امامه . وأكد لقاء المفكرين وهو يطل برؤيته على أمتنا: «ثقته بمستقبل هذه الامة التي تخوض معركتها بكل طاقاتها »[1] .

---

(١) انعقد هذا اللقاء ببنغازي ولم ينشر بيانه بعد في كتاب .

كان هذا الحديث واحدا من أحـاديث دعـت الى التماسك وخوض المعركة فيوقت ضاقت فيه أمتنا بأيحديث وباتلا يشفي غليلها الا خوض المعركة وكسر حالة اللاحرب واللاسلم •

وجاء يوم ٦ أكتوبر ليشفي الغليل وليقدم التطبيق العملي لرؤى الفكر العربي ولاحلام الجماهير العربية . ونلاحظ أن كثيرين من العرب كانوا في الساعات الاولى للحرب ما بين مصدق ومكذب بفعل تراكمات حالة اللاحرب واللاسلم . ثم ما لبثت الامة بمجموعها أن انطلقت تخوض الغمار .

لسنا هنا في مجال تتبع أحداث الحرب يوما بيوم ، ولا نريد أن نكرر ما سبق أن أوردناه ، عن الجديد الذي جاءت به ، ولكننا نبحث عن نتائج الحرب على النفسية العربية بعد أن رأينا نتائجها على نفسية العدو . لان هذه النتائج تمثل عاملا أساسيا في رسم مستقبل الصراع .

يمكننا ان نوجز هذه النتائج على النفسية العربية بأن محصلتها كانت ايجابية الى حد كبير . فقد برز الانسان العربي كمقاتل شجاع ومسح مـا لحق به نتيجة حرب ٦٧ من تشويه .. وظهرت قدرة الشعب العربـي على العطاء وتحمل ثمن الحرب . ومثل الدمشقيين خلال معارك الجو التي دارت في سماء الفيحاء خير دليل ، وأدلـة أخرى كثيرة قدمها شعبنا في المـدن والقرى تستحق تسجيلا وتحليلا في دراسة خاصة • ولقد عاش المواطـن العربي تجربة الوحدة القومية ابان الحرب وهو يرى لقاء اخوته في جبهتي القتال من مختلف الاجزاء العربية ، ويسمع تجاوب أهله في كل جزء مهما بعدت به المسافات . ونضرب مثلا واحدا مشاركة شعبنا العربي في المغرب وعيشهم أيام الحرب وهم مع المقاتلين الذين من بينهم «تجريدة» مغربية . ونقف عند تعبير « التجريدة » الذي استخدمته أمتنا لقرون كثيرة لنراه رمزا على التحام الماضي بالحاضر .

كان لهذه المظاهر جميعها أثرها في النفسية العربية . فقد أعادت الثقة

للانسان العربي بنفسه ، وكشفت عن امكانياته لحمل مسؤولياته كاملة . وأكدت له قدرته على استرجاع حقه ، واحتلال مكانه في العالم المعاصر . وبدا هذا الاثر عـلى الانسان العربي في مختلف أنحـاء الوطن العربي .. ويهمنا أن نلاحظه على الخصوص على أهلنا في الاراضي المحتلة ، وقد نقلت صحف العدو أخبارا وتعليقات تصوره[1] ، كما تحدث عنه كثـيرا بعض الذين خرجوا من اخوتنا . ويمكن أن نوجز هذا الاثر بأنه أوجد نفسية جديدة في مواجهة العدو المحتل .. نفسية واثقة من ان المستقبل في الصراع لنا ، وبأنها على مختلف مستويات الصراع قادرة على منازلة العدو . واذكر هنا حديثا قيما لواحد من المفكرين العرب في الاراضي المحتلة يقارن فيه بين النفسية العربية هناك قبل حرب رمضان وبعدها .. فيشرح كيف عرفت تجربة الاحتلال المرة أهلنا بحقيقة العدو فمكنت مـن اجراء مقارنة بينـه وبيننا . وكانت المقارنة لا تميزه الا في مجال الحرب الواسعة لاننا لم نجد الفرصة لاكتشاف أنفسنا بعد . وجاءت الحرب فاكتشفنا أنفسنا وظهر العدو لاهلنا على حقيقته في أوقات شدته .. وهكذا سقط ما بقي من حجب ، ووثق أهلنا من قدرة أمتنا على منازلته في كل المجالات وحتى الحضارية منها .

ولكن ظهور هذا الاثر لحرب رمضان على نفسية الانسان العربي لم يخل من شوائب علقت به ، فالحق أننا نلاحظ سلبيات بدت على الموقـف العربي الذي كان في محصلته ايجابيا . ولا بد لنا ان نقف امـام هـذه السلبيات نتعرف عليها ونبحث في أسبابها ، لان لها خطورتها ان لم نعالجها خصوصا وان صلتها وثيقة بتفاقم الظاهرة المرضية التي سبق ان عرضنا لها.

من هذه السلبيات انشغال البعض والحرب حامية الوطيس بالشك في اهدافها ومناقشة ما اذا كانت حرب تحرير أم حرب تحريك ، ومـا اذا

---

(١) براجع هذه الاخبار فى نشرات مؤسسة الدراسات الفلسطينية خلال الشهور الاربعة التالية لحرب رمضان .

كانت مطلقة أو محكومة . واستباق الحكم علينا . واعلان اليأس مـــن امكانية كسبنا لها بالتهويل من شأن العدو الاسرائيلي ومن يدعمه ويقف معه ؛ بدلا من انشغالهم بصب جهودهم من أجل حشد الطاقات لنكسب الحرب وننتصر فيها . ولقد انتهى هؤلاء بعد وقف اطلاق النار الى انكار ما حققته المعارك من ايجابيات والاقتصار على ابراز ما بدا فيها من سلبيات والحديث عن نكسة اخرى تضاف الى ما سبق من نكسات .

ان مكمن السلبية هنا هو في المسلكية التي يدخل ضمنها اسلوب طرح الرأي وتوقيت هذا الطرح ؛ وليس في مضمون الرأي . اذ أيا كان هذا المضمون فباب الحوار يجب ان يكون مفتوحا أمامه شريطة سلامـة المسلكية . ولقد بدا لامتنا وهي في خضم المعارك أن المطلوب بالحاح هو توحيد الكلمة لضرب العدو وحشد الطاقات لتحقيـــق النصر [1] ، لان النجدة العملية الصامتة هي في مقدمة تقاليد الحرب التي أرساها النضال العربي عبر مراحله المتصلة وجسدها معنى الجهاد في سبيل الله .

ونلاحظ أن هذه السلبية حصرت في نطاق ضيق جدا ، فطغى عليها الموقف الايجابي الذي نبع من تقاليد النضال العربي ومثله . وكان لسان حال غالبية شعبنا أثناء المعارك «انه وقت النزال فلنبذل من اجل الانتصار» ولكن تأثيرها ظهر بعد وقف اطلاق النار حين اشتد ضغطها بالحديث عن نكسة أخرى فتركت آثارا .

---

(١) يلفت النظر في حوار موشى ديان مع رؤساء تحرير الصحف الاسرائيلية رابع أيام الحرب ، قوله ردا على أحد الاسئلة : « انني أنصح الجميع بالانصراف الى محاربة العرب ، وعدم البحث عن التفاصيل الدقيقة ؟ ماذا يفيدنا الخوض فيها ؟ هل هي تحل المشكلة المطروحة الان ؟ » (نشرة م.د.ف. في ١ مارس سنة ٧٤ هاآرتس).

ومن هذه السلبيات أيضا ما ظهر من تفكك في الموقف العربي الواحد عقب اعلان وقف اطلاق النار ..

وقد مهدت لهـذه السلبية سابقتها .. وهكذا بدا الاختـلاف عـلى المستويين الرسمي والشعبي حول قبول مصر وسوريا لقرار وقف القتال . ونبع ذلك اتخاذ مواقف تؤثر على المعركة في تحريك الجيوش المرابطة وفي استخدام سلاح النفط وامتدت هذه المواقف الى اللقاء العربي ضمن اطار مؤتمر القمة بالنسبة لمبدأ المشاركة فيه . وقد كان يمكن لهذه السلبية أن تؤثر كثيرا على فعالية الموقف العربي الواحد الذي تألق ابان الحرب ، لولا انها أيضا بقيت في نطاق ضيق فأثرت تأثيرا محدودا .

وحين نبحث عن اسباب هذه السلبيات التي ظهرت على الموقف العربي في حرب رمضان وشابت مـا حققته الحرب من أثر ايجابي عـلى النفسية العربية ، نجد في مقدمتها الخلط بين الامل والواقع وبين الهدف الاصلي والهدف المرحلي ، والتحرق لبلوغ الهدف مرة واحـدة مع عدم وضوح طبيعة الصراع . فالامل يصور امكانية بلوغ الهدف مرة واحدة فيسبب التحرق ، وحقائق الموقف التي ترسم صورة الواقع ليست واحدة فيسبب بسبب قصور قديم عند المثقفين والقادة في طرح الحقائق على الناس ، الامر الذي يثير التساؤلات حول أسباب توقف المعارك . كما نجد من بين هذه الاسباب عدم تبلور قواعد واصول للعمل العربي الموحد حتى الآن.. الامر الذي سبب حساسيات نجمت عن مواقف تتخذ .. ونجد من بين الاسباب أيضا الخلط في اتخاذ المواقف بين العوامل الموضوعية والعوامل الشخصية، الامر الذي يحول التساؤلات المثارة الى أحكام تطلق ومواقف قاطعة تتخذ.. ونلاحظ أيضا ان الصراع بين هـذه السلبيات وبين الايجابيات عبر عنـه صراع بين لغة قديمة يغلب عليها الانفعال والاتهام والمزايدة وبين لغة جديدة تسير نحو التوازن .

على الرغم من هذه السلبيات التي شابت الاثر النفسي العظيم لحرب رمضان على النفسية العربية ، فان محصلة التأثير تبقى ايجابية بحيث يمكننا اعتبار ٦ أكتوبر وحرب رمضان نقطة تحول وبداية مرحلة جديدة في النضال العربي تعززت معها وكنتيجة لها ثقة الانسان العربي بقدرته على القيام بدوره قوميا وعالميا .

ويبرز سؤال ملح عن وجهة النضال العربي في هذه المرحلة ؟ وما اذا طرأ تغيير على موقفه المبدئي من الوجود الصهيوني الاستيطاني في قلب وطنه ؟ ونؤجل الاجابة ايضا على هذا السؤال لموضع آخر . لنتابع التعرف على نتائج حرب رمضان الاولية على رؤية العالم للصراع ولطرفي الصراع . لنستكمل بها هذا التقويم .

*

تأثرت رؤية العالم للصراع قبل ٦ أكتوبر بحرب يونيو ١٩٦٧ على الخصوص ثم بنشوب حرب الاستنزاف وبروز فعالية مقاومة شعب فلسطين في هذه الحرب وبسيطرة حالة اللاحرب واللاسلم منذ آب (أغسطس) سنة ١٩٧٠ .. كما تأثرت بتطور العلاقات الدولية عبر هذه السنوات الستة. وما شهدته على الخصوص من تفاهم القوى الاعظم . بما في ذلك زيارتي نيكسون الامريكي للصين الشعبية والاتحاد السوفيتي عام ١٩٧٢ وما تلاهما .

لقد غلب على نظرة العالم لنا بعد حرب ٦٧ التهوين من أمرنا كعرب .. فأما اعداؤنا — وفي مقدمتهم الصهيونية العالمية — فعمدوا الى التصغير من شأننا والصاق كل نقيصة بنا . وأفاضت أجهزة أعلامهم في التدليل على ذلك بنتائج الحرب وبابراز صور مظلمة من ماضينا أو حاضرنا المفكك . تدفعهم لذلك الشماتة ومحاولة تطويقنا للاجهاز علينا ومنعنا من النهوض مرة أخرى[1] . وأما أصدقاؤنا سواء على مستوى الدول أو الافراد فلم يسلكوا

(١) نشير الى عشرات الكتب التى صدرت عن حرب يونيو ١٩٦٧ في صفوف الاعداء والى ما تضمنه، وقد عرضنا لبعضها في كتابنا « من المقاومة الى الثورة الفلسطينية الشعبية » .

أمام هذه الحملات الا الحديث عن الحق الذي لا تعززه قوة ، وربما حز في نفوسهم ما بدا علينا من ضعف وأثار الشك ولو الى حد فيها . ونذكر كيف تشبث « توينبي » بموقفه المبدئي من قضية فلسطين حين سئل بعد الحرب عن رأيه ؛ ولكنه اشار بسرارة الى أهمية القوة في تعزيز الحق العربي لاننا في عالم يقدر القوة ويحترم الاقوياء . كما نذكر ما تردد عن الرئيس تيتو من تشوقه لنصر عربي يعطيه دليلا على سياسته المؤيدة للعرب أمـام شعبه وأمام العالم ، وأمثلة أخرى . ومع ان حرب الاستنزاف وبروز فعالية المقاومة نسبتها فرضت على الاعداء أن يخففوا من تهوينهم وأن يراجعـوا أنفسهم واستصغارهم لشأننا ، كمـا اتاحت للاصدقاء أن يرفعوا اصواتهم اكثر ، الا أن النظرة الغالبة بقيت في نطاق التهوين . وزادت حدتها بفعل ركود حالة اللاحرب واللاسلم . وعانينا كعرب ــ أفراد ودول ــ في المحيط العالمي ،ما لا تزال مرارته في نفوسنا .

وبالمقابل غلب على نظرة العالم لعدونا بعد حرب ٦٧ التهويل من أمره. سواء في معسكره أو بين أصدقائنا . وبالغ العالم في عمل حسـاب لـه . واستغل هو ذلك الى آخر مدى فصنع من قياداته العسكرية أساطير . وعلا صوت ادعاءاته وجاهر بأطماعه التي لاحد لها، وتحدى دولا عظمى، وقـد أثاره وهو على هذه الحالة ان تمس منه حرب الاستنزاف، وان تطرح المقاومة قضية فلسطين منجذورها؛ فمضى يضرب «ويعربد» مستغلا بعد أغسطس ٧٠ على الخصوص توقف اطلاق النار على الجبهات. وبقيت نظرة العالم له قائمة على التهويل تردد مـا يقولـه عن الفـارق الحضـاري والعسكري والديمقراطي والاقتصادي .. الخ بينه وبين العرب .

وتفاعلت هذه النظرة لطرفي الصراع دوليا مع التطورات الدوليـة التي حدثت عبر هذه السنوات، فأوصلت الى نظرة للصراع تقوم على اساس تهدئته وقبول الصورة الراهنة كأمر واقع؛ بما يعني ذلك من تجميد للموقف

ولقرارات الامم المتحدة بشأن القضية . وكان يؤثر على هذه النظرة تأثيرا محدودا ما تقوم به المقاومة من عمليات تذكر بالحق الفلسطيني وبوجود شعب مشرد ووطن مغتصب، فتدفع الى ضرورة رسم الامر الواقع ضمن صيغة تسوية يشارك فيها العنصر الفلسطيني .. وقد شهد صيف عام٧٣على المستوى الدولي تحركات كان من نتيجتها وضع القضية على الرف.

وهكذا بدا وزننا قبل ٦أكتوبر في الحسابات الدولية خفيفا، على الرغم من الاسلحة التي بأيدينا .. موقع وطننا الاستراتيجي، وقوتنا البشرية .. وثرواتنا النفطية .. وأموالنا المجمدة في المصارف العالمية. لماذا؟ لان هذه الاسلحة كانت في حكم المعطلة تنتظر أن تستخدم وتشهر في وجوه أعدائنا.

وجاء ٦ أكتوبر حاملا معه الجديد الذي تحدثنا عنه، وشهرنا بعض هذه الاسلحة في وجوه الاعداء. فاذا بنظرة العالم الينا كعرب تتغير: سواء بين الاعداء او بين الاصدقاء، ونسمع التعبير عن هذه النظرة بلغة أقرب الى الانصاف. وما أعظم الفرق بين مقال كتبته واحدة من اكبر المجلات الامركية عن العرب ــ مجلة تايم ــ في صيف ١٩٦٧، جردتهم فيه من كل فضيلة في الحاضر والماضي، ولم تر لهم اي مستقبل. وبين مقال كتبته المجلة اياها في شتاء ١٩٧٤، تحدثت فيه عن اصالة العرب ودورهم في بناء الحضارة الانسانية وآفاق المستقبل الرحبة أمامهم. وها نحن نشهد التحولات في مواقف الدول الصديقة من الصراع، ومثل افريقيا بارز أمامنا كما نشهد ايضا تحولات أولية في مواقف دول أوروبية جابهتنا العداء لفترة، وبدأ الحديث يتردد عن امكانات التعاون بين الوطن العربي وأوروبا ، كندين على أسس موضوعية. كما اننا نعيش الان المعارك التي يخوضها النفط العربي فنستشرف آفاق معارك اخرى لاسلحتنا الباقية. ولقد كان للبلاء العربي في الحرب أثر خاص على تغير النظرة بما قدمه من دلالة في عالم يقدر القوة.

وكذلك تغيرت نظرة العالم للعدو الاسرائيلي فتساقطت منها هالات

كثيرة أحاطت به، تخلصت من المبالغة في تقديره. فبدا لها أقرب الى حجمه الطبيعي وثارت فيها تساؤلات عن مستقبله كمستعمر استيطاني . وتغيرت بالتالي نظرة العالم الى الصراع نفسه . فهي اليوم اكثر من أي يوم مضى تعي طبيعته كصراع بين وطن وأمة وبين مستعمرين استيطانيين تجمعهم حركة عنصرية. ولكن على الرغم من هذا الوعي، فان النظرة لا تزال اليوم تحاول انهاء هذا الصراع بمسكنات وعلاج وقتي.. وهكذا هيأت حرب رمضان مناخا أفضل على المستوى الدولي لمحاولة تطبيق قرارات الامم المتحدة والوصول الى تسوية دائمة.. فكان أن سحبت ملفات القضية من على الرف لتنشغل بها المجموعة الدولية مرة أخرى.

ونلاحظ اننا منذ حرب رمضان استطعنا ان نشارك مرة أخرى بفعالية في السياسة الدولية وقد بدأ وزننا في الحسابات الدولية يتضاعف عما كان عليه من قبل حرب ٦٧.. واذا كانت حرب العدوان الثلاثي على مصر العربية عام ١٩٥٦ قد شهدت بداية دخول العرب كقوة مؤثرة في الحساباتالدولية لاول مرة في تاريخهم الحديث. فان حرب رمضان شهدت دخولهم في هذه الحسابات بحجم أكبر مرات. ومن ثم فاذا كانت حرب سنة ١٩٥٦، قد اعتبرت آنذاك نقطة التحول الاولى في تاريخ العرب الحديث على المستوى الدولي العالمي، وكانت لها نتائجها الكبيرة في دفع موجة التحرير في آسيا وأفريقيا وفي تكوين العالم الثالث وتغيير الصورة الدولية، فان حرب رمضان تعتبر نقطة التحول الثانية وبداية مرحلة جديدة في مشاركة العرب في رسم الصورة الدولية، وستكون لها نتائجها الكبيرة في بلوغ العالم صيغة أفضل للعلاقات الدولية وبناء مستقبل أفضل للانسانية لو ان النضال العربي في هذه المرحلة تحمل مسئولياته كاملة.

تلك هي النتائج الاولية لحرب رمضان تعرفنا عليها. ومحصلتها ــ كما واضح ــ ايجابية، وهي لصالح النضال العربي، وقد أوضحت هذه النتائج، فيمجال التقويم الموضوعي للحدث، المعطيات الجديدة فيالصراع.

وهكذا نكون قد وقفنا بالتقويم المـوضوعي على ارض صلبـة من ادراك الواقع الذي نعيشه اليوم . ونلاحظ ان النتائج الاوليـة مرسومة فيـه لا يمحوها التجاهل ولا يضخمها التهويل والمبالغة. وقد تحققت هذه النتائج واصبحت حقيقة واقعة بغض النظر عن الاراء المختلفة حول طبيعة الحرب التي نشبت. وهذا هو ما دفعنا الى الانشغال بها والتعرف عليهـا بدلا من الانشغال عنها بمناقشة قضايا بعيدة، لان النظرة العلمية للتاريخ فيها، كما سبق ان ذكرنا، وعي ايجابية الحدث التاريخي الذي له وزنه وتأثيره والذي يعني ان العبرة بالنتائج. ويلفت نظرنا هنا ان حـوارا احتـدم بين البعض يناقش ما اذا كانت حرب رمضان هي حرب تحرير او حرب تحريك. والحق اننا نرى في اسلوب طرح القضية ما يوحي بعدم وضوح طبيعة الصراع ، وكيفية بلوغ هدف التحرير النهائي. وهي العلة التي ابرزت بعض السلبيات بيننا . كما نرى في اسلوب طرح القضية ايضا انشغالا بغيبيات تتعلق بالنوايا والسرائر في تفسير الدوافع. كما يلفت نظرنا ايضا الـحوار الذي احتدم بين البعض حول انتهاء الحرب، والطريق المسدود الذي أوصلت اليـه في مجال تقويم نتائجها. وهو حوار نراه نابعا من عدم وضوح جدلية الصراع، ولذا فانه ينشغل بجزئيات يتصور كأنها النهاية، ولقد كان يخيل لمن يتابـع هذا الحوار ان حدوث جلسة واحدة لمفاوضات الكيلو ١٠١ العسكرية ان القيامة ستقوم، واكتب الان وقد انتهت تلك المفاوضات وتم التوصل الى فصل القوات في الجبهة المصرية، والاشتباكات محتدمـة فـي الجولان وعمليات المقاومة مستمرة في الاراضي العربية المحتلـة، وجدليـة الصراع تفعل فعلها.

ويبقى قبل ان نختم هذا الحديث عن النتائج الاولية للحرب، ان ننبه الى ان صنو التقليل من شأن هذه النتائج هو المبالغة فيها. وهكذا فاذا كان يجانب التقويم الموضوعي الحديث عن نتائج حرب رمضان وكأنها نكسـة

اخرى؛ فانه مما يسيء الى التقويم الموضوعي الحديث عنها وكأنها الحرب الوحيدة في تاريخنا التي حققت كل المعجزات. فلننظر الى حرب رمضان بلا تهوين او تهويل، ولنتجنب لغة المبالغات القديمة في الحديث عنها.

الفصل الرابع

موقع الحرب من مجرى الصّراع

توصلنا الى ادراك صورة الواقع الذي نعيش فيه بعد حرب رمضان، والى معرفة المعطيات الجديدة في الصراع، ومهد ذلك لرؤية المجرى العريض للأحداث. ومن خلال الحديث عن النتائج المحتملة برزت أسئلة أخرى تتعلق بماضي الصراع ومستقبله، فألحت على ضرورة تحديد المجرى العريض للاحداث وصولا الى الاجابة عن السؤال الذي بدأنا به «ماذا بعد»؟

ان تحديد المجرى العريض للأحداث يتطلب فضلا عن ادراك الواقع معرفة موقع ومكان حرب رمضان من الصراع العربي الاسرائيلي عبر تاريخه الذي يمتد لحوالي قرن مضى.. لان رؤية المستقبل لاتتحقق الا من خلال دراسة الماضي «وان الذي يعرف من أين يعرف الى أين». ولا يكفي في التقويم الموضوعي أن نزن تأثير النتائج على الواقع الان، بل لابد من وزن تأثيرها على مجرى الحركة التاريخية، ولابد ايضا ـ وقبل ذلك ـ من معرفة موقعها في هذا المجرى. فشتان بين مايتكشف لنا حين ننظر للنتائج الآنية وحين ننظر لها ضمن مسار حركة الصراع. ونتذكر هنا مثل اتفاق الحديبية في السيرة النبوية الذي نظر البعض الى نتائجه الآنية فضاق به، وكان وصف الله له بأنه «الفتح المبين» في موقعه من صراع المسلمين

والمشركين. فلننشغل اذن بالتعرف على موقع ومكان حرب رمضان من الصراع العربي الاسرائيلي.

لسنا في مجال تفصيل تاريخ الصراع العربي الاسرائيلي. ولكن التعرف على موقع حرب رمضان في هذا الصراع يقتضي أن يكون تاريخه حاضرا في اذهاننا. ولقد سبق ان قررنا ان حرب رمضان هي بداية مرحلة جديدة في الوجود الصهيوني الاستعماري في الوطن العربي. فما هي المراحل السابقة ؟ وكيف تبدو الحركة التاريخية لمسار الغزوة الصهيونية!

يمكننا ونحن ننظر في تاريخ هذه الغزوة ان نقسم الوجود الصهيوني الاستعماري في فلسطين العربية الى أربع مراحل منذ بدايته حتى يوم السادس من أكتوبر.. وهذه المراحل هي مرحلة التسلل وتمتد بين عامي ١٨٨٢ و ١٩١٧ ، ومرحلة التغلغل وتمتد بين عامي ١٩١٧ و ١٩٤٨، ومرحلة الغزو وتمتد بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٦٧، ومرحلة التوسع وتمتد بين عامي ١٩٦٧ و١٩٧٣ .

كانت بداية الغزوة في الربع الأخير من القرن الماضي وعاصرت اخر موجة كبرى من موجات الاستعمار الاوروبي الحديث، وهي الموجة المدارية. وقد شهد عام ١٨٨٢ قدوم اول موجة من موجات الهجرة اليهودية المنظمة من اوروبا الشرقية.. ولذا فقد اعتبره المؤرخون الصهاينة عام البداية.. ونلاحظ انه العام الذي شهد احتلال بريطانيا لمصر. وقد كانت فلسطين آنذاك كالغالبية من أجزاء الوطن العربي تقع تحت حكم الدولة العثمانية التي كان على كرسي السلطنة فيها السلطان عبد الحميد الثاني، والتي اشتهرت بين دول اوروبا الاستعمارية باسم الرجل المريض. وكانت اراضي فلسطين تقع ضمن ولايات الشام ويقطنها عرب فلسطين الذين كان عددهم آنذاك دون المليون، فيهم من يدين بالمسيحية وغالبية تدين بالاسلام. وفيهم ايضا عدد من يهود الوطن العربي الذين قدموا فلسطين من الاجزاء المجاورة إبان

الحكم الاسلامي، وعدد من يهود اوروبا الذين قدموا منذ اوائـل القرن التاسع عشر ومجموع هؤلاء حوالي اثنى عشر ألفا على الارجح. وان كانت بعض التقديرات المغالية تصل بالعدد الى ضعفه. وكان جميع سكان فلسطين يعيشون في كنف التسامح الذي ميز طابع العيش في الاراضي المقدسة منذ بداية الحكم الاسلامي بها .

جاءت الموجة الصهيونية الاولى عام ١٨٨٢ فبدأت مرحلة التسلـل الى الوجود الصهيوني الاستعماري. واستمرت هذه المرحلة خمس وثلاثون سنة الى ان احتلت بريطانيا فلسطين ودخل اللنبي القدس اواخر عام ١٩١٧، وخلال هذه المرحلة اصدر هرتزل كتاب «الدولة اليهودية» عام ١٨٩٥ ودعا الى عقد المؤتمر الصهيوني الاول الذي انعقد في بال بسويسرا عام ١٨٩٧ وبلور مخططات الحركة الصهيونية. وقد اطلقنا على هذه المرحلـة اسـم «التسلل» لان التهجير اليهودي الى فلسطين اخذ خلالها صورة التسـلل وحدث على الرغم من عدم سماح الدولة العثمانية بالهجرة رسميا، مستغلا الفساد الاداري في الدولة للنفاذ وبلوغ أهدافه. ونشير هنا الى محاولات هرتزل مع السلطان عبد الحميد من اجل السـماح بالتهجير وايجـاد وطن قومي للصهيونية في فلسطين، والى موقف عبد الحميد الواعي لأبعاد الخطر الصهيوني . كما نشير الى تحركات هرتزل مع دول اوروبا الاستعماريـة لبناء التحالف الصهيوني الاستعمـاري [١]، والى المؤتمرات الصهيونيـة التالية التي انعقدت في هذه المرحلة وشهدت نقاشا حول المكان الذي يمكن ان يقوم فيه الوطن القومي، وكيف استقر الرأي على فلسطين العربية وتتالت موجات التهجير اليهودي اليها. وقد استطاعت الحركة الصهيونية أن تهجر

(١) راجع يوميات هرتزل نشر مركز الابحاث الفلسطينية - وهناك كتب عدة تناولت تاريخ هـذه الفترة . صدرت ضمن الدراسات الفلسطينية الصهيونية . وقد سبق لنا أن فصلنا قصـة هرتزل وعبد الحميد في بحث نشرناه في جريدة الجمهورية القاهرية ، وسيصدر في فصل من كتاب لنا بعنوان « عبد الحميد في التاريخ » .

الى فلسطين في مرحلة التسلل هذه حوالي خمسين الف يهودي جلهم من اوروبا الشرقية . ويطلق المؤرخون الصهاينة على مهاجري هذه المرحلة اسم «الرواد» تشبيها لهم بالمستعمرين البيض الاوائل لامريكا[٢]. ومن أشهر مهاجري هذه المرحلة في تاريخ الصهيونية دافيد بن جوريون الذي قدم مع موجة ١٩٠٤ .. كما استطاعت الحركة الصهيونية ان تستولي على حوالي١٪ من اراضي فلسطين بشرائها من عائلات عربية تقيم خارج فلسطين بأساليب ملتوية[١]. ونلاحظ ان النضال العربي الذي جابه الغزوة خلال هذه المرحلة عمل على عرقلة تقدمها جهد استطاعته. ويروي بن جوريون في ذكرياته وكذلك الكتب الصهيونية قصصا كثيرة عن هذا النضال. كما نلاحظ ان الحركة الصهيونية بلورت في نهاية هذه المرحلة صلتها بالاستعمار العالمي فنقلت مركزها من اوروبا الشرقية الى بريطانيا وتحالفت مع الاستعمار البريطاني الطامع بالسيطرة على فلسطين والوطن العربي، ورسمت معه ومع الاستعمار الفرنسي خطوط الحدود التيستقوم بين فلسطين واجزاء الشام الاخرى ومصر.

جسد تصريح بلفور الذي صدر يوم ٢ نوفمبر ١٩١٧ هذا التحالف بين الحركة الصهيونية الاستعمارية وبين الاستعمار البريطاني . واتاح احتلال بريطانيا فلسطين في ديسمبر سنة١٩١٧ ـ اي بعد صدور التصريح وبعد خديعتها للعرب، وابرام اتفاقيات الصلح في فرساي اثر انتهاء الحرب العالمية الاولى، وفرض الانتداب البريطاني على فلسطين العربية، للغزوة الصهيونية ان تدخل مرحلتها الثانية .. مرحلة التغلغل. وعلى مدى ثلاثين سنة استمرتها هذه المرحلة استطاع التحالف الصهيوني الاستعماري ان يهجر مئات الالوف من يهود اوروبا الى فلسطين العربية خصوصا في فترة

(٢) أنظر مثلا ناداف صفران في كتابه « الولايات المتحدة واسرائيل ».

(١) راجع يوميات هرتزل وفيه قصة شراء بعض أراضي مرج بن عامر .

الثلاثينات التي شهدت ظهور النازية في المانيا. كما استطاع هذا التحالف ان يغتصب حوالي ٥.٥٪ من اراضي فلسطين الخصبة بأساليب التسلط المعلن والترهيب الاستعماري.. وهكذا ارتفع عدد اليهود في فلسطين من حوالي خمس وستين ألفا في بداية هذه المرحلة الى حوالي ستماية وخمسين الفا في نهايتها عام ١٩٤٨، أي ان العدد تضاعف عشر مرات. كما اصبح ما يسيطر عليه الغزاة الصهاينة حتى عام ١٩٤٨ من اراضي فلسطين هو ٦،٥٪. وهكذا شهدت هذه المرحلة تغلغل الغزوة في الارض العربية تحت ظل الانتداب البريطاني.

ونلاحظ هنا ان الاستعمار الاوروبي أكمل سيطرته على اجزاء الوطن العربي مع بداية هذه المرحلة التي توافق اواخر الحرب العالمية الاولى، وان النضال العربي اشتد في مجابهة هذا الاستعمار في جميع هذه الاجزاء ومنها فلسطين التي شهدت ثورات عدة بلغت مداها عام ١٩٣٦ الى عام ١٩٣٩ ـ ففرضت على بريطانيا نوعا من التراجع اكثر من مرة . كما نلاحظ ان الحرب العالمية الثانية التي نشبت اواخر هذه المرحلة طرحت معطيات جديدة على المستوى الدولي. وتكيفت الحركة الصهيونية مع هذه المعطيات فنقلت مركز ثقلها الى الولايات المتحدة التي برزت خلال الحرب وبعدها زعيمة للاستعمار الغربي. وقد طرحت خلال هذه المرحلة ومنذ عام ١٩٣٧ فكرة تقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية، ثم صدر عن الامم المتحدة في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ قرار التقسيم وسط ضغوط التحالف الاستعماري الصهيوني، فأعطى هذا القرار للدولة اليهودية أضعاف المساحة التي اغتصبتها الحركة الصهيونية من ارض فلسطين ، وحوالي ثلاثة اخماس مساحتها الكلية .[1] ويلفت النظر ايضا ان جل المهاجرين اليهود الى فلسطين حتى نهاية هذه المرحلة هم من يهود اوروبا. اي ان الغزوة الصهيونية في نشأتها هي غزوة

---

(١) اعطى قرار التقسيم مساحة ١٤،٠٠٠ كم٢ للدولة اليهودية واحتلت اسرائيل بعد الحرب ١٩٤٨ حوالي ٦٠٠٠ كم٢ أخرى .

استعمارية استيطانية اوروبية. كما يلفت النظر ايضا قيام المستوطنين الصهاينة بعد اصدار بريطانيا للكتاب الابيض عام ١٩٣٩ بعمليات ضد سلطة الانتداب نظمتها بعض منظماتهم تعبيرا عن الجنوح الىاقصى التطرف، وقد ألصقوا بهذه العمليات اسم حرب الاستقلال ليصطنعوا تاريخا يغطي حقيقة التحالف الصهيوني الاستعماري.

ومع انسحاب الانتداب البريطاني من فلسطين عام ١٩٤٨ وتواطئه لتسليم اراض كثيرة للصهاينة ، واعلان قيام دولة اسرائيل بدأت الغزوة الصهيونية مرحلة الغزو. ونشبت في بداية هذه المرحلة حرب فلسطين التي يصطلح على اعتبارها الحرب الاولى في الصراع .ونجح التحالف الصهيوني الاستعماري في هذه الحرب من خلال المناورات السياسية والتسليح والتغلغل والارهاب فيطرد حوالي مليون عربي منأهل فلسطين وتشريدهم في الاراضي العربية المجاورة .. تنفيذا لمخططات وسياسة الاستعمار الاستيطاني التي استهدفت احلال مستوطنين يهود جدد محلهم .. وشهدت هذه المرحلة اثر ذلك تدفق موجات الهجرة الكبرى من يهود اوروبا اولا ثم من يهود الوطن العربي . وقد تدفق منهم حتى حرب ١٩٦٧ حوالي المليونين ، فارتفع عدد سكان التجمع الاسرائيلي خلال مرحلة الغزو من ستمائة وخمسين ألفا الى حوالي مليونين ونصف متضاعفا اربع مرات ، وممثلا حوالي ١٣٪ من يهود العالم . وتضاعفت أيضا مساحة الاراضيالتي سيطر عليها الغزاة ، بتسليم الانتداب البريطاني مساحات منها تواطئا ووفقا لخارطة تقسيم ١٩٤٧ . ثم بتجاوز خطوط هذه الخريطة خلال حرب فلسطين والهدنتين وتنفيذ اتفاقيات رودس عام ١٩٤٩ ، ثم باستمرار محاولات اغتصاب مزيد من الاراضي العربية .

وهكذا سيطر العدو على أكثر من ٧٪ من مساحة فلسطين الكلية ونجحت محاولته في احتلال أم الرشراش وايجاد منفذ له على خليج العقبة .

وشملت هذه المساحة كل فلسطين عدا قطاع غزة والضفة الغربية ومساحة صغيرة جنوبي بحيرة طبرية . وقام العدو عام ١٩٥٦ بشن حرب على مصر متواطئا مع بريطانيا وفرنسا في محاولة منه للتوسع فاحتل قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء ولكنه اضطر للانسحاب منها بعد فشل العدوان الثلاثي ؛ وكانت هذه الحرب هي الحرب الثانية في الصراع .

ونلاحظ في هذه المرحلة ان الحركة الصهيونية نجحت في ايجاد ما أسمته « اسرائيل الصغرى » ، وشرعت تخطط لايجاد «اسرائيل الكبرى».. حلمها القديم . ونلاحظ أيضا أن تكوين المجتمع الاسرائيلي تغير في هذه المرحلة عما كان عليه في المرحلتين السابقتين فلم يعد قاصرا على اليهود الاوربيين ، بل دخلت فيه نسبة تقارب النصف من يهود الوطن العربي ، وان بقيت الهيمنة والحكم للمستوطنين الاوروبيين . ولكن آثار هذا التغير ستبدأ بالظهور منذ ذلك الوقت تدريجيا . وقد ظهر في هذه المرحلة طابع الاستعمار الاستيطاني الصهيوني واضحا . سواء في مفاهيمه العنصرية أو في أساليبه التعسفية ، وتجلى ذلك في السياسة الاسرائيلية تجاه عرب فلسطين المحتلة الذين بقوا في أراضيهم والذين طردوا منها ، وبرزت من معالم هذه السياسة مذابح دير ياسين وقبية ونحالين وكفر قاسم . واغتصاب الاراضي وسياسة التعليم .. الخ .

وجاء قيام العدو بعدوان يونيو ١٩٦٧ مؤذنا ببداية المرحلة الرابعة في الوجود الصهيوني الاستعماري .. مرحلة التوسع[١] . فقد استطاع العدو خلال حرب الايام الستة ـ الحرب الثالثة في الصراع ـ أن يحتل الضفة الغربية وقطاع غزة وسيناء والجولان ، فلا يستكمل احتلال البقية الباقية من فلسطين فحسب ، بل يتجاوزها الى احتلال مساحات شاسعة في مصر وسوريا[٢] . وهكذا زادت مساحة الاراضي العربية المحتلة في هذه

---

(١) « أنظر كتاب « من المقاومة الى الثورة الشعبية » من أجل مزيد من المعلومات عن هذه المرحلة .

(٢) حوالى ٢٠٪ من اراضي مصر و١٥٪ من أراضي سوريا .

المرحلة أكثر من ٦٨٥٠٠ كيلومترا مربعا وتضاعفت حوالي أربع مرات عما كانت عليه في بداية مرحلة الغزو . وأصبح عدونا في مركز استراتيجي بالغ الخطورة بجثومه على الضفة الشرقية لقناة السويس وساحل سيناء الجنوبي من بور سعيد على البحر المتوسط حتى شرم الشيخ على البحر الاحمر في مواجهة دلتا النيل وواديه في مصر والسودان ، وعلى طول الساحل الغربي لخليج العقبة وفي الجزر التي تتوسط مدخله أمام شبه الجزيرة العربية . وعلى طول غور الانهدام ، من رأس خليج العقبة حتى منابع نهر الاردن في مواجهة الضفة الشرقية للاردن . وعلى الخط بين جبل الشيخ ورأس الناقورة في مواقع تشرف على مساحات شاسعة في سوريا ولبنان ، وعلى طول الساحل الشرقي للبحر المتوسط من رأس الناقورة حتى رأس العش شمال بورسعيد .

وعمل عدونا على تهجير مزيد من يهود العالم الى الاراضي العربية المحتلة . وأقام المستوطنات لهم واستطاع حتى يوم ٦ أكتوبر أن ينجح في تهجير أكثر من مائةوخمسين ألف يهودي، وأن يقيملهم عشرات المستوطنات في القدس والضفة الغربية وسيناء والجولان . وكشف عدونا عن الآفاق التي يتطلع لتحقيقها في مرحلة التوسع سواء في مجال احتلال الاراضي أو في مجال الحشد السكاني فعبرت تلك الآفاق عن مطامع توسعية مجنونة . وهكذا أصبح عدونا يتحدث علانية عن اقامة « اسرائيل الكبرى » من النيل الى الفرات لتشمل فضلا عن فلسطين، الاردن ولبنان وسوريا والعراق وأجزاء من الجزيرة العربية وسيناء ودلتا النيل ، ويردد زعماؤه الحديث عن «حدود التوراة» و «الحدود التاريخية» في مجال حديثهم عن «الحدود الدفاعية»، ويجمعون على رفض رسم خريطة تقيدهم . كما أعلن العدو من خلال المؤتمرات الصهيونية التي عقدت في هذه المرحلة مخططاته لتهجير ستة ملايين يهودي واستيعابهم في الاراضي العربية . وباشر تنفيذ ما أعلنه ..

وهكذا دخل التهجير الصهيوني ليهود العالم طورا جديدا . فبعد

أن كان قبل ذلك يتم بحجة الاضطهاد وأصبح الآن يمنى اليهود بالحياة اليهودية الخالصة في دولة يهودية ؛ ويستهدف على الخصوص يهود الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية ، ليصل بعد ذلك الى تهجير يهود امريكا واوروبا الغربية. وسيطرت على التجمع الاسرائيلي في بداية مرحلةالتوسع، هذه مشاعر جنون العظمة والتفوق العنصري ، وقد سبق ان اشرنا للنفسية التي سادت فيه قبل حرب رمضان • وكان يمكن لهذه المشاعر ان يتفاقم تأثيرها لولا تحرك النضال العربي في صورة حرب الاستنزاف التي نشبت خلال هذه المرحلة ، وخففت الى حد من تلك المشاعر . ونلاحظ أن عدونا الاسرائيلي مارس في هذه المرحلة تجربة استعمارية بشعة على أهلنا عرب فلسطين والجولان وسيناء فكشف بصورة أوضح عن طبيعة الاستعمار الاستيطاني العنصري فيه[1] . وكان من جوانب هذه التجربة طرد وتشريد مزيد من العرب اثر الحرب من الاراضي العربية المحتلة سواء من مخيمات الضفة الغربية وقطاع غزة أو من سيناء والجولان ؛ وفرض تهجير مدن القناة ، وفتح باب تهجير عرب فلسطين الى بلاد بعيدة .

تلك هي المراحل الاربع التي مر بها الوجود الصهيوني الاستعماري منذ بداية الغزوة الصهيونية حتى حرب رمضان . وقد حاولنا في عرضنا الموجز لها أن نستحضر تاريخ هذه الغزوة خلال ما يقارب القرن لنكشف عن طبيعتها ونتعرف على مسارها . ويبدو واضحا من هذا العرض ان الغزوة الصهيونية هي حركة استعمار استيطاني يقوم على عقيدة خاصة ، وان اسرائيل كدولة كما شرح جمال حمدان : « ظاهرة استعمارية صرفة قائمة على الاغتصاب .. وهي استعمار طائفي بحت أساسها التعصب الديني .. وهي استعمار عنصري مطلق بكل ما في العنصرية من استعلاء وتعصب

---

(١) تشير الى مئات المقالات التي كتبت في الصحف الاوربية والامريكية والاسرائيلية عن أساليب الاستعمار الصهيوني خلال السنوات الست الماضية وقد تابعتها كتب مراكز الابحاث ونشرات مؤسسة الدراسات وتابعناها في أحاديثنا « وراء العدو » من اذاعة صوت العرب •

واضطهاد ينطلق من اللون وزعم الشعب المختار .. وهي قطعة من الاستعمار الاوروبي عبر البحار ؛ لان حكامها يهود غربيون .. وهي استعمار سكني توطني .. وهي تجسيم للاستعمار المتعدد الاغراض .. سكني واستراتيجي واقتصادي .. وهي استعمار توسعي أساسا يحلم « بمجاله الحيوي » .. وهي استعمار من الدرجة الاولى والثانية معا ؛ استعمار بالاصالة والوكالة لحساب الصهيونية العالمية والاستعمار العالمي . » [1] وهكذا فهي ظاهرة استعمارية فريدة .

كما يبدو واضحا من هذا العرض أن مسار الغزوة الصهيونية خلال هذه المراحل الاربعة رسم خطا بيانيا متصاعدا باستمرار ؛ سواء بالنسبة لمساحة الاراضي التي احتلتها الحركة الصهيونية او بالنسبة لعدد اليهود الذين هجرتهم الى هذه الاراضي .

حتى جاء يوم السادس من أكتوبر وكانت حرب رمضان فوصل هذا الخط البياني المتصاعد الى نقطة تحول وظهر من النتائج الاولية للحرب انه سيتجه وجهة جديدة يتغير فيها اتجاه مساره سواء بالنسبة للاراضي ، أو بالنسبة لعدد السكان . ولقد أعقب ابرام اتفاقية فصل القوات العسكرية في الجبهة المصرية انسحاب العدو الاسرائيلي لمسافة محدودة شرقي قناة السويس . ومن المتوقع أن تشهد هذه الفترة مزيدا من انسحاب العدو سواء في سيناء أو الجولان والضفة الغربية وقطاع غزة [2] ؛ لان حرب رمضان كما سبق أن أوضحنا هيأت المناخ للانسحاب ولتطبيق قراري

---

(١) أنظر للتفصيل جمال حمدان « استراتيجية الاستعمار والتحرير » ص ١٦٧ ــ ١٧٦ وفيه شرح ضاف لمكان هذه الظاهرة من الاستعمار العالمي .

(٢) كتبت هذه السطور في ٣١ مارس ١٩٧٤ . ولما يتم الوصول الى ابرام اتفاقية فصل القوات على الجبهة السورية ، والاشتباكات مستمرة ليومها العشرين هناك .
وقد تم الوصول الى الاتفاقية بعد شهرين ، وتحقق انسحاب العدو من الجيب الشمالي ومن قطاع طولي فيه مدينة القنيطرة .

مجلس الامن. وهكذا تشهد المرحلة الجديدة الحاضرة انكماشا في المساحة التي يحتلها الوجود الاسرائيلي يؤذن بانتهاء مرحلة التوسع وبداية الانحسار . ونلاحظ ان هذا الانكماش يحدث لاول مرة ، غير غافلين عن اضطرار اسرائيل للانسحاب من سيناء وقطاع غزة اثر فشل العدوان الثلاثي لان الوجود الاسرائيلي لم يتسن له الوقت الكافي يومذاك للتوسع فبدأ انسحاب اسرائيل بعد أقل من شهرين وانتهى في غضون ستة شهور . كما تتوقع أن تشهد المرحلة كتعبير عن النتائج الاولية للحرب على العدو تزايد نسبة النزوح من اسرائيل وتضاؤل نسبة التهجير اذا استمر النضال العربي في التعبير عن نفسه وفقا لمتطلبات المرحلة . الامر الذي سيحقق توقفا في نمو التجمع الاسرائيلي سكانيا ، ثم تناقصا . ومرة أخرى نربط تشوف آفاق المستقبل بالارادة الفاعلية .

وهكذا يبدو لنا جانب من صورة المرحلة الجديدة .. الجانب المختص بالعدو ليكشف عن تحول في مسار الغزوة الصهيونية الى اتجاه آخر يرهص بمرحلة انكماش وانحسار .

ولكن صورة المرحلة الجديدة لا تكتمل ـ كي نستطيع تحديد موقع ومكان حرب رمضان من الصراع ـ الا برؤية جانب الصورة الخاص بالنضال العربي ورؤية المحيط الدولي من حولنا .

*

لقد سبق لنا القول ان حرب رمضان هي بداية مرحلة جديدة في النضال العربي ، تتصل وترتبط ارتباطا وثيقا بما سبقها من مراحل . فما هي المراحل السابقة التي عاصرت الصراع . وكيف يبدو مسار الحركة التاريخية فيها ؟ وكيف كانت تبدو صورة الصراع في كل مرحلة ؟

كان النضال العربي في الربع الاخير من القرن الماضي ـ حين بدأت الغزوة الصهيونية لفلسطين ـ يتحمل مسؤولياته في مجابهة الاستعمار الغربي ، ويعبر عن نفسه في حركة اليقظة العربية الحديثة التي بدأت تظهر

وتعمل من أجل التقدم . ولقد رأينا كيف عاصرت الغزوة الصهيونية آخر موجة كبرى من موجات الاستعمار الغربي الحديث .. وكانت هي ذاتها جزءا من هذه الموجة الاستعمارية الاوروبيـة . وكان الوطن العربي قـد تعرض منذ عام ١٨٣٠ للموجة الاولى من موجات الاستعمار الغربي حـين احتلت فرنسا الجزائر في ذلك العام واحتلت بريطانيا عدن عام ١٨٣٩ ، ثم زحفت منها الى سواحل الخليج العربي . وجاء احتلال فرنسا لتونس عـام ١٨٨١ ايذانا ببدء الموجة الثانية التي احتلت فيها بريطانيا مصر عام ١٨٨٢ وكذا السودان عام ١٨٩٦ . ولم تلبث ان جاءت الموجة الثالثة عام ١٩١١ مع الغزو الايطالي لليبيا واحتلال فرنسا للمغرب عام ١٩١٢ ودخول جيـوش الحلفاء المشرق العربي ابان الحرب العالمية الاولى .

تتالت هذه الموجات في وقت كانت فيه الامة العربية تعمل جاهـدة للخروج من التخلف وتعيش تباشير اليقظة منذ أواخر القرن الثامن عشر . وقد كشفت تجربة محمد علي في مصر والوطن العربي لاوروبا عن مدى ما يعد به النضال العربي من خير للمنطقة ومدى ما يمثله من خطر على المصالح الاستعمارية الاوروبية ، فتصدت الدول الاوروبية وعلى رأسها بريطانيـا لتطويق هذه التجربة . ولكن على الرغم من هذا التطويق استمرت اليقظة العربية في تفتحها ، واشتد النضال العربي في مواجهة الموجات الاستعمارية. واذا كان قد خسر جولات في صراعه معها فانه أجبرها على دفع ثمن باهظ لعدوانها ، وسجل التاريخ الحديث صفحات رائعة لهذا النضـال في كل الاجزاء العربية[1] .

وهكذا : فان مرحلة التسلل الصهيوني لفلسطين جاءت في وقت كانت

---

(١) تاريخ النضال العربي هذا يستحق دراسة خاصة نتناوله بالعرض . ونشير هنا لما ورد في المدماك الوطني في فصل جذور النضال المصري ، والى محاضرة بعنوان « تاريخ النضال العربي » القاها كاتب هذه السطور في عدة اماكن وطبعتها رابطة الطلبة العرب الوحدويين .

فيه الامة العربية في بداية يقظتها ، وكانت فلسطين وبلاد الشام والعـراق وليبيا وأجزاء من الجزيرة العربية تحت الحـكم العثمـاني . ثم وقعت في أيدي الاستعمار الغربي في نهاية تلك المرحلة .. ونلاحظ أن الشعب العربي في فلسطين تنبه بحس فطري لاخطار الغزوة الصهيونية ، فأطلق صيحات التحذير للامة العربية وحاول تطويق هذه الاخطار .

استمرت اليقظة العربية في تفتحها خلال مرحلة التغلغل الصهيوني في فلسطين على الرغم من القيود الاستعمارية .. ودخل النضال العربي مرحلة جديدة بعد الحرب العالمية الاولى ، وجابه شعب فلسطين العربي التحالف الصهيوني الاستعماري بثورات متصلة ، كما جابه الشعب العربي في بقية الاجزاء السلطات الاستعمارية فيها . فبرز النضال الوطني الذي فرضـه واقع تجزئة الاستعمار للوطن،ومع ذلك فاننا نرى من خلال النظرةالشاملة لهذا النضال الوطني في مختلف الاجزاء انه كان متأثرا ومحكوما بحقيقة الوجود القومي الواحد للامة العربية . وهكذا كانت الثورات تتجاوب عن بعد رغم التجزئة . ولقد نجح النضال العربي في أن يطرد الاستعمار مـن بعض هذه الاجزاء خلال هذه المرحلة . وظهرت بوضوح موجة التحرير في الوطن العربي اثر انتهاء الحرب العالمية الثانية فاستقلت سوريا ولبنـان ، وكانت مصر قد نالت استقلالها منقوصا قبل ذلك .

واستجاب النضال العربي لتحديات نكبة ١٩٤٨ ودخل مرحلة جديدة تابع فيها مجابهته للتحالف الاستعماري الصهيوني وللغزو الصهيوني وهو في مرحلة الغزو . وحققت اليقظة العربية الحديثة انجازات كبيرة في طريق التقدم العربي عـلى مختلف المستويات وفي مختلف المجـالات ، وقادت الثورة العربية ونواتها ثورة ٢٣ يوليو النضال العربي فتدفقت موجة التحرير وتحررت غالبية الاجزاء العربية واشتدت ثورة الجزائر التي نشبت عـام ١٩٥٤ على مدى ثماني سنوات وأوصلت الى استقلال الجزائر عام ١٩٦٢ . وكان للوقفة العربية الصامدة في وجه العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ اثرهـا

الكبير على دفع موجة التحرير في افريقيا وآسيا . وخاضت الامة العربية تجارب عدة في مجال العمل من أجل الوحدة . وفي مجال التحول الاقتصادي . وهكذا نجد الصورة العربية قد تغيرت كثيرا في هذه المرحلة على الرغم من كل ما احرزته الصهيونية لن تقدم في غزوتها. وهو ما يفسر حرص التحالف الصهيوني الاستعماري على انزال ضربة يونيو ٦٧ بالعرب .

وبقدر ما كان وقع نكسة ٦٧ شديدا على الامة العربية بقدر ما قويت استجابة النضال العربي لتحدي النكسة . فجابه بعزم الوجود الاسرائيلي في مرحلة التوسع وكانت حرب الاستنزاف وعمل على الاستفادة من دروس النكسة وعبرها . واستمرت اليقظة العربية في تقدمها . واستكملت جميع الاجزاء العربية تحررها وقويت على الخصوص مقاومة شعب فلسطين العربي للوجود الصهيوني . وكانت هذه المقاومة قد استمرت بلا انقطاع منذ بداية الغزوة واتخذت في مرحلة الغزو الى جانب صورة المقاومة للعدو صورة العمل من أجل الوحدة .. وجاء يوم ٦ أكتوبر فدخل النضال العربي مرحلة جديدة .

حاولنا في هذا الحديث الموجز عن النضال العربي خلال قرن أن نرى بوضوح ما سبق لنا أن أجملناه في موضع سابق من هذا الحديث ، وهو أن الامة العربية تعيش منذ قرن انبعاثا حضاريا جديدا بدأته بيقظة ثم بنهضة ولا تزال تغذ السير فيه . فالنظرة الشاملة للحقبة التاريخية المكتملة تبين أن الخط البياني لليقظة العربية هو في تصاعد مستمر وحركته متصاعدة . كما ان محصلة النضال العربي في مراحل هذه الحقبة محصلة ايجابية وخطه البياني ، على الرغم من وجود ذبذبات فيه ونزول محدود احيانا رسمته النكسات ، فانه أيضا في تصاعد مستمر . فالفارق واضح بين الصورة العربية في بداية كل مرحلة من مراحل الصراع العربي الاسرائيلي . ويمكن تتبعه في مجالات التعليم والاقتصاد والتطور الاجتماعي ومؤسسات الحكم

وبناء الجيش وتطور الزراعة والصناعة واستغلال الثروات . والتحول الذي يشهده الوطن العربي في كل هذه المجالات وفي هذه المرحلة يؤكد أن هذا الانبعاث الحضاري مستمر والآفاق التي يستشرفها رحبة ، اذ لا يزال أمام اليقظة العربية الكثير مما ينبغي انجازه .

وهكذا تتحدد وجهة السير في المرحلة الجديدة من النضال العربي التي بدأت بحرب رمضان. ولقد أوضحت أحداث الحرب أن النضال العربي قطف خلالها بعض ثمرات زرعه في المرحلة السابقة ، الامر الذي يشير الى ان هناك ثمرات أخرى ستنضج خلال هذه الفترة ويحين موعد قطفها . ونضرب على ذلك مثلا واحدا من أمثلة كثيرة برزت في الحرب هو اغلاق باب المندب في وجه السفن المتجهة لايلات ، فقد تمكن النضال العربي من ذلك بعد أن حرر جنوب اليمن وطرد انجلترا من عدن فأصبحت له الهيمنة على المضيق تماما كما ان تحرير جنوب اليمن جاء بعد ان قام النضال العربي بدوره في اليمن منذ عام ١٩٦٢ وساهمت مصر العربية بقسط كبير فيه ، فجاء اغلاق المضيق ابان حرب رمضان كجزء من مردود تلك المساهمة . ويمكننا ان نوضح أمثلة أخرى مشابهة ستظهر مستقبلا .

وهكذا : فاذا كانت الغزوة الصهيونية قد حققت تصاعدا في مراحلها السابقة على حساب النضال العربي في فلسطين الذي بدا متراجعا، فان هذا النضال قد حقق تصاعدا مستمرا في مراحله السابقة في بقية اجزاء الوطن العربي على حساب الاطماع الاستعمارية . وأصبح من المتوقع ان ينعكس تأثير ما حققه على صراعه مع الغزوة الصهيونية . ومرة أخرى نؤكد هنا على أهمية النظر الى حقبة تاريخية مكتملة قبل اصدار الحكم على الاحداث الآنية . وقد تثور شبهة ونحن نتابع حركة اليقظة العربية الحديثة وتطور الغزوة الصهيونية حول معدل السرعة في المسارين ، خصوصا وان بعض الدراسات الاجنبية ركزت على ما اسمته « الفجوة » الناتجة من أن التقدم العربي يتم ببطء بينما يحقق العدو الصهيوني تقدما علميا بخطى حثيثة ، والحق ان النظرة الشاملة لحركة اليقظة العربية تبين ان مستقبلها واعد

بالكثير. كما ان حرب رمضان وضعت تقدم العدو التقني في حجمه الطبيعي. فمع حرصنا الشديد على عدم التقليل من شأنه الا أنه لم يعد ممكنا بعدها المبالغة فيه . ولا نغفل عن ان الجانب العلمي هو عامل هام في الصراع ولكن تأثيره مع بقية العوامل مرتبط بالروح التي تحرك الانسان فيه .

*

ونأتي الآن الى التعرف على المحيط الدولي الذي يحيط بالصراع منذ نشوئه وعبر مراحله المتعاقبة ، ذلك أنه لا يمكن استكمال فهم الصورة الا برؤية هذا المحيط الدولي .

لقد بدأت الغزوة الصهيونية لفلسطين بعد فترة قصيرة من انعقاد مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ الذي جاء في اعقاب الحرب بين روسيا والدولة العثمانية . والذي شهد حوار الدول الاوروبية حول اقتسام مناطق النفوذ في الوطن العربي والعالم غير الاوروبي .وكانت اوروبا تعيش آنذاك ذروة نشاطها الاستعماري الذي اقترن بتفجير الثورة الصناعية فيها . وتهيمن على مقدرات أوطان وامم في مختلف القارات . وقد اشتد التنافس الاستعماري بين دول أوروبا في تلك الفترة ثم لم يلبث ان ظهر بينها نوع من التفاهم . وكما سبق ان ذكرنا من قبل فان مرحلة التسلل في الغزوة الصهيونية واكبت احتلال فرنسا لتونس عام ١٨٨١ واحتلال بريطانيا لمصر عام١٨٨٢ وللسودان عام ١٨٩٦ بعد ان تخلت عن سياستها التي نادت بالحفاظ على تكامل الدولة العثمانية ، كما شهدت مرحلة التسلل الوفاق الودي بين بريطانيا وفرنسا عام ١٩٠٤ الذي مهد لتحالفهما في الحرب العالمية الاولى ولابرام معاهدة سايكس بيكو عام ١٩١٦ التي حددت مناطق نفوذ كل منهما في المشرق العربي، وشهدت أيضا غزو ايطاليا لليبيا وفرنسا للمغرب عامي١٩١١و١٩١٢

ودخلت الغزوة الصهيونية مرحلة التغلغل مع انتهاء الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨) واشتداد تكالب اوروبا على الاستعمار . ولكن الحرب غيرت في صورة القارة الاوروبية ومهدت لظهور المذاهب الجمعية

فيها وفرضت اعلان مبادىء حق تقرير المصير والسلام . وقد انعقد مؤتمر فرساي عام ١٩١٩ في أعقاب الحرب فكان ضربة لتلك المبادىء وشهد حوار دول الغرب حول اقتسام مناطق النفوذ والمستعمرات تحت اسم الانتداب أو الوصاية . وهكذا مكن الانتـداب البريطاني الغزوة الصهيونية مـن التغلغل في فلسطين وتقاسمت بريطانيا مع فرنسا حكم غالبية أجزاء الوطن العربي بعد تجزئته . وكانت أوروبا ولا تزال في هذه المرحلة تهيمن عـلى مقدرات القارات الاخرى ، وان برزت الولايات المتحدة كقوة كبـيرة الى جانبها . وقد تعاظمت مقاومة الشعوب المستعمرة للاستعمار في تلك الفترة، وكان من أمثلتها نضال شعب فلسطين العربي ونضال الشعوب العربية في بقية الوطن العربي . وظهرت أزمـة القيم التي تعانيهـا الدول المستعمرة وانعكست على تجربة عصبـة الامم التي كانت تطويرا لتجربة الحكومـة الاوروبية في أعقاب مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ الذي تلا حروب بونابرت .. وهكذا انفجرت الحرب العالمية الثانيـة بعد عقدين مـن مؤتمر فرساي . ونلاحظ ان الغزوة الصهيونية استغلت هذا المناخ الدولي وآثاره عـلى السياسة الاوروبية لتحقيق التغلغل ، فاستفادت من اضطهاد النازية لليهود في تكثيف هجرتهم لفلسطين ، والتقت مـع النـازية في اصطناع حملات الاضطهاد ضد اليهود في أوطانهم لبلوغ أهدافها في تهجيرهم .

ثم دخلت الغزوة الصهيونية مرحلة الغزو في أعقاب الحرب العالميـة الثانية (١٩٣٩ ـــ ١٩٤٥) وظهور عالم جديد وحدوث الانقلاب النووي . وقد كانت الحرب بما شهدت من تفاعلات وتغيرات على مختلف المستويات ثورة خرجت منها اوروبا الاستعمارية منهكة ، وتعاظم دور كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وظهرت في اعقاب الحرب موجـة التحرير الآسيوية الافريقية فساهمت في رسم خريطة العالم الجديد . واذا كانت الدول الكبرى قد حاولت في مؤتمري يالتا وبوتسدام في أعقاب الحرب رسم خريطة العالم ، فان نضال الشعوب الذي مثـل روح العصـر فرض

تغييرات كثيرة على ما تم رسمه . وظهرت تجربة الامم المتحدة التي جعلتها موجة التحرير تختلف عن سابقتها . وكان انعقاد مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥ نقطة تحول في الصورة الدولية حيث انطلقت صيحة الدول المستقلة حديثا، وبرزت فكرة العالم الثالث . وخرجت الهيمنة على العالم من يد اوروبا وأمريكا . وقد قامت الثورة العربية كجزء من العالم الثالث بدورها في تخفيف حدة التوتر بين المعسكرين الكبيرين اللذين ظهرا في أوروبا وامريكا بعد الحرب . وفرضت مع الانقلاب النووي حدوث تطور في العلاقات بين المعسكرين من حافة الحرب الى سياسة التعايش السلمي . ونلاحظ ان الغزوة الصهيونية ركزت على التحالف مع الولايات المتحدة منذ أن تعاظم الدور الامريكي في العالم . وقامت بدور تخريبي في المنطقة لصالح التحالف الاستعماري الصهيوني . فنالت من الدعم ما مكنها من انجاح مرحلة الغزو .

وجاء دخول الغزوة الصهيونية مرحلة التوسع عام ١٩٦٧ ، في وقت كان العالم فيه يشهد تحولا في العلاقات التي تحكم دوله . فقد أحدثت سياسة التعايش السلمي في كل من المعسكرين تغيرات هامة . وبرزت الصين وفرنسا كقوتين في كل منهما . كما مكنت سياسة التعايش السلمي الاستعماري العالمي من ضرب عدد من الحركات التحررية التي ظهرت في الستينات . وكان عدوان ١٩٦٧ ذروة التآمر على موجة التحرير العالمية الامر الذي فرض على الحركات التحررية أن تعيد النظر في حساباتها وتطور من أساليب مقاومتها للاستعمار .. وهكذا تصاعدت ثورة فيتنام واستردت الثورة العربية أنفاسها وباشرت حرب الاستنزاف وضرب بقايا الاستعمار في الوطن العربي . واشتد الصراع بين الدول النامية مالكة قسم كبير من المواد الاولية وبين الدول الغنية المستغلة لهذه المواد . وأوصلت التغيرات الى صورة عالمية جديدة والى أسلوب جديد في العلاقات بين المعسكرين كان لا بد أن يحاذيه أسلوب جديد في التعامل الدولي . وقد اعتمدت الغزوة

الصهيونية على أساليبها القديمة في التوسع فاستمر تحالفها مع الولايات المتحدة ولجوئها الى القوة والعدوان في فرض سيطرتها ، فبـدت هـذه الاساليب القديمة تسير في اتجاه معاكس للاتجاه الذي تسير فيه المتغيرات الدولية[1]. خصوصا وان الولايات المتحدة اضطرت للاستجابة الى حد ما للمتغيرات الجديدة فبدأت صفحة جديدة في فيتنام ، ومع الصين والاتحاد السوفيتي عام ١٩٧٢ . وقد سبقت أوروبا في انتهاج سياسة جديدة تنسجم مع هذه المتغيرات وتسلم بوجـود عالم ثالث . ولم يشذ مـع اسرائيل الا مجموعة التجمعات العنصرية في البرتغـال وجنوب أفريقيـا وروديسيا . ونلاحظ ان المناخ الدولي أصبح أكثر من أي وقت مضى متأثرا بحاجـة العالم الى مثل وقيم جديدة ، تمسح ما لحق بالعالم من آثار سياسة القـوة الغاشمة التي سيطرت على الحضارة الغربية .

وهكذا يتضح من تتبع المحيط الدولي الذي أحاط بالصراع منـذ نشوئه أنه يتحول الآن في السبعينات لصالح تصفية الاستعمار ، واقامـة علاقات جديدة تحكم بشكل أفضل أممه وأوطانه ، الامر الذي سيزيد حتما من عزلة التجمعات الاستعمارية العنصرية وفي مقدمتها اسرائيل التي تبدو اليوم أكثر من أي يوم مضى كتجسيد للرجعية .

بعد هذا العرض التحليلي الموجز لتاريخ الصراع العربي الاسرائيلي بشتى أبعاده ، ووضوح مسار حركته التاريخية ، نزداد فهما لما جرى فـي حرب رمضان من جهـة ، ويتحدد امامنا مكـان وموقع حرب رمضان من الصراع من جهة اخرى . ويصبح بأمكاننا ان نرى ببصيرة نافذة ان حرب رمضان التي سبق ان اعتبرناها نقطة تحول وبداية مرحلة جديدة ، هي بداية النهاية في الوجود الصهيوني الاستعماري في الوطن العربي ، وهي من ثم احدى المعارك الفاصلة في تاريخ النضال العربي .

---

(١) فصلنا الحديث عن المتغيرات الدولية والعالم الثالث في الفصل الاخير من كتابنا « عبدالناصر والثورة العربية» • وننصح بالرجوع اليه والى كتاب جمال حمدان «استراتيجية الاستعمار والتحرير»•

ولكي تكون أبعاد هذه الرؤية واضحة أمامنا لا بد أن نحدد بايجاز المقصود « بالمعركة الفاصلة » . « وبداية النهاية » . فالمصطلح الاول يتردد في الدراسات التاريخية ليصف معارك حربية بعينها دون بقية المعارك، مدللا على عظم نتائجها التي ترسم تحولا في الاحداث . ونلاحظ ان الاحداث التاريخية ترسم خطا منحنيا ؛ ولا يأتي التحول فيها فجأة . وهذا يعني أن المعركة الفاصلة تكون ثمرة حمل طويل بما سيترتب عليها ، كما يعني أن نتائجها تمكن الدارس من التفريق بين ما قبلها وما بعدها. ولايقضي الحاق هذه الصفة باحدى المعارك ان تكون المعركة كبيرة في حجمها ، فالعبرة هنا بالتحول الذي ينتج عن المعركة . وكم من معركة صغيرة في الحجم كان تأثيرها ضخما كموقعة بدر في بداية ثورة الاسلام ؛ وموقعة فالمي ابان الثورة الفرنسية ؛ ولقد عرف تاريخنا العربي عددا من المواقع الفاصلة كان من اهمها على ارض فلسطين معركتا حطين وعين جالوت اللتان حددتا مصيري الوجود الصليبي والغزو المغولي في الوطن [1] العربي . ويأتي المصطلح الآخر « بداية النهاية » مقترنا « بالمعركة الفاصلة » ليشير الى أن نهاية الظاهرة التي من المتوقع ان تحسم ستأخذ وقتا انسجاما مع طبيعة التحول التاريخي الذي يتم تدريجيا .. ولكن المعركة الفاصلة المقصودة تكون قد حددت بداية الحسم . ولعل من أبرز الامثلة على ذلك في تاريخنا معركة حطين التي انتصر فيها صلاح الدين على الصليبيين واستعاد أجزاء واسعة من أراضي فلسطين فعلى الرغم من ان الوجود الصليبي استمر في اجزاء من فلسطين وبلاد الشام لاكثر من قرن بعد حطين ، فان حطين في نظر المؤرخين هي « بداية النهاية » التي تحقق فيها التحول وتحدد اتجاه مسار الوجود الصليبي الاستعماري [1] .

---

(١) هناك دراسة اكثر تفصيلا عن المواقع الفاصلة فى تاريخنا ستصدر مع دراسات تاريخية اخرى فى كتاب لنا للطبع . وستنير حرب السويس من المعارك الفاصلة في تاريخنا الحديث .

(١) حدثت حطين عام ١١٨٧ بعد تسعين سنة من بداية الحروب الصليبية عام ١٠٨٧ وسقطت آخر =

كما لابد لنا ونحن نستشف من المستقبل هذه الرؤية أن نتذكر ما سبق أن قلناه في مستهل هذا الحديث من ان سلسلة الاحداث التي ترتبط بحرب رمضان لم تنته ، وعلى هذا فمدلولها ينصرف على مجموع هذه الاحداث . وأن نلاحظ أنه اذا كانت حرب رمضان لم تحقق نصرا عسكريا حاسما للعرب على اسرائيل ـ وهي في هذه النقطة تختلف عن حطين ، فانها حققت للعرب نصرا معنويا حاسما . وان نعاود القول بأن هذا الموقع لحرب رمضان في الصراع انما يتأكد بما سيحققه النضال العربي في هذه المرحلة. وحديثنا هنا كما أوضحنا حين يتناول المستقبل يتطلع للفعل والتأثير ويجمع بين توقع ما سيكون مع ما ينبغي ان يكون . وأخيرا أن نلاحظ أن هذا الموقع الذي ستحتله حرب رمضان هو حصيلة ابعاد الصراع في محيطه المحلي والدولي .

ان هذه الرؤية للموقع الذي ستحتله حرب رمضان من الصراع ليست غائبة عن العدو الاسرائيلي ، بل لعله أكثر انشغالا بها منا . وقد حفلت الدراسات التي ظهرت في اعقاب الحرب في الاوساط الصهيونية بأحاديث حول هذه الرؤية ، تماما كما حفلت دراسات صهيونية صدرت قبل حرب رمضان وتحسبت من نشوب مثيل لها بهذه الاحاديث . وانشغلت أيضا دراسات عالمية ظهرت بعد وقبل حرب رمضان بجوانب هذا الموضوع ، ورؤية المستقبل للصراع العربي الاسرائيلي . ونلاحظ ان الدراسات الصهيونية والاستعمارية حين تعرض لهذه الرؤية انما تهدف لمحاولة احتوائها وتخطط لاجهاض الثورة ومجابهتها بالثورة المضادة . وسنفصل الحديث عن هذه المحاولات في حديث المستقبل . ونكتفي بأن نورد بعض الامثلة

= المستعمرات الصليبية في عكا عام ١٢٩١ وطرد بقايا الصليبيين من جزيرة أرواد على الساحل السوري عام ١٣٠٢ .. انظر فيليب حتي « تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين » جـ ٢ ص ٢٤٠ وما بعدها .

لما تضمنته هـذه الدراسات من حديث حـول موقع الحرب من الصـراع ورؤية المستقبل .

ففي دراسة هامة كتبها المؤرخ الاسرائيلي يعقوب تلمون أستاذ التاريخ المعاصر في الجامعة العبرية بعنوان « حساب النفس » عالج فيه السياسة الاسرائيلية في ضوء نتائج حرب رمضان ونشرهـا في هاآرتس ، ركـز الكاتب على تغير نظرة العالم ــ وهو فـي كثير من الكتابات الصهيونيـة يقصد به الغرب ــ لظاهرة الوجود الاسرائيلي في الوطن العربي ، ومما قاله: « لم يعد العالم مأخوذا بالرومانتيكية القومية الخرافية ، فالحقيقة الحاسمة خلال الجيل الاخير ، والتطور التدريجي ذي النتائج الوافرة الذي غير وجه التاريخ أمام أنظارنا بصورة فعلية تجلى بانحسار الاستعمار .. لقد قوضنا بقائنا في المناطق المحتفظ بها ، على مذهب السيد ديان ، شـرعية دولـة اسرائيل : أصبحنا محتلين واستعماريين ، وعبثا نصرخ أننا لسنا كذلك .. وأننا نختلف عن دوافع المحتلين والمستوطنين الاستعماريين . ان المنـاخ في العالم اليوم يختلف عن المناخ الذي كان سائدا قبل خمس وعشرين سنة ». ويتحسر الكاتب وهو يستحضر تاريخ الغـزوة الصهيونيـة التي يسميها الحركة القومية اليهودية فيلاحظ أنها تأخرت عن الموعد الافضل لها حـين كان الإستعمار في أوجه ويقول : « ان الحقيقة المرة هي ان الحركة القومية اليهودية تأخرت خمسين سنة ، ونحن ندفع الآن ثمن هـذا التأخير . وفي ربيع الشعوب سنة ١٨٤٨ (يلاحظ هنا ان الحديث ينصرف الى اوروبا من مستوطن استعماري أوروبي) لم تبق قبيـلة في أوروبا الا استيقظت كي تتظاهر بخاصيتها وتطالب لنفسها بالحرية القومية أو بالاستقلال الذاتي على الاقل . ولم يستثن من ذلك سوى اليهود ، ولم يكن للجماهير اليهودية في أوروبا الشرقية اي وعي سياسي .. وفي عصر انحسار الاستعمار فان محاولة التسلط عـلى سكان غرباء ومعادين مثلهـا مثل محاولة اعـادة النظـام الاقطاعي » .. ويعود الكاتب في موضع آخر يؤكد مخالفة اتجـاه سيـر

الغزوة الصهيونية لاتجاه التاريخ في العالم ويقول : « ان الكثيرين منا يحاولون في عصر انحسار الاستعمار بالذات ان يفرضوا على عرب فلسطين مصيرا نجحت في التخلص منه الآن شعوب آسيا وأفريقيا التي كانت تحت سيطرة وطأة الغزاة والمستوطنين الاجانب » . ولايرى الكاتب مخرجا من المأزق الحالي الذي وجدت الصهيونية نفسها فيه بعد حرب رمضان الا بالسلام الذي يطرحه وفقا للمفهوم الصهيوني في أساسياته ، والا ... فعلى حد قوله وهو يحكي رؤيته : « .. لن نخرج من الازمة أكثر قوة وأكثر ثقة ، بل سيزداد الحصار علينا ، وتصبح الحروب أكثر تواترا وتزداد عزلتنا. وان استنزاف دماء موسسية في اشتباكات كبيرة ، والنزف المتواصل في حرب الاستنزاف ، والاحتفاظ بجزء كبير من سكان منتجين في الاحتياط على الحدود ، والانفاق الباهظ على الجهود الدفاعية ، خصوصا لا قدر الله اذا انخفضت ، وطبعا لن تلغى المساعدات الامريكية بالاسلحة والهبات دون احتمال للحسم النهائي والمطلق في ساحة القتال وعلى الصعيد السياسي كل ذلك نهايته سقوط الصهيونية وليس تحقيقها. وحتى لو أصبحت حدودنا من النيل الى الفرات ، وطبعا لن يكون وجود اسرائيل أمينا وستأخذ البربرية الوحشية في الازدياد بالمنطقة بأسرها، ولانستطيع النجاة منها ، وربما يشعل الصراع نارا تعرض سلام العالم بأسره الى الخطر »[١] .

قصدنا ان نورد هذه المقتطفات الوافية من دراسة « تلمون » لنلاحظ فيها من جهة نفسية الفرد الاسرائيلي بعد حرب رمضان ، وقد سبق أن عرضنا لها بالحديث ، ولنلاحظ على الخصوص القلق على مستقبل الوجود الصهيوني عند هذا الفرد الاسرائيلي الذي لم يستطع رغم كل الادعاءات الصهيونية أن يتجاهل حقيقة كون الوجود الصهيوني في فلسطين استعمارا في عصر انحسار الاستعمار . ويلفت النظر في هذه الدراسة ان صاحبها

---

(١) ملحق العدد ٤ من نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية بتاريخ ١٦ فبراير سنة ١٩٧٤ .

وهو يؤكد على ضرورة السلام يشدد على فكرة الردع العسكري ، فيقع في تناقض يقع فيه عادة الاستعمار الاستيطاني . كما يلفت النظر قلقه من احتمال تزايد عزلة اسرائيل الدولية في المرحلة الحاضرة .

كذلك نشر ناحوم جولدمان سلسلة مقالات في صحيفة هاآرتس بعد الحرب تحت عنوان « اسرائيل امام واقع جديد » تضمنت رؤيته للمستقبل من خلال تجربته كواحد من زعماء الصهيونية . ورئيس المنظمة الصهيونية سابقا ورئيس المؤتمر اليهودي العالمي ، وقد ركز في مقالاته على عزلة اسرائيل الدولية وعزاها الى سياستها غير الواقعية . كما ناقش علاقات اسرائيل بالعرب ، ولاحظ ان « قوة العرب تزداد سنة بعد أخرى » ، وأن اسرائيل « لم تكرس جزءا كبيرا من طاقتها الانتاجية لتحقق هدف وجودها وهو ان تكون مركزا فريدا في نوعه للحياة اليهودية » . ويرى جولدمان أن الفرصة الحالية لتحقيق السلام هي آخر احتمال عملي ، والا .. فعلى حد قوله وهو يحكي رؤيته : « انني مقتنع بأن احتمالات اسرائيل ستكون أسوأ في المستقبل أو بعد حروب أخرى ، وذلك لسبب بسيط ، هو انه اذا هزمت اسرائيل فسيكون ذلك نهاية الدولة ، بينما لن يؤدي الانتصار الاسرائيلي الى سلام أفضل ، كما ثبت في الماضي » . ولعل أهم ما ورد في مقالات جولدمان هو شرحه لنفسية الغزاة الصهاينة في التجمع الاسرائيلي « فهي نفسية شعب يؤمن بأنه شعب مختار يرد باستخفاف واحيانا باستهتار على أفكار الاكثرية .. وقد أثر في هذه النفسية حدثا النكبة واقامة دولة اسرائيل تأثيرا لا حدود له . فكنا نميل دائما الى المبالغة في ردود أفعالنا ، وفي الايمان بقيم مطلقة وبدلا من أن نرى الامور بصورة موضوعية ركزنا على أسلوبنا غير الموضوعي .. هذه النفسية هي التي ولدت الافكار الاساسية لتاريخنا وفلسفتنا » ، ونلاحظ ان تلمون في دراسته ركز على هذه النفسية التي تفسر مواقف الدول بأنها « نابعة من كراهية العالم لشعب الله » . والتي تصرح بأن اسرائيل ظاهرة آحادية وحضارة لا مثيل

لها ، وهي لا تشترك مع الحضارة الغربية الفاسدة لان لها اخلاقا وقواعد مسلكية». ويعلق عليها بقوله «ان هذه العنصرية التي تعتبر حتى الدين تعبيرا عن الخاصية العنصرية قد تجعلنا موضع سخرية . وستبدو لابنائنا وليس للاجانب فقط تبجح قبلية ساذجة وغريبة الاطوار متغطرسة ، لم تساهم في شيء في الحضارة الانسانية ، والانسانية لا تدين لها بشيء » . وتلفت النظر دقة هذا الوصف الذي ينطبق على أستاذ جامعي صهيوني كالاستاذ ميمي وهو يطرح منطقه في ندوة فكرية في باريس كندوة اللوموند في نوفمبر ٧٣ تماما كما ينطبق على فرد اسرائيلي عامي انتقل من جيتو اوروبي ليعيش في ضواحي يافا .

ان أهمية هذا الشرح للنفسية الاسرائيلية ، وحرصنا عليه ، نابعة من ارتباط رؤية المستقبل بها . وهي كما نرى بوضوح نفسية المستعمر المستوطن وقد تحكمت فيه عقدة الشعب المختار والمعاني العنصرية الناتجة عنها . ويتكرر الحديث في الاوساط الاسرائيلية والصهيونية عامة مناقشا كون اسرائيل استعمارا استيطانيا او معبرا عن هذه الحقيقة . ولعل من أهم الامثلة ما قاله دايان وهو يرثي صهيونا اسمه روتنبرغ قتل عام ٥٦ أثناء عدوان على العرب «نحن جيل المستوطنين بدون خوذة الفولاذ والمدفع لا نستطيع أن نغرس شجرة او نقيم بيتا ، علينا ألا نتراجع أمام العرب المحيطين بنا ، وعلينا ألا نتجنب النظر اليهم لكي لا تنزلق أيدينا عن الزناد. انه قدر جيلنا واختيارنا الوحيد » . ونجد مثل هذه الاشارة عن الاستيطان في أحاديث كثير من قادة الصهيونية ، كما نجدها تتضمن تشبيههم الغزاة الاول بالرواد في امريكا . وقد كررت جولدا مائير في أحاديثها للامريكيين تشبيه العرب بالهنود الحمر ، وهي تصور الغزاة الصهاينة روادا »[1] .

ونلاحظ ان العدو الصهيوني وهو يبحث في مستقبل الصراع حريص

---

(١) عرضنا نماذج كثيرة من هذه الاقوال في كتابنا « من المقاومة الى الثورة الشعبية ».

على استحضار تاريخ الحروب الصليبية وأمثولة الدولة الصليبية في فلسطين. والتداعي هنا دليل على حد ذاته بالشعور الصهيوني بالعدوان والغزو والاستعمار الاستيطاني لاراضي عربية. ولقد أعطى اوري افنيري اهتماما خاصا في كتابه « اسرائيل بلا صهاينة » ؛ وفي مقالاته عموما لدراسة أوجه الشبه بين الغزوتين والدولتين وحاول الرد عليها ضمن محاولات الاحتواء . كما منحت جائزة ليشوع برافر أحد خبراء تاريخ الصليبيين عام ١٩٦٩ لانه « أثبت » ان السابقة الصليبية لن تتكرر مع اسرائيل[1] . ولسنا هنا في مجال اجراء هذه المقارنة ؛ وحين نفعل فاننا لا ننطلق من التسليم بحتميتها لاننا كدارسي تاريخ نعرف « ان التاريخ لا يعيد نفسه » ؛ وان كنا نتفق مع شارل عيساوي فيما توصل اليه في دراسته من أن التشابه القائم بين الغزوتين والبالغ حد الاعجاز حتى في التفاصيل الدقيقة «ليس وليد الصدفة بل ناتج عن تشابه المعطيات والظروف بين الدولتين .. والعوامل الاساسية والتي سادت اوضاع الدولة الصليبية لم تتبدل اليوم . العامل الجغرافي .. والعامل الجغرافي البشري ... والمؤثران الثقافيان الاسلام والقدس»[2].

وتتكرر في الدراسات العالمية حول مستقبل الصراع العربي الاسرائيلي الاشارة الى الغزو الصليبي . وغالبية هذه الدراسات تنحو منحى «توينبي» في القول أن هذا الصراع قد يطول عشرات السنين ولكن اليهود سيضطرون في النهاية الى الخروج من فلسطين ، وهو ما ردده المؤرخ الكبير في عدة مناسبات . ونلاحظ أن الدراسات الاستراتيجية الغربية تتنبأ مثل جولدمان بأن الزمن لا يعمل لصالح اسرائيل التي ــ على حد قول أحد الخبراء الامريكيين في الاستراتيجية قبل حرب رمضان ــ ، « قد تظل

---

(١) انظر مقال « مشكلة اسرائيل بين أمثولة التاريخ وبرامج البقاء » لانطوان بطرس مجلة شؤون فلسطين ــ يونيو سنة ١٩٧٣ .

(٢) انظر المقال السابق الذكر ودراسة شارل عيساوي في مجلة « فورين أفيرز » . تموز ١٩٥٧ .

متفوقة ربع قرن آخر ولكن المنطق وقانون المعدلات يوحي بأن اسرائيل الصغيرة المحاطة بكتلة بشرية هائلة من العرب ستفقد في وقت ما تفوقها » .
ويصف الخبير الاستراتيجي جيفري كيمب، وهو يدرس تسلح اسرائيل « الافكار الاستراتيجية الاسرائيلية بعدم التناسق ، وبأن اسرائيل حالة قائمة بذاتها ولا يناسبها النصر الذي يكلف الكثير .. لان هذا الكثير قد يؤدي الى تقويض دعائم أمن الدولة الاسرائيلية في المستقبل »[1] . ويرى بالدوين صاحب « استراتيجية للغد » : « ان المشكلة الاساسية لاسرائيل ليست مشكلة عاجلة ، ولكنها طويلة المدى » ، ويستشهد بما كتبه هنتر عن هذه المشكلة: «تواجه اسرائيل كل مشكلات المجتمع المتعدد الاجناس الذي فيه الاقلية عدوة تمدها بالحياة عناصر قوية خارج حدودها تربطها بها روابط الاصل والدم » . ويصل الى أن اسرائيل « لا يمكنها البقاء لمدة طويلة وسط بحر من العرب »[2] .

تلك هي رؤية مستقبل الصراع الذي ينشغل به العدو ويحاول احتواءه، وهكذا نجد ان استحضارنا لتاريخ الصراع في شتى أبعاده واستشفافنا مستقبله أوصلنا الى تحديد موقع ومكان حرب رمضان من الصراع واعتبارها بداية النهاية في الوجود الصهيوني الاستعماري في الوطن العربي بمفهوم استمرار النضال والفعل والتأثير والربط بين ما يتوقع وما يجب . وباعتبارها في الوقت نفسه بداية مرحلة جديدة في النضال العربي لتحقيق أهدافه ولقيام الامة العربية بدورها ورسالتها الحضارية في عالمنا المعاصر .

---

(١) انظر كتاب الصراع السوفياتي الامريكي في الشرق الاوسط ، اعداد هوروبتز ، دار الطليعة .
(٢) « استراتيجية للغد » ص ١٧٤ .

القِسمُ الثاني

حَديث المستقبَل

عودٌ للسّؤال

والآن .. ماذا بعد ٦ أكتوبر ـــ تشرين الاول ـــ من عام ١٩٧٣ في وطننا العربي ؟

نعود للسؤال الذي بدأنا به حديثنا بعد ان مهدنا للاجابة عليه بتقويم حرب رمضان ودراسة نتائجها الاولية وتحديد موقعها في حركة الصـــراع التاريخية . ولقد وصل بنا الحديث حتى الآن الى استجلاء جوانب كثيرة من صورة الصراع العربي الاسرائيلي في ماضيه وحاضره واصبح بامكاننا وقد حددنا مساره أن نأتي الى حديث مستقبله .

أول ما يعرض لنا في حديث المستقبل سؤال جذري يتعلق بتصـــور المدى الزمني لهذا المستقبل . والسؤال هو الى متى سيستمر هذا الصراع بعد حرب رمضان ؟

ونلاحظ ان صيغة السؤال جاءت تقريرية تقرر ان الصراع سيستمر . ذلك لان حديث الماضي والحاضر الذي سبق اوضح ان حـــرب رمضـــان ليست نهاية الصراع وانما هي بداية النهاية في صراع سيستمر . وهكذا فان الصراع لم ينته ، وعلينا ان نتصور مداه الزمني مستقبلا .

يمكننا في هذا المجال ان نبدأ من الاتفاق على حقيقة بسيطة تقول ان انتهاء صراع مايتحقق حين تزول مسبباته. ولقد تعرفنا على مسببات الصراع العربي الاسرائيلي وتطورها عبر مراحله المتصلة . وكان واضحا في كل هذه المراحل انه ناجم عن غزوة استعمار استيطاني اوروبي نظمتها الحركة الصهيونية لاغتصاب أراض عربية في فلسطين والاجزاء المجاورة لها ، واقامة دولة اسرائيلية عليها تجمع فيها يهود العالم ، بعد ان اصطنعت قومية لهم . وواضح اليوم وبعد حرب رمضان ان هذه المسببات لا تزال قائمة . فالحركة الصهيونية متشبثة بهدفها الصهيوني تمارس الاغتصاب والعدوان وتعمل على استمرار تهجير يهود العالم الى الاراضي العربية المحتلة ، والامةالعربية مصممة على مجابهة العدوان والدفاع عن نفسها ووطنها واسترجاع حقها وارجاع من تشرد من ابنائها الى أراضيهم .

علينا ان نتوقع اذن استمرار الصراع العربي الاسرائيلي لفترة قادمة ما دامت مسبباته قائمة . ويمكننا ان نتوقع أيضا من خلال معرفتنا لطبيعة الوجود الصهيوني باعتباره استعمارا استيطانيا وتعرفنا على مراحله ، الا تأتي نهايته فجأة وانما ستستغرق وقتا شأنها في ذلك شأن نهايات الاستعمار الاستيطاني التي عرفها تاريخ العالم . ووصولنا الى هذه النتيجة يفرض علينا الانشغال بحديث مستقبل الصراع .

طبيعي ان نبدأ حديث المستقبل من المعطيات الجديدة في الصراع التي طرحتها حرب رمضان ، والتي ـ كما سبق ان قلنا ـ شقت المجرى العريض للاحداث لفترة قادمة وحملت معها ما فاجأ كثيرين من أبناء امتنا . وواضح ان هناك محاولات نشطت منذ الحرب لبلوغ تسوية سلمية على مستوى الدبلوماسية الدولية، ومؤتمر جنيف تجسيد لها . فهل ستنجح هذه المحاولات في انهاء الصراع ؟ والى أين ستصل ؟

اننا حين توقعنا استمرار الصراع لفترة قادمة لم نكن غافلين عن هذه

المحاولات ولم نقصد ان نهملها . ولكننا رأيناهـا تتصدى لمبررات التوتر فيه أكثر من تصديها لمسببات الصراع ذاته . وتنشغل بتفرعات المشكلة أكثر مما تنشغل بأصولها . ونحن نعلم ان هذه المحاولات تتحرك ضمن حدود قراري مجلس الامن رقم ٢٤٢ ورقم ٣٣٨ اللذين صـاغتهما الدبلوماسية العالمية بعد حربي ١٩٦٧ و١٩٧٣ لتهدئة الاوضاع في منطقة حساسة من العالم ولتجنب مجابهة مبـاشرة بين الدولتين الكبيرتين . ونلاحظ ان هم السياسة الدولية كما تشكلت في اوروبا منذ عصر النهضة ينصرف دوما الى معالجة تفرعات المشاكل ومبررات توترها ، كما نلاحظ على أساليب تلـك السياسة غلبة منطق الامر الواقع والمساومات فيها على منطق الحق . وعلى هذا فمن المؤكد ان المحاولات الجارية لن تنجح في انهاء الصراع . ولكن هذا لا يعني انها لن تصل الى شيء ، اذ من الواضح ان حرب رمضان والمناخ الدولي المحيط يهيئان لها الوصول الى حل مرحلي ضمن حدود القرارين . الامر الذي قد يوصل الى تهدئة الصراع لفترة ولكنه يقينا لن يوصل لانهائه ما دامت المسببات قائمة لانها لا تلبث أن تتحرك من جديد .

ومما لا شك فيه ان مستقبل الصراع على المدى الاطول سيتأثر بما سيتم التوصل اليه بهذه المحاولات . وهذا يفرض علينا اهتماما خاصا بها ؛ فضلا عن أن الصورة الجديدة ستمس حياتنا في الصميم في المرحلة الراهنة. ومن هنا كان لزاما علينا أن نحدد مواقف واضحة مما هو مطروح حاليا ، ونناضل لتغليب هذه المواقف .

وحين نفكر في كيفية تحديد هذه المواقف نجد انه لا بد ان يكون تحديدها على ضوء تصورنا لمستقبل الصراع على المدى الاطول . وهنا تبدو جدلية الصلة بين ما يتم في هذه المرحلـة وبين مـا سيتحقق في النهاية . فتحديدنا لهدفنا في هذه المرحلة من الصراع انما يكون على ضوء وعينـا للهدف الاخير الذي ندرك ان بلوغه لا يتم مرة واحدة ، وهكذا يكون لكل مرحلة هدفها الذي لا يتناقض بل ينسجم مع الهدف الاصلي .

ان رؤيتنا لما سيتم التوصل اليه وتصورنا لمستقبل الصراع على المدى الاطول يقتضي منا ان نتعرف على توجه العدو الاسرائيلي بعد حرب رمضان ونتعرف على توجه الامة العربية وعلى المناخ الدولي المحيط. اي ان نتتبع تطور صورة الصراع ونجيب على الاسئلة التي سبق ان طرحناها واجلنا الاجابة عليها .

الفصل الاول

الصراع العربي الاسرائيلي في عالم الغد

في حديث المستقبل نرى ان من الانسب البـدء بالتعرف على المنـاخ الدولي الذي سيحيط بالصراع ويؤثر على حركته وذلك حرصا منا على توفير النظرة الشاملة التي يتطلبها حديث المستقبل. وادراكـا منـا لاهمية البعد الدولي في التأثير على الصراعات في عالم اليوم «الصغير الموحد» ووعيامنا لحاجتنا الى «العقلية العالمية الرحبة» التي تكسر حواجز «العقلية المحليـة الضيقة» لتحقيق الانتصار في مجابهتنا للتحديات المحيطة بنا. ولقد كان من الجديد الهام في حرب رمضان ــ كما راينا ــ بروز ملامح العقلية العالميـة الرحبة في القيادات العربية. كما كان من نتائجها الهامة دخولنا العصر بقوة اكبر واستخدامنا اللغة الجديدة التي يفهمها.

ان التعرف على المناخ الدولي يقتضي ان نكون فكرة عن عالم الغـد الذي هو امتداد لعالم اليوم. وهذه الفكرة ضرورية جدا في الدراسـات المستقبلية، وهي ايضا اساسية في بناء العقلية العلمية الجديدة للانسـان العربي. وكما اوضح الدكتور قسطنطين زريق وهو يتحدث عن مشكلات عصرنا فاننا بهذه العقلية «نستطيع ان نجابه هذه المشـكلات ونفوز فـي مصارع الحياة المقبلة» وقد حدد لها صفات تتصف بها ونهج تسير عليه،

اولى هذه الصفات الريادة واستطلاع «فنحن لانستطيع بناء عالم الغد اذالم نحسن تصوره ولم ندرك كنهه ... ولانحسن البناء لعالم عام ١٩٨٠ اولعام ٢٠٠٠... الااذا كان قادتنا او بعض قادتناعلى الاقل، يفكرون تفكير ذلك الزمان، ويتكلمون لغته، ويعيشون تحت وطأته». والصفة الثانيةهي عالمية نطاق هذه العقلية «فكما ينبغي ان تمتد زمنا الى الامام ما وسعها الامتداد. كذلك يجب ان تتسع لتشمل العالم البشري بكامله. فالثورات العلمية والصناعية المتتابعة وسواها من التفجرات التي تجتاحنا قد صغرت عالمنا، وقربت ابعاده وربطت بين اجزائه ووحدت مصيره». والصفة الثالثة هي المرونة التي ترفض ان يسير الفكر الانساني في بحار ثابتة وان يتخذ لنفسه قوالب جامدة ـ وذلك من اسهل الاشياء عليه، «وتتمسك بالعلم وانطلاقه المستمر الذي يأبى ان ينحصر في قيد اوقالب». وتعني نشدان الحق اينما وجد والاستعداد للاعتراف به وقبول نتائجه ومتضمناته مهما اختلفت عما تعوده المرء اوجرى عليه. والصفة الرابعة هي تقدير اهمية الانتاج والادخار والقدرة عليهما. وهذه الصفات جميعها تطبع العقلية الجديدة بالطابع العلمي الذي يزاوج يقظة العقل بيقظة الضمير.[1] ولقد حرصنا على اثبات هذه الصفات لاننا بتوافرها نستطيع ان نكون فكرة صحيحة عن عالم الغد. ونلاحظ ان هذه الصفات مجتمعة تجعل للعقلية العلمية الجديدة للانسان العربي خاصية القدرة على الحلم.

ويهمنا ان نبرز هذه الخاصية ونؤكد على اهميتها، لاننا فيما نرى لانستطيع الخوض في حديث المستقبل بدون وجودها. فبهذا الوجود يحقق الانسان ذاته ويصبح بحق انسانا مستقبليا. وكما نشير ونحن ندرس التاريخ الى قدرة الانسان على التذكر فاننا نشير ونحن نتحدث في المستقبل الى قدرته على الحلم. وبهاتين الخاصتين وغيرهما تميز الانسان الذي كرمه

---

(١) قسطنطين زريق ـ هذا العصر المتفجر دار العلم للملايين ص ١٩ وما بعد ـ

الله على غيره من المخلوقات. ولقد أدت خاصية القدرة على الحلم دوراكبيرا في تحقيق التقدم وبناء الحضارات وكان الحالمون في شتى مجالات الحياة مصابيح اضاءت طريق المستقبل. ويمكننا هنا ان نضيف لما وصفنا به المناضل السياسي الفاعل المؤثر في بداية حديثنا بانه أيضا موقف الحالم الذي يستمد من قدرته على الحلم قوة اكبر على الفعل والتأثير.

وهكذا فاننا حين ننظر في مكونات التفكير المستقبلي نجده يجمع بين وعي عبر الماضي وسنن الكون وحركة التاريخ مع ادراك حقائق الواقع مع تصور احلام المستقبل .وبالطبع فان هذه الاحلام تقوم على ريادة الافاق واستطلاع المجهول باعمال الفكر واطلاق الخيال.

قلنا ان عالم الغد هو امتداد لعالمنا المعاصر.. عالم اليوم الذي اصطلح على ان تكون بدايته هي تفجير القنبلة الذرية الاميريكية على مدينة هيروشيما اليابانية في نهاية الحرب العالمية الثانية. وقد تحقق فيه انتقال البشرية الى عصر جديد من عصور تاريخها هو العصر الذري. وتميز هذا العصر «بانطلاق الطاقات في عالمنا وتفجر الحياة البشرية المعاصرة في شتى الجوانب ومختلف الميادين». وكان ابرز هذه المتفجرات تفجر العلم والمعرفة ضمن الثورة العلمية الثانية التي امتازت بالشمول وعمق فعلها النظري وسعة فعلها التطبيقي وتزايد سرعتها، وتفجر السكان الذي بلغ حدا لم يسبق له في التاريخ مثيل، وتفجر الحاجات والامال الوثيق الصلة بتفجر العلم. وهكذا احتدم في عالمنا المعاصر انقلابان حافلان هما ثورة التحرير التي كانت احدى صور تفجر الحاجات والامال والتي ثورت المناخ السياسي في العالم والانقلاب النووي الذي قلب قوانين الاستراتيجية الكونية رأسا على عقب. ولقد أثار هذا التفجر الهائل مشكلات عديدة لكل شعب من الشعوب وللانسانية جمعاء لازال الانشغال بها قائما . ولسنا هنا في مجال تفصيل الحديث عن هذه المشكلات وما طرح لها من حلول، ولا في مجال الحديث التفصيلي عن عالم الغد، وانما هدفنا ان نكون الفكرة الواضحة عن هذا

العالم من خلال الحديث الموجز. بما يمكننا من متابعة موضوع هذه الدراسة.(١)

من المتوقع ان يرث عالم الغد من عالمنا المعاصر مشكلاته التي لم يتم التوصل الى حلول كلية لها ما دام هو استمرار له. وانسان الغد حين يتصدى لهذه المشكلات لايبدأ من فراغ وانما يتابع محاولات الحلول التي جهد انسان عالم اليوم في طرحها، مستفيدا من حصيلة التجربة وما وصلت اليه المحاولات. وهكذافان «المعاصرة» شرط لازم «للمستقبلية» والتعبير عنها لابد ان يكون باللغة الجديدة.

تأتي في مقدمة المشكلات الموروثة التي ستشغل انسان عالم الغد مشكلة «ازمة القيم»في عالمنا، فهذه المشكلة تلقي بظلها الثقيل على جميع المشكلات الاخرى وتؤثر على محاولات ايجاد حلول لها. وهي تهدد وجود ومصير انسان عالم الغد وتمزق نفسه وتؤرق روحه وترهق فكره، بعد ان اكتوى الانسان المعاصر بنارها وعانى اشد المعاناة من نتائجها وويلاتها. ويكفي ان نشير الى نتائجها التي ظهرت في هذا القرن.. حروب محدودة عدة وحربان عالميتان، وشبح الفناء بالسلاح النووي في الافق لايكاد يغيب ويشتد وطؤه بين حين واخر مع ازدياد التوتر، ومجاعات وقحط ومسغبة ومرض وجهل يطحن ملايين البشر على الرغم من كل التقدم الذي حققه الانسان، واستغلال وتسلط وعنصرية وفوارق ضخمة بين سكان كوكبنا الارض، واخبار ذلك كله تصل الانسان المعاصر من مختلف انحاء عالمنا الصغير الموحد وتضغط بثقلها عليه اذن لم يعشها بنفسه.

---

(١) فصلنا الحديث عن عالم اليوم في كتابنا « عبد الناصر والثورة العربية » فصل بلورة فكرة العالم الثالث . كما ننصح بالرجوع الى قسطنطين زريق في « هذا العصر المتفجر » وجمال حمدان في «استراتيجية الاستعمار والتحرير» فصل عالمنا المعاصر ومالك بن نبي في «فكرة الافريقية الاسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ » للاستزادة .

تجلت ازمة القيم هذه في سيطرة منطق «القوة الغاشمة والمصلحة» على الحضارة الغربية الحديثة التي فرضته بدورها على العالم أجمع بعد ان تسلطت عليه. وقد جسدتها الانظمة الاخلاقية والاجتماعية والسياسية التي ظهرت في هذه الحضارة. وحكمت بها علاقات شعوب الغرب بعضهم ببعض وعلاقاتهم مجتمعين بأمم العالم الاخرى، واشتد خطر ازمة القيم هذه مع ما حققته الحضارة الغربية الحديثة من تقدم علمي مادي قام على بعض القيم السلبية. فقدم لمنطق القوة الغاشمة والمصلحة ما يسكنه من التحكم. وكانت نتيجة ذلك وبالا على الغرب نفسه وعلى العالم في وقت واحد. وهكذا اقترنت الكشوفات الجغرافية والثورة الصناعية بالاستعمار وويلاته : ومن ثم بالتنافس الاستعماري. واوصلت الى نشوب عدد من الحروب التي تضاعفت ويلاتها مرات بفعل التقدم حتى بلغت ذروتها في عالمنا المعاصر. ونجمت عن ذلك كله مشكلات كثيرة.

وقد الحت هذه المشكلات على الغرب في القرن العشرين. فجدت دوله في محاولة ايجاد حلول لها وتابعت محاولات اوروبية سابقة بلورت فكرة التوازن الدولي وفكرة الحكومة العالمية وفكرة حل المشكلات بالطرق السلمية. ونلاحظ ان هذه الافكار تصدت للمشكلات العارضة ولم نلتفت في اغلب الاحيان للمشكلة الاصل وهكذا جسدت هي نفسها ازمة القيم؛ كما اقتصرت على اوروبا ضمن حدود الجغرافيا والحضارة. فمفهوم التوازن الدولي كان على عكس ما يوحي به الاسم مقتصرا على التوازن بين دول اوروبا الكبرى، وبقي كذلك طوال القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين حين فرض مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥ تغيرا فيه. ولايزال الغرب في عالمنا المعاصر متأثرا بالمفهوم الاصلي وسيبقى كذلك في عالم الغد الى حد معين بسبب الميراث الحضاري على الرغم من تجاوز حدود الجغرافيا . وما قلنا عن التوازن الدولي يصدق على مفهوم الحكومة العالمية ومحاولات ايجادها منذ مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ اثر هزيمة بونابرت الى عصبة الامم عام

١٩١٩ اثر انتهاء الحرب العالمية الاولى. فالحكومة العالمية هنا تشمل اوروبا القرن التاسع عشر ويضاف اليها الولايات المتحدة في القرن العشرين وانشغالها في الحفاظ على الاوضاع الراهنة التي تعبر عن مصالح الدول الكبرى والتفاهم على استغلال الاخرين تجنبا لنشوب حروب بين هذه الدول بسبب تنافسها، وابطالها رجال مثل مترنيخ والقيصر اسكندر ولويد جورج وويلسون. وعلى الرغم من فشل عصبة الامم مع بداية الحرب العالمية الثانية فان المحاولة الجديدة التي ظهرت في اعقاب هذه الحرب وهي تجربة الامم المتحدة تأثرت الى حد كبير بهذا المفهوم وان كانت متغيرات العصر الذري وتفجراته قد فرضت عليه تغييرا محدودا.[1] وهكذا سيبقى الغرب في عالم الغد متأثرا الى حد معين بهذا المفهوم الذي يعاني من ازمة القيم.[2] وسيتوقف هذا الحد ايضا على جهود العالم في طرح القيم الجديدة وتبنيها.

ان المتأمل في تاريخ العالم الحديث المعاصر ليقف امام دورة هذه المحاولات التي ظهرت في الغرب لحل المشكلات الدولية. ويلفت نظره ان تفاقم المشكلات كان يفرض استمرار المحاولات التي تظهر بدورها مشكلات جديدة لانها ركزت على معالجة الاعراض بمنطق القوة الغاشمة والمصلحة. كما يلفت نظره ان التقدم العلمي الذي تحقق طرح معطيات جديدة عارضت بشدة المفاهيم الغربية الدولية ففرض اعادة النظر. وكما يقول مالك بن نبي في فكرة الافريقية الاسيوية «فقد سيطرت على الحياة الدولية ــ بكل اسف ــ ارادة القوة التي لاتفارق حضارة القرن العشرين، فهي قانون للنفسية

---

(١) براجع جرانت وتمبرلي « تاريخ اوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ». وعشر من تاريخ اوروبا الحديث ، ورونوفن في تاريخ القرن العشرين لمزيد من تتبع هذه الافكار والمفاهيم في السياسة الاوربية » :

(٢) أمر مخرج فيلم « قضية ماتيه » الذي يحكي قصة جهود الايطالي ماتيه للتقدم باقتصاد ايطاليا بعد الحرب العالمية الثانية هذه المفاهيم . وقد حكى ماتيه في بداية الفيلم قصة الكلاب الضخمة التي تأكل على مائدة شهية بينما تقف قطة هزيلة جائعة على بعد ولا تسمح لها الكلاب الضخمة بالاقتراب . ممثلا الدول الاوروبية الكبرى وموقفها من ايطاليا .

الغربية قانون يسجل التأخر الخلقي لانسان الغرب حتى كأنه يعيش في القرن التاسع عشر. ويشير مالك الى محاولات الدول الكبرى لتعطيل حركة التاريخ حين تفرض المعطيات الجديدة اعادة النظر ولكن كلما زاد تعطل التاريخ تراكمت الاحداث المتخلفة عن الفيتوالاستعماري خلف السد الذي يريدون به ايقاف اطرادة..» ولما كان التاريخ لايمكن تعطيله فان هذا التراكم يضطر الذين حاولوا التعطيل ان يعيدوا النظروالاحدث الانفجار الذي يودي بالانسانية جمعاء.ويهمنا كثيرا ان نلاحظ جدلية الصراع فيذلك كله. فمنطق الاستعمار يفرض التحدي الحضاري على المستعمرات فتحدث الاستجابة وتضيق الهوة الحضارية فيؤدي ذلك الى تفجير ثورة التحرير. كما يهمنا ان نلاحظ بروز معنى الاضطرار في احاديث مفكري الغرب وقادته السياسيين عند دعوتهم لاعادة النظر ومن امثلة ذلك ما قاله كيندي في الامم المتحدة في عام ١٩٦٣ «اننا نملك القدرة لجعل هذا الجيل البشري افضل الاجيال في تاريخ العالم، أوآخر هذه الاجيال» فخطر الفناء البشري يفرض بذل الجهد لحل المشكلات. كما فرض الانتباه الى مشكلة ازمةالقيم والانشغال بها، واوصل الى ظهور بدايات يقظة في الضمير الغربي الذي يرزح تحت ثقل مسئوليته.

وهكذا نجد ان محاولات الغرب حل مشكلاته وصلت في عالمنا المعاصر الى تحول هام وانعطاف خطير. فقد انتبه الغرب الى المشكلة الاصل ..مشكلة ازمة القيم وبدأت اوروبا التي حكمت العالم وغيرته ــ كما يقول مالك بن نبي «تسيء الظن بنفسها» ومن خلال هذه الحقيقة الاولية تحددت في رأيه «مشكلة العالم الاخلاقية في السنوات المقبلة ــ فالضمير الاوروبي يرزح تحت ثقل مسئوليته، وقد بدأ يشعر بهذا الثقل بصورة محزنة، ولا شك في ان لماساة هذا الضمير دويها في مستقبل العلاقات الانسانية».

وقد توجس مالك بن نبي في دراسته القيمة من ان يؤثر الشعور بالاثم عند كبته على التوجه الاوربي لحل المشكلة فيدفع بــه الى حلول القوة ،

خصوصا مع توهم الشعوب الاوروبية بخطر موهوم أصفر كان اواسلاميا. ورأى انه لكي تحل هذه المشكلة « يجب ان نقضي على ذهان التأثم وذهان القوة اللذين تقترن اثارهما في الضمير الاوربي . وانعكاس الدفاع عن النفس هو ثمرة هذا التأثير . والمشكلة في صورتها العالمية تعني مساعدة الاوروبي على التغلب على أزمة ضميره». وتلك مهمة يمكن لفكرة الافريقية الاسيوية [1] وللعالم الثالث ان ينهض بها.

ان هذا التحول الهام في الحضارة الغربية الحديثة الذي شرحه مالك بن نبي في دراسته المستقبلية التي كتبها في اعقاب باندونج تزايد خلال العقدين الماضيين بفعل انتشار ثورة التحرير . وكما كان لثورة الجزائر أثرها الكبير على الضمير الفرنسي والاوربي في النصف الثاني من الخمسينات فقد كان لحرب فيتنام اثرها الكبير على الضمير الامريكي في النصف الثاني من الستينات . وتزايد هذا التحول ايضا بفعل استمرار الثورة العلمية واشتداد اخطار الاسلحة النووية . وبدأت أثاره في الظهور داخل المجتمعات الغربية نفسها وكان منها ثورة الشباب وحركات الرفض عامة . ولقد اعطينا الغرب اهتماما خاصا في الحديث عن ازمة القيم لان الحضارة الغربية حكمت العالم وغيرته ولا زالت مفاهيمها تؤثر عليه .

لناأن نتوقع ظهورهذه الاثار بوضوح أعظمفي عالمالغد الذيسيشتدفيه الصراع بين منطق الحق والعدل ومنطق القوة الغاشمة والمصلحة . وسيتوزع الانسان الغربي فيه بين المنطقين ويعاني ضميره من ثم من ذهان الاثموذهان القوة . ونتوقع ان يتوى تأثير منطق الحق والعدل وما يتصل به من معان انسانية في عالم الغد خصوصا اذا قام العالم الثالث بدوره كاملا لان تلك هي حركة التاريخ . وهكذا يكون لهذه المعاني الانسانية اثرها في احداث المستقبل وسيحسب بالتالي حسابها . كما ستظهر اللغة الجديدة التي تعبر عن هذه المعاني الانسانية وعن منطق الحق والعدل . وستتصارع مع اللغة

(١) مالك بن نبي . فكرة الافريقية الاسيوية فصل اوربا وفكرة الافروسيوية .

القديمة التي تعبر عن منطق القوة الغاشمة والمصلحة والتي لانتوقع ان تختفي بسرعة. ولكننا نتوقع ان يصبح الانسان في عالم الغد اكثر تهيؤا لقبول قيم جديدة لعالمنا تقوم على اساس « الضمير والبقاء » بدلا من « القوة الغاشمة والمصلحة» . وان يصبح المناخ الاوروبي أكثر التفاتا لمشكلات الشعوب ويزداد تأثره بهذه القيم الجديدة التي تؤمن بالانسان خليفة الله في الارض وبثورة التحرير روح العصر وباطلاق طاقات الانسان وتحريرها من كل قيد وعبودية وبقية الحياة الانسانية. ولن يجد اولئك الذين يتشبثون بالقيم القديمة وباللغة القديمة مكانا لهم في عالم الغد ؛ فحتى اولئك الذين يسيطر عليهم منطق « القوة الغاشمة والمصلحة » سيحاولون فرض منطقهم باحتواء القيم الجديدة وطرحه باللغة الجديدة ؛ وهي محاولة لم يكونوا بحاجة اليها في عالم القرن التاسع عشر . ويحضرنا مثل على ذلك ما فعله هانسون بالدوين صاحب كتاب « استراتيجية الغد » حين استهل كتابه ؛ الذي يعالج الاستراتيجية والحرب لعقدين قادمين من وجهة نظر اميريكية . بفصل عن الانسان والقوة اعترف فيه بالقيم الجديدة التي تسيطر على افراد مجتمعه . ثم حاول اثبات ان الحرب سوف تستمر ومن ثم فلا مفر من البحث فيها[1]. كل ذلك من اجل التمهيد لبحثه في الحرب والسلاح .

ذلك هو الجو النفسي الذي سيخيم على عالم الغد بفعل محاولات حل مشكلة ازمة القيم وقد بدأنا بالحديث عنه لانهُ ، وهو يحيط بالعالم وبمشكلاته، سيفرض طابعه على العالم ومشكلاته. وسيلاحظ اطرف الصراع العالمية ذلك وهم يخوضون معاركهم .

ونأتي بعد هذا الحديث عن الجو النفسي الى رؤية صورة عالم الغد

---

(١) استراتيجية الغد ـ الاستراتيجبة الامريكية حتى سنة ٢٠٠٠ تاليف هانسون بالدوين ترجمة د. محمود بنونة . ونلاحظ على هذا الكتاب وامثاله من كتب الاستراتيجية الدولية سيطرة الشك في تصور المشكلات وبروز ازمة القيم في معالجتها .

والتعرف على تقسيماته وعلى مشكلاته وتوقع اتجاهات الحلول التي ستطرح لها ، فنستكمل فكرتنا الموجزة عن مسرح الاحداث العالمي في الفترة القادمة .

لقد تغيرت صورة العالم بفعل الاحداث التي شهدها عصرنا فتغيرت الصورة بفعل الحرب العالمية الثانية وبرزت الكتلتان الشرقية والغربية ضمن الحضارة الغربية الواحدة.. وتزعم الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة هاتين الكتلتين . وتغيرت الصورة بفعل ثورة التحرير العالمية فبرزت مجموعة العالم الثالث في اسيا وافريقيا . وبدا بوضوح انقسام العالم حضاريا الى مستويين . مستوى الدول المتقدمة ومستوى الدول المتخلفة النامية وهو انقسام رسمت خطوطه الثورة العلمية . وتغيرت صورة العالم بفعل الانقلاب النووي احد آثار الثورة العلمية فحدثت انقسامات في كل من الكتلتين عبرت عن نفسها عقيديا « ايديولوجيا » فبرزت الصين في المعسكر الشرقي وبدت بوضوح اسيويتها . وبرزت فرنسا في المعسكر الغربي واعلنت اوربيتها ، وبدأت تبني مع دول اوربية اخرى اوربا الجديدة . وبرزت الى جانب تلك عقيدة ثورات العالم الثالث التي اعطت مثلا لها الثورة العربية فطرحت فكرة الحياد الايجابي وعدم الانحياز وتحرير الشعوب والسلام القائم على العدل والتعايش الدولي من اجل الرخاء .

وهكذا لم يعد يحكم عالمنا المعاصر تقسيم واحد سياسيا كان او عقيديا او حضاريا وانما تحكمه تقسيمات عدة تتداخل خطوطها احيانا . وستبدو هذه التقسيمات بشكل اوضح في عالم الغد مع ما نضج من تغيرات في العلاقات بين كتله ومجموعاته ، ومع ما وصلت اليه محاولات حل مشكلاته ولنا ان نتوقع استمرار المتغيرات ما دامت الثورة العلمية مستمرة ومثلها محاولات حل المشكلات . وما يهمنا كثيرا هنا ان نعرف اتجاهات التغيير .

ان استمرار الثورة العلمية في ابعادها الثلاث ، تقصير المسافات في كوكبنا واكتشاف اعماق بحاره واختراق الفضاء المحيطة به ، سيوصل الى

مزيد من ترابط شعوب العالم وتبادل الافكار بينهم وسيوصل بالتالي الى عالمية المشكلات والى احساس بالوحدة في مواجهة المشكلات العامة من اجل مجابهة تحديات الكشوفات الجديدة . وهذا الاحساس العام بالوحدة لايعني الغاء تمايز شعوب العالم لان ثورة المواصلات وترابط وبالتالي تبادل الافكار بينها ستبرز بقوة الشخصية القوميــة المتميزة الى جـانب الاحساس العام بالوحدة الانسانية . اي انه احساس بالوحدة من خـلال التنوع .

واستمرار الثورة العلمية وما يعنيه ذلك من تطوير الاسلحة النووية والاسلحة الفتاكة عموما ، وما يؤدي اليه ذلك من بروز شبح الفناء وتسلط خطر الحرب النووية التـي لا تبقي ولا تذر ، سيفرض فـي عالم الغد ــ استمرارا لما حدث في عالمنا المعاصر ــ تراجع فكرة الحرب العالمية وتزايد قوة الردع النووي وحصر المشكلات العالمية والاقليمية ومحاولة التفاهـم عليها والوصول الى حلول لها تبعد اخطار التوتر على الاقـل . ومعلوم ان الانقلاب النووي فرض نوعا من التوازن الاستراتيجي . وقد دخل هـذا التوازن في السبعينات مرحلة جديدة بعد ان مر بثلاثة مراحل منذ الحرب العالمية الثانية . فبعد الحرب كان التوازن مختلا مع انفراد الولايات المتحدة بالسلاح النووي فبرزت سياسة حافة الحرب وفكرة الحرب الصليبية على الشيوعية في الغرب وبالمقابل كانت فكرة الثورة الشيوعية تسيطر عـلى الاتحاد السوفيتي . وفي الخمسينات ومع امتلاك الاتحاد السوفيتي للسلاح النووي تحقق التوازن في ظـل المخاوف المتبادلـة فسادت سياسة الردع الشامل بين المعسكرين . ومع تطور السلاح النووي في الستينات فضلا عن تغيرات اخرى أخذ التوازن صورة أكثر دقة واوصل الى سياسة التعايش السلمي بحكم « ميزان الرعب النووي » وهكذا تراجعت الحرب الذريـة الشاملة لتترك الباب مفتوحا للحرب المحدودة وتقاربت الدولتان الكبيرتان تدريجيا ، وحدث في داخل كل من الكتلتين تفكك وتباعد . واوصل ذلك

كله ان المرحلة الجديدة الرابعة التي بدأت بدخول السبعينات وتضافرت فيها الجهود لتحقيق توازن مستقر من خلال سياسة التفاهم بين الدولتين الكبيرتين . ومن خلال قبول الولايات المتحدة للمتغيرات الاساسية في الصورة الدولية ، واعترافها بوجود الصين الشعبية .

ونلاحظ ان بدايات التفاهم الاميركي السوفيتي التي شهدها اجتماع جلاسبورو في اعقاب حرب ٦٧ بين كوسيجن وجونسون سرعان ما نمت ونضجت في اجتماع موسكو عام ١٩٧٢ بين نيكسون وبريجينيف واخذت صورة اجتماعات دورية فضلا عن اتفاقيات في شتى المجالات ، الامر الذي يشير الى ان سياسة التفاهم من الممكن ان تبلغ في تطورها سياسة وفاق . وواضح ان هذا التطور يعبر عن استجابة لتحدي الخطر النووي ويؤكد ما قلناه بان عالم الغد لا يمكن ان يحكمه مقياس واحد بل مقاييس عدة . ولنا ان نتوقع مع هذا التطور اختلاف مواقف الدولتين من المشكلات الاقليمية عما كان عليه قبل عقدين من السنين.

بالطبع سوف تستمر هذه المشكلات ما دامت السياسة الدولية بأزمة قيمها لم تقدم الحلول الناجحة لها ، وسيرثها عالم الغد ولا بد ان ينشغل بحلها . وفي مقدمة هذه المشكلات الاقليمية تحرير فلسطين او مشكلة الصراع العربي الاسرائيلي ومنها توحيد المانيا المقسمة وتوحيد كوريا المقسمة وتوحيد فيتنام المقسمة. وليس لنا ان نتشاءم ازاء احتمالات حل هذه المشكلات بسبب سياسة التفاهم . بل اننا على العكس من ذلك نرى ان التفاهم الدولي يهيىء مناخا افضل لتقديم الحلول الصحيحة ، ولكن باساليب جديدة تتفق مع روح عالم الغد وقيمه ولغته . ويمكننا ان نلاحظ ان السياسة الدولية في نهاية الحرب العالمية الثانية بتعبيرها عن مفاهيم الغرب والحضارة الغربية ووقوعها تحت سيطرة منطق القوة الغاشمة والمصالح قد عمدت في يالتا وبوتسدام الى مشرط حاد قسمت فيه ما لا يقسم مستسلمة

لفكرة التقسيم لحل المشكلات الاقليمية [1]. وثبت من تجربة ثلاثة عقود من السنين فشل هذه الفكرة وتأكدت حقيقة الوجود القومي التي لا تنال منها الخلافات العقيدية والتي تزداد تألقا وقوة في تجارب الاستعمار الاستيطاني حتى تنهي هذا الاستعمار الذي ترفضه روح العصر وتأباه القيم الجديدة . وهكذا اوصلت التجربة الى ضرورة الاستجابة لفكرة التوحيد كحل للمشكلات الاقليمية وبغية اعادة الامور الى نصابها . وشهد انسان السبعينات لقاء المانيا الشرقية والمانيا الغربية ودخولهما المنظمة الدولية . وبداية المباحثات بين كوريا الشمالية والجنوبية . وابرام اتفاقيات باريس للسلام في فيتنام ، وهي امور لم تكن تخطر على بال الكثير في الخمسينات .

لنا أن نتوقع على ضوء ما سبق ان تبرز فكرة التوحيد في المحيط الدولي عند البحث عن حلول لقضية فلسطين . وسيكون ذلك تكرارا لخطأ حدث من قبل نتيجة التصور الدولي المغلوط للمشكلة . فقد شملت فكرة التقسيم فلسطين مع ان مشكلتها كانت تختلف اختلافا جذريا عن المشكلات التي طرح التقسيم حلا لها. فبينما كانت هذه المشكلات تقوم على نزاع عقيدي في اطار وجود قومي واحد كانت مشكلة فلسطين قائمة بسبب الاستعمار الاستيطاني الصهيوني . واذا كانت فكرة التوحيد تساهم في حل تلك المشكلات التي برزت في قومية واحدة فانها لن تجدي في مشكلة فلسطين التي تصارع فيها قومية واحدة غزاة مستعمرين مستوطنين من قوميات مختلفة ، الا اذا قامت على أساس الوجود القومي الواحد وسيادة الديمقراطية ونزوح الغزاة.

وعلى اية حال فان بروز فكرة التوحيد في حل المشكلات الاقليمية وتراجع الحرب العالمية لن يعني انهاء الحرب من عالم الغد لان وجود المشكلات من جهة والتوزع بين القيم القديمة والقيم الجديدة في النظر اليها سيبقى باب الحروب مفتوحا .. ولكنها ستكون حروبا محدودة

---

(1) يراجع كتاب التاريخ الدبلوماسي لدروزيل ترجمة نور الدين حاطوم لمزيد من المعلومات عن مؤتمري يالتا وبوتسدام عام ١٩٤٥ .

وستعكس صورة الصراع بين القيم . وستشتد على الخصوص في عالم الغد المشكلات العنصرية ، كما ستلح مشكلة الفوارق بين الدول الغنية والدول الفقيرة ، وخصوصا مع الحاح الانفجار السكاني الذي جعلته ازمة القيم مشكلة بينما يمكن للانسان ان يستثمره في ظل قيم جديدة تستغل الطاقات البشرية في تعمير الصحاري واكتشاف اعماق البحار واجواء الفضاء . ونتوقع ان تخف حدة صراع العقائد المتعارضة في عالم الغد وسيزداد البحث عن نقاط اللقاء بينها . وليس مجال هذا الحديث الموجز تفصيل هذه النقاط التي اثبتناها لتكون فكرة واضحة عن عالم الغد والمناخ الدولي فيه تساعدنا على دراسة موضوعنا . ويبقى ان نشير ضمن هذا الحديث الموجز الى ان احلام الانسان في عالم الغد ستؤكد على التآخي الانساني ونبذ العنصرية والتحرير والسلام القائم على العدل والتعاون الدولي من اجل الرخاء وستجد في البحث عن نظام عالمي افضل يحقق الوحدة من خلال التنوع ، ويمكن من بلوغ تلك الاهداف ويطور تجربة الامم المتحدة .

ونتساءل على ضوء هذه الفكرة الموجزة عن عالم الغد عما ستكون عليه مواقف الكتل والمجموعات الدولية من مشكلة فلسطين والصراع العربي الاسرائيلي في المرحلة القادمة .

نبدأ بالولايات المتحدة الاميركية آخذين بعين الاعتبار مكانها في عالم الغد الذي هو أستمرار لمكانها في عالمنا المعاصر وانشغالها الخاص بالصراع العربي الاسرائيلي وعلاقات اسرائيل الخاصة بها . ومعلوم ان من ابرز ظواهر عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية كان ظهور العملاق الامريكي الذي رآه توينبي وكأنه روما العصر، الذي جعل من نفسه رجل شرطةعالمي فانتهى به الامر الى أن يصبح دولة بوليسية ارهابية عظمى. ومعلوم ايضاان التحالف الامريكي الصهيوني اخذ شكلا خاصا وقامت السياسة الاميركية — كتعبير عنه — بدور خاص في قيام اسرائيل واستمرارها .

هل ستتغير السياسة الخارجية الاميركية في عالم الغد بما يعبر عن تغيير مفهوم العدو الامريكي العالمي ؟ وهـل ستتبدل اساليب السياسة الامريكية ؟ وآخيرا ــ وهذا ما نود الوصول اليه ــ هـل سيطرأ تغيير على العلاقة الخاصة بين امريكا واسرائيل وعلى التصور الامريكي لحل مشكلة فلسطين ؟

ستبقى الولايات المتحدة في عالم الغد عملاقا يمتلك أضخم وأقوى قاعدة اقتصادية وتكنولوجية في العالم ، ولكنه سيكون عملاقا يواجـه الضغوط في داخله ومن حوله . ولقد درس بالدوين في « استراتيجية الغد» هذه الضغوط بعد حرب فيتنام واشار الى ان مصادر امريكا المحدودة تواجه خلال السنين القادمة مطالب لاحدود لها . وما الحديث عن ازمة الطاقة في الولايات المتحدة والمبالغة فيه الا تعبـير عن القلق من هـذه الضغوط التي لم يعرفها المارد في شبابه الاول . ويقترن بهـذه الضغوط المادية ضغوط معنوية تتجت عن ممارسة الولايات المتحدة لدور الدولة الارهابية والاميركي القبيح في مواقع كثيرة من العالم . وقد تفجرت عـلى الخصوص في داخل المجتمع الاميركي خلال حرب فيتنام . ولكن على الرغم من هذه الضغوط فان مفاهيم السياسة الامريكية النابعة من منطق القـوة الغاشمة والمصلحة لم يطرأ عليها تغير يذكر ، وبقيت تجسد ازمة القيم في الحضارة الغربية ومن مظاهر ذلك توهم الاخطار والانسياق في صناعة الدمار ..

وهكذا لنا ان نتوقع توزع السياسة الخارجية الامريكية في عالم الغد بين استسلام المارد العملاق لغطرسة قوته وبين استجابته للضغوط في داخلـه ومن حوله . ولقد تصور بالدوين ان اعظم دور للسياسة الاميركية الخارجية ولسياسة أمنها واستراتيجيتها العليا هو مقابلة التحديات التي ستواجه امنها في السنين القادمة دون ان تتحول الى قلعة عسكرية او دولة قرصنة[1] .

---

(١) استراتيجية الغد ص ٦٨ ويراجع كتاب فولبرايت غطرسة القوة كما تشير الى كتاب امريكى صدر فى الخمسينات بعنوان « الاميركي القبيح » .

ومع ان هناك أصوات اميركية تدعو الى عزلة الولايات المتحدة من جديـد فانه من الواضح عدم واقعية هذه الدعوة في عالم الغد وستبقى الولايات المتحدة غارقة في المشاكل العالمية بحكم مصالحها .

ولنا ان نتوقع أيضا تراوح أساليب السياسة الاميركية بين أسـاليب التفاهم والتعاون الدولي وبين الاساليب التي تمارسها وكـالة المخـابرات الاميركية ووزارة الدفاع « البنتاجون » والتي ظهرت في انقلابات أفريقيا واميركا اللاتينية وفي حروب الهنـد الصينية . ونلاحظ ان صورا أفضل لاساليب التفاهم والتعاون العالمي ظهرت مؤخرا مع دخول المرحلة الرابعة من مراحل التوازن .

ولقد شغلت الولايات المتحدة الاميركية بقضية فلسطين بحكم مصالحها في منطقة الوطن العربي وبحكم تحالفها مع الصهيونية العالمية ووجود اكبر تجمع ليهود العالم فيها وعلاقتها الخاصة باسرائيل . وكانت سياستها بايجاز تعبيـرا عن الانحياز الكامل للعدو الصهيوني « حيث وضعت ثقلها كله ـ كما قال عبد الناصر لكنيدي عام ١٩٦١ ـ في غير جانب العـدل والقانون في القضية »[٢] . ونتج عن ذلك ما نتج من متاعب في المنطقـة . ويلح عـلى الولايات المتحدة اليوم أكثر من أي وقت مضى ايجاد حل لمتاعبها في المنطقة خصوصا وان سياستها فيها وصلت الى تهديد مصالحها والى تصعيد التوتر الدولي وانذرت باحتمال نشوب حرب عالمية شاملة اكثر من مرة . ويتضح لنا من سلوك الولايات المتحدة ومن كتابات خبراء السياسة الاميركية ان العقلية الامريكية تجد نفسها وهي تفكر في الوقت الراهن امام معضلـة التوفيق بين ما وضح لها من ان المصالح المتشابكة للولايات المتحـدة في المنطقة « توجد في الاراضي العربية والاسلامية وليست في اسرائيل » كما

---

(٢) يراجع ما كتبناه عن السياسة الاميركية تجاه قضية فلسطين والتصور الامريكي للحل في كتابنا « من المقاومة الى الثورة الشعبية » .

يقرر بالدوين : وبين الاستراتيجية الامريكية التي اتخذت من اسرائيل قاعدة أمريكية في المنطقة وضغوط التحالف الصهيوني الامريكي خصوصا في السياسة الداخلية : وعوامل أخرى تربط الولايات المتحدة باسرائيل . ويصف بالدوين هذه المعضلة بأنها « مشكلة مستعصية ان لم تنته أو تحل فانها ستؤدي الى كارثة ليس فقط لاسرائيل . ولكن للولايات المتحدة أيضا . »[1]

وهكذا تجد الولايات المتحدة نفسها ملزمة بمحاولة ايجاد حل لقضية فلسطين : فهناك كما يقول كامبل « أسباب وجيهة لبذل هذا الجهد . لان الاتفاق على تسوية سيقلل من الخطر على السلام ، وسيحد من الفرص التي استطاع السوفيت كسبها باستغلالهم الصراع العربي الاسرائيلي . وسيفتح الطريق لاستعادة علاقات طبيعية ومثمرة اكثر بين الولايات المتحدة والعالم، وسيرضي اسرائيل... »[2] ولكن هذا الحل الامريكي لايتصدى لاصل القضية ولا يستهدف انهاءها وانما يتصدى لمبررات التوتر فيها ويستهدف تخفيف التوتر في المنطقة . ويعبر بالدوين عن ذلك بقوله : « رغم انه لا يظهر في الافق حل لهذه المشكلة التي لن يستطيع حلها الا التاريخ ، يبدو من الضروري تخفيف التوتر في المنطقة اذا أردنا منع او تأخير وصول الشرارة الى مخزن البارود واذا أردنا وقف تردي موقف الولايات المتحدة في المنطقة ». ويصف كامبل هذا الحل الامريكي بأنه « حل وسط بين المطالب المتطرفة لكل من اسرائيل والدول العربية » » تجد الولايات المتحدة في البحث عنه لتمنع زوال نفوذها بين العرب ولتدفع عن نفسها تهمة التحيز الكلي لاسرائيل .

ان هذا الحل الوسط يتأثر بموقفي طرف الصراع ، ويتأثر فضلا عن

---

(١) استراتيجية للغد ص ١٦٩ .

(٢) الصراع السوفيتي الاميركي دراسة البحث الاميركي عن شركاء . لجون كامبل ص ٢٧٣ .

ذلك بالمناخ الدولي عامة والجو المحيط بالعلاقات الامريكية السوفيتية على الخصوص . وقد وضح لنا ان المناخ الدولي يشهد خلال هذه الفترة انفراجا عاما تبدو فيه السياسة الاميركية الخارجية التي يقودها كيسنجر نشطة في التصدي لحل جميع المشكلات الدولية المزمنة ، وتعيش فيه العلاقات الاميركية السوفيتية فترة تفاهم وقد تجاوزت الحرب الباردة وتطلعت الى بلوغ الوفاق . وتحاول الولايات المتحدة ان تلبي بعض متطلبات المجموعة الاوروبية . وتخفف من عداء العالم الثالث بعد ان انفتحت على الصين .

ففي مثل هذا المناخ لنا ان نتوقع ان يقوم الحل الامريكي الوسط على تفاهم الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وأخذ بعض مصالح اوروبا بعين الاعتبار ، واساس هذا التفاهم الوصول الى تسوية سياسية بموجب قراري مجلس الامن ٢٤٢،٣٣٨تنتهي بانسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧ ، ويكون شعب فلسطين العربي عنصرا فيها . ومعلوم ان السياسة الاميركية اعلنت اعترافها بهذا العنصر في رسالة نيكسون الى الكونجرس « نحن والعالم » عام ١٩٧٠ ، وذلك بعد ان فرض شعب فلسطين العربي وجوده بمقاومته[١] . ولنا ان نتوقع ان يتبع هذا الجهد الامريكي لبلوغ التسوية السياسية جهدا آخر يتمثل في حملة اقتصادية عامة لتغيير واقع المنطقة الاقتصادي . وقد أشار كامبل في دراسته الى ذلك بوصفه « بانه أفضل خطة استراتيجية » لمعالجة الاثار التي ستنجم عن التسوية التي لن تزيل من الوجود كل آثار الصراع ولن ترضى قوى سياسية هامة في كلا الطرفين. كما يكون لنا ان نتوقع بعد تحقيق الانسحاب ان تبحث الدولتان الكبيرتان مسألة تحديد الاسلحة في المنطقة . وقد سبق للاتحاد السوفيتي ان أشار الى رغبته في هذا التحديد وكانت الولايات

---

(١) كان مما جاء في الرسالة قول نيكسون « ان الشعب الفلسطيني ما زال مشتتا في جميع انحاء العالم . يضغط بكفاحه على ضمائر الدول العربية من اجل الحصول على وطن » .

المتحدة مصرة على ابقاء اسرائيل متفوقة في السلاح على الدول العربية مجتمعة .

من الواضح ان حرب رمضان هيأت المناخ الدولي بشكل أفضل لتطبيق قراري مجلس الامن ــ كما سبق ان ذكرنا ــ وهكذا نشطت السياسة الاميركية للوصول الى الحل الوسط مستفيدة من نتائج الحرب واستعانت بالاتحاد السوفيتي . ومن المتوقع ان تستخدم السياسة الامريكية ما بيدها من اوراق لانجاح مساعيها . وكان عدد من خبراء الاستراتيجية الاميركية قد طلب « ان تستخدم الولايات المتحدة نفوذها وتلتزم بمسؤوليتها وتمارس الضغط على اسرائيل وروسيا والعرب لتخفيف التوتر » وواضح الآن ان الحاجة الى الضغط على الاتحاد السوفيتي قلت في ظل التفاهم كما ان نتائج حرب رمضان فتحت حديثا في الوطن العربي حول تبدل في العلاقات العربية مع المعسكرين .. فتبقى ممارسة الولايات المتحدة لضغطها على اسرائيل في حالة رفض اسرائيل الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧ . وهنا يثور التساؤل عما اذا كانت السياسة الاميركية ستقوم بهذا الضغط ؟

ليس لنا ان نستبعد حدوث نوع من الضغط لبلوغ التسوية السلمية. وهناك سابقة له اثر عدوان ١٩٥٦ حين ساهم الضغط الاميركي في فرض انسحاب اسرائيل من سيناء وغزة واضطر بن جوريون للاذعان . فمن المتوقع بفعل المناخ الدولي المحيط ان تلح الولايات المتحدة على ابرام التسوية ، وهي تنظر بحكم مكانها في عالم اليوم نظرة أشمل من النظرة الاسرائيلية الضيقة . ولكن الولايات المتحدة ستبقى متمسكة ببقاء اسرائيل وستعمل على ضمان هذا البقاء بالتسوية السياسية واستمرار الدعم الاميركي لاسرائيل الذي هو في الوقت نفسه وسيلة ضغط على اسرائيل . وستحاول الولايات المتحدة في الوقت نفسه كسب الود العربي حفاظا على مصالحها . وواضح

التناقض بين الهدفين • وهو تناقض سببه تجاهل أصل المشكلة . ولنا ان نتوقع بروز عقبات ومشكلات امام هذه السياسة التي تحاول الجمع بين متناقضين ، ومن بينها عقبات في داخل الولايات المتحدة ستحاول الصهيونية العالمية ابرازها .

ونأتي الى الاتحاد السوفيتي الذي برز كقوة ضخمة عظمى في عالمنا المعاصر وقد وافق بروزه بعد الحرب العالمية الثانية بروز الولايات المتحدة، فظهر الى جوارها ومعها كأقوى قوتين على ظهر الارض . وجمعت بينهما مشابهات . واشتد الصراع بين هاتين القوتين خلال العقود الثلاثة الماضية تعبيرا عن فروق واختلافات ايدلوجية واستراتيجية[1] . وعبر توازن القوة بينهما ــ كما رأينا ــ عدة مراحل اوصلت الى مرحلة التفاهم •

سيبقى الاتحاد السوفيتي في عالم الغد قوة ضخمة استمرار لمكانته في عالمنا المعاصر وبحكم موقعه وامكاناته وقيادته للمعسكر الاشتراكي . ولكنه مثل الولايات المتحدة سيواجه ضغوطا من داخله ومن خارجه . وستختلف الصورة الدولية المحيطة به عما كانت عليه بعد الحرب الثانية . فقد ذهب عالم الاستقطاب الثنائي مع المتغيرات التي حدثت في المعسكرين. وظهر في المعسكر الاشتراكي تفكك وانشقاق مثلما ظهر في المعسكر الرأسمالي ، واشتد الخلاف بين الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية كاشفا عن اثر العامل القومي في السياسة وعلى الايدلوجيات . وليس من المتوقع ان ينتهي هذا الخلاف بسرعة وقد أصبح خلافا عقائديا وسياسيا واقليميا وديموجرافيا « سكانيا » . وفي اوروبا الشرقية ظهر تفكك وتباعد احجار المعسكر الشرقي ايضا ، مثلما تفكك وتباعد احجار المعسكر الغربي في أوروبا الغربية .

---

(١)انظر جمال حمدان • استراتيجية الاستعمار والتحرير ص ٢٣٠ ويراجع ايضا دافيد تومسون في كتابه تاريخ العالم فصل معالم منتصف القرن •

ويدخل الاتحاد السوفيتي عالم الغد وقد تعدى مرحلة الشباب في نموه السياسي واصبح في مرحلة النضج التي يشتد فيها حرصه على حماية مكاسبه وانجازاته وقد حقق الكثير خلال نصف قرن . وسيزداد تطلعه في هذه المرحلة لمزيد من التقدم وسيتجه من أجل ذلك الى التعاون مع الدول المتقدمة . ويلفت النظر حجم التبادل التجاري والتعاون العلمي بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة في السنوات الاخيرة وفتحه الباب امام المصارف الاميركية لتمويل واستغلال الموارد الطبيعية في سيبريا وابرامه صفقة القمح . كما يلفت النظر الاتفاق الذي ابرمه مؤخرا مع اليابان لتقدم اليابان مبالغ ضخمة للاستثمار في سيبريا . وقد سبق للاتحاد السوفيتي في الستينات ان ارسى قواعد سياسة تعاون وتفاهم مع فرنسا ديجول واستمرت في عهد بومبيدو ؛ ثم توصل بريجنيف في السبعينات من خلال سياسته «نحو الغرب» التي استجابت لسياسية برانت الالمانية «نحو الشرق» الى التفاهم والتعاون مع المانيا الغربية ونشطت تنفيذا لهذه السياسة المشاريع الالمانية في الجمهوريات السوفيتية . وهكذا تفاعلت ضغوط الخلاف الصيني مع ضغوط التنمية والتقدم التقني لتوصل الى تقارب اعداء الامس ولتدفع بالاتحاد السوفيتي الى سياسة التفاهم على طريق سياسة الوفاق . ولنا ان نتوقع استمرار المساعي في هذا الاتجاه مستقبلا ليصبح التشكيل السياسي الغالب في العالم هو استراتيجية السلام . وعلينا ألا نغفل في الوقت نفسه عن التفاعلات الجارية داخل المجتمعات السوفيتية في مرحلة النضج والتي يغذيها التبادل الثقافي مع اوروبا الغربية .

لقد شغل الاتحاد السوفيتي بالصراع العربي الاسرائيلي بحكم مركزه كدولة كبرى في العالم وبحكم مصالحه في منطقة الوطن العربي التي تطل على شواطىء البحر الابيض المتوسط الشرقية والجنوبية وتحتوي البحر الاحمر فيها وتطل على المحيط الهندي . وقد قوى انشغاله مع بروز الثورة العربية في مقدمة ثورات التحرير في العالم الثالث في الخمسينات بعد أن

رآها عدوا لدودا للغرب الرأسمالي بحكم صراعها المباشر معه . ونلاحظ ان موقف الاتحاد السوفيتي من طريق العالم الثالث تأرجح بين الترحيب بعدائه للطريق الرأسمالي . ومن ثم التعاون معه في هذا المجال ابان احتدام صراع الحرب الباردة . ومن رفضه كطريق لبلوغ الاشتراكية يقطع الطريق على الشيوعية . ولذا رأيناه يصف هذا الطريق بالطريق غير الرأسمالي في مرحلة التطور الوطني[1] . كما نلاحظ ان هذا الموقف الذي عبر عن ايدلوجية ومصالح الاتحاد السوفيتي أحيط بنظرة عاطفية « رومانسية » في العالم الثالث أبعدت الكثيرين عن الفهم الصحيح له فمهدت لظهور ردة فعل قوية تجاهه مع ظهور بعض الحقائق وانعكاساته في مرحلة التفاهم الدولي . وهذا يقودنا الى الاشارة لاساليب السياسة السوفيتية في عالم الغد وخصوصا في العالم الثالث . فهي ستستمر تتراوح بين أساليب التفاهم والتعاون الدولي التي يحددها مكان ومصلحة الاتحاد السوفيتي ، وبين أساليب تنطلق بلسان الايدلوجية الشيوعية والثورة العالمية الشيوعية . ومن المتوقع ان يتضاءل انطلاق صوت الاساليب الاخيرة هذه في عالم الغد من الاتحاد السوفيتي انسجاما مع التغيرات التي تحدث في العلاقات الدولية ؛ ويتضاءل أيضا تأثيرها على العالم الثالث . ومن المتوقع أن تستمر أساليب السياسة السوفيتية عموما مطبوعة بطابع بطء الحركة المعبر عن ثقل الدولة الكبيرة والتأثير المكتبي فيها . وسيكون ذلك سببا في ضيق دول العالم الثالث وحركات التحرير التي تتعاون مع الاتحاد السوفيتي .

ليس لنا ان نتوقع تغييرا جذريا في موقف الاتحاد السوفيتي المبدئي للوجود الاسرائيلي في فلسطين العربية في المستقبل القريب . ومعلوم ان

---

(١) يراجع كتاب العالم الثالث قضايا وآفاق لجركوف وديليوسين واسكندروف ـ واسنبانوف دار التقديم بموسكو وهو من الكتب الروسية القليلة التى حاولت دراسة ظاهرة العالم الثالث وتفسيرها ماركسيا . كما يراجع فصل العالم الثالث فى كتابنا عبد الناصر والثورة العربية لمزيد من التعرف على موقف الاتحاد السوفيتى .

هذا الموقف المبدئي اعترف باسرائيل دولة اثر قيامها عام ١٩٤٨ بعد ان وافق على قرار تقسيم فلسطين . وعلى الرغم من التغير الذي طرأ على العلاقات السوفيتية العربية بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو في مصر وايجاده ظروفا جديدة تختلف عن ظروف عام ١٩٤٨ . وعلى الرغم مما كشفت عنه السياسة الاسرائيلية على مدى ربع قرن من ارتباط السياسة الامريكية ومن عداء للاتحاد السوفيتي فان موقف الاتحاد السوفيتي المبدئي من وجود اسرائيل كما يظهر اليوم لم يتغير . وقد عبرت عنه السياسة السوفيتية بوضوح في بياناتها الدولية وفي أحاديثها ومباحثاتها مع الدول العربية عامة والمقاومة الفلسطينية . ولكن اذا لم يكن قد حدث تغير في الوقت المبدئي فمن المؤكد ان تطورا كبيرا حدث في السياسة السوفيتية ازاء الصراع العربي الاسرائيلي . ومن مظاهر هذا التطور تزويد الاتحاد السوفيتي لمصر بالسلاح عام ١٩٥٥ ومشاركته في التنمية ووقوفه مع العرب كصديق في مواجهة الضغط الغربي الشديد عليهم . وقد عاد هذا التطور على كل من طرفي العلاقة بنتائج ايجابية في محصلتها خلال المراحل السابقة . وأكدت هذه النتائج الامكانيات المتاحة لمزيد من تطور العلاقات العربية السوفيتية في عالم الغد على أساس من الفهم العلمي المتبادل لطبيعة هذه العلاقات .

ومن الواضح على الموقف السوفيتي من الصراع انه محكوم بعلاقاته الدولية . فهو يعارض اطماع وسياسة اسرائيل التوسعية ولكنه يعترف بوجودها . وهو يؤيد مقاومة شعب فلسطين العربي والدول العربية لتحقيق أنسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧ ولكنه يرفض الذهاب لاكثر من ذلك . وهو يضطر في الوقت نفسه امام ضغط الصهيونية العالمية والولايات المتحدة الاميركية لالغاء ضريبة التعليم على اليهود السوفييت الراغبين في الهجرة ثم لفتح باب الهجرة بشكل واسع لهم . ولقد دخل الاتحاد السوفيتي مرحلة التفاهم مع الولايات المتحدة التي رسم خطوطها بوضوح اجتماع سانت كليمنت بكاليفورنيا بين بريجنيف

ونيكسون في يونيو ١٩٧٣ الذي انتهى بتوقيع اتفاق مشترك يمنع قيام الحرب النووية . وهذا يعني تحكم هذه الخطوط في سياسته ازاء الصراع مستقبلا . ويعني امكان توصل الدولتين الكبيرتين في منطقة الوطن العربي الى تحديد الاسلحة وتعاونهما قبل ذلك لبلوغ تسوية سلمية تعالج مبررات التوتر في الصراع ولا تعالج أصل المشكلة . وقد أعلن الاتحاد السوفيتي بوضوح انه سيلقي بثقله لتطبيق قراري مجلس الامن . من اجل تحقيق انسحاب اسرائيل وأكد على ضرورة اشتراك شعب فلسطين العربي كعنصر في هذه التسوية السلمية ونصح المقاومة الفلسطينية بقبولها .

وهكذا فان السياسة السوفيتية مهتمة بايجاد «حل» للصراع العربي الاسرائيلي يناسب الى حد تطلعات العرب المرحلية ولكنه لا يذهب مع هدفهم الاصيل الى نهايته . واننا نعتقد ان الاتحاد السوفيتي جاد في مسعاه هذا . على غير ما تقول به دراسات غربية من انه حريص على ابقاء حالة اللاسلم واللاحرب «لانها أكثر الاحوال مناسبة لمزيد من تغلغله في المنطقة». وذلك لان طبيعة مرحلة التفاهم الدولي ومقتضياتها تفرض هذه الجدية في حل المشكلات ولا تدع مجالا واسعا للمناورة التكتيكية . ونذكر ان الولايات المتحدة في نهاية حرب رمضان لم تتردد في اعلان حالة التأهب القصوى حين تحسبت مجرد تحسب من اخلال الاتحاد السوفيتي بالخطوط الرئيسية لاتفاقاتها .

ولقد تبنت دول اوروبا الشرقية موقف الاتحاد السوفيتي من الصراع العربي الاسرائيلي . ولنا ان نتوقع استمرار هذا الوضع مع احتمال بروز تطورات فيه وفقا لما سيطرأ من تطور على صيغة العلاقات التي تحكم هذه الدول بالاتحاد السوفيتي .

ونأتي الى أوروبا الغربية التي نتوقع أن يكون لها مكان هام في عالم الغد ، يختلف في نوعيته من مكانها في عصر الاستعمار ، ويرتفع بها عن

مكانها في عالمنا المعاصر . ومن المعلوم ان دول اوروبا الغربية حكمت العالم في العصر الحديث وبنت امبراطوريات استعمارية ضخمة امتدت على مدى قارات كوكبنا . وما ان انتهت الحرب العالميـة الثـانية وتدفقت الثورات التحررية حتى بدا وكأن عصر أوروبا الغربية قد انتهى وخرجت منها زعامة العالم الى الابد ، وتضاءل وزنها النسبي في العالم ككل ، وبدأت تأخـذ حجمها الطبيعي بلا مبالغة او تورم مصطنع في العالم[1]. فقد طحنتها حربان عارمتـان في ربع قرن وجردت عن مستعمراتها بثورة التحرير فتضـاءلت مواردها الاقتصادية وعاشت ازمة شدة وانكمش نتيجة لذلـك حجمهـا السياسي وقل تأثيرهـا حتى بدت للبعض في الخمسينات وكأنهـا ذيـل للولايات المتحدة .

ولكن اوروبا الغربية هذه لم تلبث منذ الستينات ان جهدت لتستعيد مكانتها ولتجد مكانا لها في عالم متغير . وهكذا غذت السير في طـريق الوحدة الاوروبية واقامت بعض دولها السوق الاوروبية المشتركة التـي لم تلبث ان استقطبت عددا آخر من دول غرب اوروبا فارضة نفسها حتى على بريطانيا . ولعبت فرنسا ديجول دورا خاصا في رسم سياسة أوروبية جديدة تخرج دول أوروبا عن عالم الاستقطاب الثنائي ومن التبعية للولايات المتحدة وتؤثر في السياسة الدولية . وقد نجحت هذه السياسة الى حد ليس بالقليل وعادت أوروبا الغربية الى البروز على المسرح العالمي في فترةالتعايش السلمي وبدأت تتطلع الى دور أهم ومكانة أكبر في عالم الغد . وكذا أشرنا الى استثمارات أوروبا الغربيـة في الاتحـاد السوفيتي . ونشير الآن الى نشاطاتها في العالم الثالث وعلاقاتها معه ومع الصين . وهكذا تدخل أوروبا الغربية عالم الغد وهي تعرف طريقهـا الى مكانها فيـه .. طريق الوحـدة

---

(١) جمال حمدان ص ٣٠٢ وهو يشير الى مورجنسو في كتابه «السياسة بين الامم والصراع من اجل السلطان والسلام . »

الاوروبية في عالم الكتل الضخمة . ومن المتوقع على هذا الاساس ان يكون لها ذلك المكان الهام في عالم الغد ، بل هناك من يرى انه في منطقة غرب أوروبا ستكون خلال العقد القادم ، ان لم يكن على المدى البعيد ، أهم المناطق الجغرافية في العالم من النواحي السياسية والاقتصادية بعدالولايات المتحدة الاميركية . وتكمن اهميتها السياسية في صناعاتها النامية باطراد ، وتقدمها التكنولوجي المستمر وشعوبها المثقفة الماهرة ؛ والتشابه في التراث السياسي والثقافي بين تلك الشعوب ، وشبكات المواصلات الحديثة التي تربط بين أجزائها ، يضاف الى ذلك كله أهميتها الاستراتيجية كشبه جزيرة لقارة اوراسيا ، تشرف على طرق الاقتراب من البحر الى قلب الارض وفي سطحها »[1] .

ويهمنا أن نؤكد على دور أوروبا في عالم الافكار والثقافة كعامل رئيسي في اعطائها مكانها الهام في عالم الغد ، وخصوصاً وأن مشكلة ازمة القيم التي عانت منها الحضارة الغربية وبالتالي عانى منها العالم أجمع تشغل الفكر الاوروبي ، كما تشغله بقية مشكلات عالمنا . وقد نبه مالك بن نبي الى «ان الموجة الاوروبية لم تأت للعالم الذي أغرقته بغمرة الرفاهة المادية فحسب، مثل الثلاجة الكهربائية وغيرها، بل انها أتته أيضا بثروات روحية لا جدال فيها » . ووصل بعد استشهادات كثيرة الى ان « لـدى اوروبا عبقريتها الخيرة وعبقريتها الشريرة » . واذا كان مركب القوة الغاشمة يجسد عبقريتها الشريرة فان الفكر الحر بما يعنيه من قوة خلاقة يمثل عبقريتها الخيرة التي ستساهم في ايجاد فلسفة انسانية عالمية . ويكون على العالم الثالث مساعدة اوروبا على ان تحسن اختيارها[2] .

وضح توجه أوروبا الغربية نحو الوحدة في السبعينات ، وتأكدت

---

(١) بالدوين ص ٥٢ .

(٢) مالك بن نبي الافريقية الاسيوية ص ٣٦١ .

ارادتها للقيام بدور عالمي يعبر عنها كمجموع . وقد أعلنت هذه الارادة في البيان الصادر عن لقاء القمة بين تسع دول اوروبية في خريف ١٩٧٢ الذي جاء فيه « لقد دقت الساعة من أجل أن تعي اوروبا بوضوح وحدة مصالحها ومدى طاقاتها وأهمية واجباتها . وعلى أوروبا ان تكون قادرة على اسماع صوتها في الشؤون العالمية وان تسهم اسهاما اصيلا بنسبة مصادرها الانسانية والفكرية والمادية في الشؤون الدولية وفق نهجها في الانفراج والتقدم والسلم والتعاون » .

لم يكن لاوروبا الغربية موقف واحد من قضية فلسطين في الماضي . حيث كانت دولها في مرحلة التنافس الاستعماري تتسابق على السيطرة خارج القارة . بل حدث نتيجة هذا التنافس ان تباينت مواقف الدول الاوروبية تجاه القضية ضمن حدود توجه أوروبي واحد غلبت عليه النزعة الاستعمارية والعداء التاريخي لمنطقة الوطن العربي ، وحكمه منطق القوة الغاشمة والمصالح . وهكذا قامت بريطانيا بدور خاص في تمكين الغزوة الصهيونية من اغتصاب فلسطين خلال فترة استعمارها لها وتسلطت على اجزاء أخرى من الوطن العربي ولم يحدث تغير يذكر في سياستها بعد طردها من المنطقة تكفر به عن بعض ما اقترفته بحق فلسطين . وتذبذب موقف فرنسا من القضية وفقا للظروف المحيطة بمصالحها في المنطقة ؛ وكانت قد تسلطت بدورها على اجزاء واسعة منها ، فتصادمت مع بريطانيا أحيانا ثم تحولت لدعم اسرائيل في الخمسينات على أمل التأثير على ثورة الجزائر ، ثم تحولت بعد خروجها من الجزائر وخلال حكم ديجول عن هذا الدعم وانتهجت سياسة جديدة تجاه العرب تتفق مع دور فرنسا الجديد . ووقفت المانيا النازية موقف العداء من بريطانيا ، ولم تلبث المانيا الغربية بعد هزيمة النازية في الحرب العالمية الثانية ان دعمت اسرائيل بالتعويضات والاسلحة وكانت النازية بموقفها العنصري من يهود اوروبا قد دعمت الغزوة الصهيونية بطريق غير مباشر وهيأت لها المناخ لتهجير اعداد كبيرة من اليهود

الاوروبيين . وبقيت المانيا الغربية حتى وقت قريب في سياستها تجاه قضية فلسطين أسيرة رواسب الماضي وضغوط الصهيونية والسياسة الامريكية . اما بقية الدول الاوروبية فقد حكمها ذلك التوجه الاستعماري والعداء التاريخي في نظرتها للقضية الفلسطينية على الاغلب . ولم تشذ الا اسبانيا بحكم عوامل خاصة . وحتى دول شمال اوروبا التي لم تغرق في مهاوي الاستعمار ووقفت مواقف انسانية من حرب فيتنام لم تتخذ مثل تلك المواقف من قضية فلسطين حتى الآن ، واقتصرت على تقديم الدعم لغوث اللاجئين .

اذن هل سيكون لاوروبا الغربية موقف واحد من قضية فلسطين والصراع العربي الاسرائيلي مستقبلا ؟ وان كان لها فماذا ستكون طبيعته؟

لنا ان نتوقع بروز موقف موحد للدول الاوروبية من القضية في عالم الغد وما دامت وحدة أوروبا الغربية ستكون احدى حقائقه . وقد بدت ارهاصات هذا الموقف مؤخرا في بيان دول السوق التسعة حول الشرق الاوسط وبعد حرب رمضان حيث تشاورت دول اوروبا وانتهجت سياسات متقاربة (ولم تشذ الا هولندا) . وسيقوم هذا الموقف الموحد على عوامل محددة تتصل بموقع الوطن العربي الاستراتيجي في قلب القارات الثلاث واشتراكه مع أوروبا في حوض البحر الابيض المتوسط بما فيه من ثروات نفطية تشتد حاجة اوروبا لها ، وبما له من مكان في العالم الثالث . ويتأثر هذا الموقف في الوقت نفسه برواسب الماضي وبما للصهيونية من وجود في اوروبا وبالمناخ الدولي . وهكذا ستلح اوروبا الغربية هي الاخرى على فكرة « حل » قضية فلسطين وتحرص على تحسين علاقاتها بالعرب . ولقد تحدثنا عن أوروبا الموحدة لاننا نتوقع سياسة اوروبية عربية ، ونتوقع ان تقوى الدعوة لتفاهم أوروبي عربي في المستقبل القريب ، فيتهيأ المناخ في أوروبا لفهم أفضل لاصل المشكلة يمكن من تطوير « الحل » . ذلك ان خطوط الحل المتصور حاليا في أوروبا هي في حدود تطبيق قراري مجلس

الامن مع تأكيد على ضرورة اشراك شعب فلسطين العربي في التسوية نتيجة وعي بوجوده وادراك أفضل لطبيعة مقاومته . ونلاحظ ان السنوات التي تلت حرب ١٩٦٧ شهدت يقظة في الضمير الاوروبي تجاه العرب في فلسطين ، من الممكن لها ان تقوى وتعم وسيكون لها تأثير كبير على الرأي العام العالمي بحكم مكان أوروبا الفكري الذي أشرنا اليه . ولذلك نتوقع أن تبذل الصهيونية جهدا خاصا وتخوض معركة مريرة لتعمية الرأي العام الاوروبي والوقوف في وجه يقظة الضمير الاوروبي . وستعمد الى السلاح الفكري فيما تعمد وستجد مفكرين اوربيين يلتقون معها لاسباب مختلفة . ونضرب مثلا على هؤلاء جان بول سارتر وسيمون دي بوفوار اللذين تتتابع تصريحاتهما منذ حرب ١٩٦٧ لتكشف عن موقف معاد للحق والعدل مصر على التضليل باسم القيم الانسانية . وستقف وراء هؤلاء أجهزة الاعلام الصهيونية الفعالة في مواجهة المفكرين الذين عبروا وسيعبرون عن يقظة الضمير الاوروبي من أمثال توينبي وبرتراند راسل . وسيكون على الفكر العربي أن يرمي بثقله في هذه المعركة ، كما سيكون على السياسة العربية تجاه أوروبا أن تساعد على كسبها لان يقظة الضمير الاوروبي لا زالت تتأثر بمنطق القوة والمصالح . وواضح أثر بروز القوة العربية في حرب رمضان على التوجه الاوروبي الحالي .

ان دراستنا لتوجه أوروبا الموحدة مستقبلا لا يغنينا عن النظر في مواقف بعض الدول الاوروبية ذات الثقل الاكبر من القضية والصراع لان وحدة أوروبا الغربية لن تعني الغاء الوجود القومي لدولها وبقاء تمايز في سياسات هذه الدول . بل لعل توازن القوى الجديد في مرحلة التفاهم الدولي سيجعل لحجم القاعدة الوطنية وثرائه دورا أكبر في تحديد الوزن العام للدولة بعد تصفية الاستعمار ــ كما لاحظ جمال حمدان[١]

---

(١) بين اوروبا واسيا ــ دراسة في النظائر الجغرافية ــ جمال حمدان ص ٢٢٥ .

وبالتالي سيؤثر ذلك على الموقف الاوروبي الموحد بأن تساهم الدول الاثقل وزنا بنصيب أكبر في رسم خطوطه .

سيبقى لفرنسا مكان خاص في أوروبا الغد استمرارا لمكانها في القارة في العصر الحديث. وقد كانت السباقة بين دول أوروبا لتحقيق وحدتها السياسية، وكانت أول من رفع علم الثورة ، وما اسرع مـا لحقت بركب الانقلاب الصناعي حين سبقتها بريطانيـا . وبدت عبقريتها في عـدم الانعزال عـن التطورات الحديثة المتلاحقة ، وفي متابعة التقدم ، واستمرار العطـاء ولا زالت تساهم بدور كبير في قيادة أوروبا فكريا وحضاريا ومن المتوقع أن تستمر على ذلك مستقبلا . وقد قادت فرنسا أوروبا في طريق الوحـدة بعد ان تخلصت من مشاكلها الاستعمارية ــ وجاهرت بالعداء لسياسـة الاستقطاب الثاني وخرجت عـلى هيمنة الولايات المتحـدة في أوروبا . وحققت ابان حكم ديجول نهضة معنوية واقتصادية واصبحت دولة نووية صناعية غنية حديثة . فاحتلت في مراتب القوة المركز الرابع في دول العالم والمركز الاول في أوروبا[1] ولقد سبق ان اشرنا الى تطور موقف فرنسا من قضية فلسطين وما آل اليه في عهد ديجول الذي أدان اعتداء اسرائيل في حرب ١٩٦٧ ونوه بمقاومة شعب فلسطين . ولا تزال فرنسا عند هـذا الموقف في سياستها الرسمية . وقد انطلقت منه لاقامة علاقات جديدة مع الدول العربية تطوي بها صفحة الاستعمار والعدوان الثلاثي وحققت في هذا المجال نتائج كبيرة في فترة قصيرة . وواضح ان السياسة الفرنسية وهي تعمل على بناء أوروبا موحدة قوية تستشعر أهمية خاصة لسياستها العربية من أجل الطاقة والاستثمارات، ونراها تتبنى الدعوة لتعاون دول البـحر المتوسط وللقاء أوروبي عربي . ولنا ان نتوقع حرصها نتيجة ذلك كله على

---

(١) براجع جمال حمدان (المصدر السابق لمزيد من المعلومات عن فرنسا) ، ويراجع بلدوين في « استراتيجية الغد » .

تفهم الموقف العربي عن قضية فلسطين . وسهامها في التوصل الى حل مرحلي ، ولكنا نتوقع أيضا ان يؤثر على هذا الموقف الرسمي نفوذ الصهيونية داخل فرنسا واستغلالها الاضطرابات الداخلية لممارسة تأثيرها .

وسيكون لبريطانيا في أوروبا الغد مكان هام بعد ان التحقت بالقارة مؤخرا ودخلت عضوية السوق الاوروبية المشتركة. وقد جاءت هذه الخطوة بعد أن فقدت امبراطوريتها الكبرى وتقلص وزنها السياسي النسبي في العالم . ومعلوم ان بريطانيا كانت أكبر دولة استعمارية في القرن التاسع عشر . وأقوى دولة بحرية ، والاسبق الى الثورة الصناعية ، فكونت أكبر امبراطورية وأطولها عمرا في التاريخ الحديث . ثم تحولت بعد الحرب العالمية الثانية والانقلاب النووي عن مكان الصدارة . فقد خرجت من الحرب منتصرة ولكن محطمة ، وهي وان لم تتحول الى قزم سياسي فقد عجزت بكل تراكمات الماضي واثقاله وبسبب مشكلاتها الصناعية والاجتماعية ان تصبح عملاقا اقتصاديا . وتكيفت مع واقعها الجديد فعادت الى أوروبا. ومع ان البعض يصفها برجل اوروبا المريض الجديد الا انها « لا تزال تقوي شرارة العظمة السابقة رغم معوقات الانتاج وتخلف الصناعة وفن التسويق والتبادل . وقد باشرت تطوير صناعتها مركزة على العلم والتقنية بدلا من الخام والوقود ، وعلى الكيف بدلا من الكم»[1] . وهي ولا تزال تقوم بدور في السياسة الدولية من خلال علاقة خاصة بالولايات المتحدة الامريكية مستغلة رصيدها الضخم من التجارب والخبرة في هذا المجال . كما انها تمثل مركز اشعاع فكري في أوروبا ودول الكومنولث السابقة . ولقد سبق أن أشرنا الى موقف بريطانيا من قضية فلسطين وما تتحمله من أوزار فيها وآثام اقترفتها في حق شعب فلسطين العربي فضلا عن سجلها الاستعماري الاسود في الوطن العربي ، وهو موقف وتاريخ ادانه مفكرون

---

(١) جمال حمدان ص ٢٢٣ وبالدوين ص ١٢٧ .

بريطانيون من امثال توينبي وناتنغ . وتحاول بريطانيا اليوم وهي تتكيف مع واقعها الجديد ان تقيم علاقات جديدة مع العرب تطوي بها صفحات الماضي البغيض مستشعرة ما للوطن العربي من أهمية استراتيجية واقتصادية ومعنوية . وهي من أجل ذلك مهتمة بايجاد « حل » لقضية فلسطين لما تعرفه من تأثير للقضية على العرب. و «الحل» الذي تتصوره لا يخرج عن قرار ٢٤٢ الذي صاغته بريطانيا ، اي انه حل مرحلي يعالج بعض نتائج الصراع ولا يقضي على جذوره ولا تزال بريطانيا مركزا لنفوذ صهيوني قوي يستغل مركزها الفكري والاقتصادي والسياسي للتأثير من خلاله . ولذا فاننا نتوقع توزعا في السياسة البريطانية بين الاستجابة لمصالحها الحقيقية في المنطقة بتفهم الموقف العربي وبين الانسياق للنطق الاستعماري الصهيوني القديم .

ولالمانيا الغربية في أوروبا الغد مكان هام باقتصادها المزدهر وقوتها المتجددة فعلى الرغم مما لحق بها في الحرب العالمية الثانية من هزيمة وعذاب وتقسيم واحتلال فانها استطاعت خلال العقود الثلاثة الماضية ان تبني اقتصادها من جديد حتى صارت في المقدمة بين دول اوروبا الغربية . وتتجه بعض الانظار اليها على انها وريثة الصدارة الحتمية في أوروبا الغربية . ولكن قوتها العسكرية لا تتناسب مع نموها الاقتصادي . وهي تمثل مركز جذب قوى لدول شرق أوروبا وتسعى لتوحيد شطريها . وقد أشرنا لتطور موقف المانيا من قضية فلسطين ورأينا موقفها الحالي أسيرا لرواسب الماضي ولضغوط الصهيونية والسياسة الاميركية . ولنا ان نتوقع مع نمو قوة المانيا الغربية وازدياد حاجتها للضغط العربي وللاسواق العربية ان يزداد اهتمامها بعلاقات عربية أفضل ضمن صيغة التعاون العربي الاوروبي . وهذا ما سيقوي تطلعها الى حل قضية فلسطين ، ولكنها بحكم الضغوط المحيطة بها لن تضطلع بدور فعال مبادر حتى تتخلص من الابتزاز الصهيوني .

ونأتي الى الصين التي ستبرز بقوة في عالم الغد . فهي « الآن المركز الحقيقي لآسيا ومنطقة غرب المحيط الهادي وهي المارد الضخم الذي كان نائما ولكنه بدأ يستيقظ من لا مبالاة استمرت لعدة قرون . وقد أدى تحولها الى دولة صناعية نووية تحت قيادة حكومة شيوعية مركزية الى تغير في مجرى التاريخ »[1]. ومعلوم ان الصين انتفضت مؤخرا وتحولت بعد الثورة الشيوعية الى عملاق جبار لا في آسيا وحدها بل في العالم برمته ، فطوت صفحة الرقاد في تاريخها وبدأت تجدد صفحات حضارة الصين القديمة . وهي تمثل كتلة ضخمة في مساحتها التي تماثل مساحة قارة أوروبا وفي عدد سكانها الذي تعدى سبعمائة مليون نسمة يتزايدون بسرعة ، وقد وصفها ماوتسي تونج « بريف العالم » وكتب لينين انالطريق الى باريس يتجه من بكين .

وسيتحدد مكان الصين في عالم الغد بحكم قوتها وعقيدتها . وقد نشب خلاف بينهاوبين الاتحاد السوفيتي المجاور لهاوالذي تجمعهااليهعقيدة وهو خلاف من المتوقع ان يستمر في عالم الغد . وتجابه الصين مشكلات كثيرة وهي تتابع تقدمها ، فهي على الرغم مما حققته في مجال التقنية والعلوم فانه لا زال امامها الكثير . كما ان صراع القوى في داخلها الذي عبرت عنه الثورة الثقافية سيستمر . وقد دخلت الصين الامم المتحدة مؤخرا ، وحدث نوع من الانفراج قبل ذلك في علاقاتها بالولايات المتحدة على عكس ما توقع غلاة اليمين في الغرب ، كما اعترفت بها جارتها اليابان ويتوقع كثيرون أن تصبح الصين القوة الثالثة او الرابعة في العالم مع نهاية هذا القرن .

لقد تابعت الصين تطور قضية فلسطين واتخذت منها موقفا واضحا محددا قوامه الاعتراف بحق شعب فلسطين في وطنه والنظر الى الغزوة الصهيونية على أساس انها استعمار استيطاني ودعم مقاومة شعب فلسطين العربي باعتبارها حركة تحرير وطني . وتميز موقفها المبدئي عن موقف

---

(١) بالدوين ص ٢٢١ .

الاتحاد السوفيتي . ومع ان الصين لم تغرق بعد كثيرا في السياسات الدولية الا انها مهتمة بالوطن العربي ، وقد بدأت علاقات معه منذ مؤتمر باندونج. ولنا ان نتوقع استمرار دعم الصين للموقف العربي من قضية فلسطين وهو دعم ستزداد قيمته مع ازدياد قيمة الصين في عالم الغد . ولنا ان نتوقع قبولها بحل مرحلي للقضية مع تمسكها بضرورة النظر الى أصل القضية . وليس من المتوقع أن يكون التعبير عن هذا التمسك حادا في ظل التفاهم الدولي. ومعلوم ان الصين لم تعترف باسرائيل وتتوقع ان تستمر على موقفها هذا .

وفي عالم الغد ستبرز اليابان كعملاق اقتصادي بعد « ان تحولت من الهزيمة الكاملة في الحرب العالمية الثانية الى ثالث قوة صناعية في العالم خلال عقدين من الزمان ومن دولة عاجزة عن اطعام نفسها قبل الحرب العالمية الثانية الى بلاد تصدر الارز الآن» . ويتنبأ البعض ان القرن الحادي والعشرين سيكون قرن اليابان انتاجا واقتصادا . والارقام التي تعكس تقدم اليابان الاقتصادي مذهلة ويكفي ان نشير الى ان كثافة اجمالي الناتج القومي لكل كيلومتر مربع في اليابان تعادل عشرة اضعاف مثيلتها في الولايات المتحدة وسبع مرات لنظيره في بريطانيا . ويتوقع الباحثون ان يتخطى هذا الناتج القومي لليابان الناتج القومي لكل دول السوق الاوربية المشتركة في عام ١٩٧٨ بعد ان تخطى بريطانيا والمانيا الغربية وفرنسا معا . وقد حققت اليابان اكتفاء ذاتيا في الغذاء واصبحت أكبر شعب يبني السفن وثالث دولة صناعية واقتصادية في العالم[1] ، حتى بات يشغلها ان تخفف معدل نموها تحسبا من اخلاله الكبير بموازين القوة العالمية . وعلى الرغم من ان اليابان أصبحت مجردة بعد هزيمتها في الحرب من السلاح ، الا ان قوتها الاقتصادية اعادت لها الكثير من وزنها السياسي . وسيشغلها في عالم الغد مشكلات علاقاتها بالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وتجارتها مع

---

(١) يراجع جمال حمدان ص ٢٢٣ • وبالدوين ص ٢٢٦ لمزيد من الارقام عن انتاج الصلب •

الصين ومكانها في آسيا . كما يشغلها داخليا مشكلات سياسية وعسكرية متداخلة وتوزع بين اليمين واليسار .

لم تنشغل اليابان بقضية فلسطين في الماضي ابان فترة عزلها السياسي بعد هزيمتها . واقتصرت في علاقاتها بالوطن العربي على الجانب الاقتصادي وهو الجانب الذي جمعها باسرائيل والصهيونية العالمية ايضا . ولكن اليابان لم تلبث ان شد انتباهها الصراع العربي الاسرائيلي مؤخرا حين شعرت بمدى تأثيره على مصالحها . كما زاد اهتمامها بسبب هذه المصالح بعلاقاتها العربية . فهي تعتمد اعتمادا يكاد يكون كليا على استيراد النفط من اجل توفير الطاقة اللازمة لصناعاتها الثقيلة والتكنولوجية . وتشير الارقام الى انها تستورد ٩٠٪ من حاجاتها النفطية من الوطن العربي وايران . وقد اضطرت اثر حرب رمضان لاول مرة الى اعلان موقف سياسي واضح يقول بضرورة انسحاب اسرائيل وفقا لقرار ٢٤٢ بعد ان برز الموقف العربي الموحد في مجال النفط . ومن المؤكد ان انشغال اليابان بقضية فلسطين سيقوى في عالم الغد بحكم ارتباط مصالحها بالمنطقة . ومن المتوقع ان تتخذ موقفا مسايرا للموقف الدولي مع احتمال تطويره وفقا لمتطلبات العلاقات اليابانية العربية .

ونأتي للعالم الثالث الذي ستزداد أهميته في عالم الغد ، بعد أن برز الى الوجود في عالمنا المعاصر . والعالم الثالث مصطلح له دلالات حضارية واقتصادية وسياسية وجغرافية وعقيدية . فهو العالم النامي الذي فجر ثورة التحرير ليغذ السير في طريق التقدم. وهو العالم يسعى لطرح مثل حضارية جديدة تعالج مشكلة أزمة القيم في حضارة الغرب استوحاها من حضاراته القديمة ومن تجربته ابان تخلفه ، وهو عالم المواد الاولية والفقر ، كما انه عالم عدم الانحياز والحياد الايجابي ، وهو عالم الفكرة الافريقية الاسيوية وخط طنجة جاكرتا والكتلة « الصينية » بين

قوى الارتطام العالمية[١] . وقد بدأ التعبير عن هذا العالم منذ مؤتمر باندونج ١٩٥٥ ؛ واستمر في صورة مؤتمرات التضامن الافريقي الآسيوي ومؤتمرات عدم الانحياز والحياد الايجابي ؛ ومؤتمرات الوحدة الافريقية ومؤتمرات العالم الاسلامي . فكل هذه المؤتمرات تقع ضمن « العالم الثالث » . وواضح ان التعبير عن فكرة العالم الثالث لا يزال في بداياته ، وامامه ان يقطع شوطا بتصفية بقايا الاستعمار فيه وبتحقيق الترابط بين دوله ، والى استكمال قوته الاقتصادية بالتنمية الكثيفة والسريعة في كافة مجالاتها ؛ والى تحقيق التقدم العلمي ليلحق بركب من سبقوه . ولقد تنامت أهمية العالم الثالث خلال عقدين من السنين بشكل ملحوظ . ومن المتوقع ان تتنامى باستمرار في عالم الغد مع ازدياد الحاجة العالمية الى ما فيه من مواد أولية وطاقة . ومعلوم ان جل احتياطي الطاقة فيه كما انه غني بالمواد الاولية . وقد عبر هنري وولف بلغة الاطماع الاستعمارية حين وصف قارة افريقيا بأنها « غنيمة كبرى تستحق النضال من اجلها لثرائها بالمواد الخام.. حوالي ٢٥٪ من منجنيز العالم وما يزيد عن ٥٠٪ من الذهب و٧٠٪ من زيت النخيل و ٧٥٪ من السيزال و ٨٠٪ من الكولومبيوم ، وخاماتها من الماس والبريل والكرويت والنفط والمطاط واليورانيوم لها أهمية خاصة للولايات المتحدة والعالم الغربي كمخزون من الخامات »[١] . وما أكثر ما كتب في الغرب مؤخرا عن نفط الوطن العربي وحاجة الدول الصناعية له [٢] .

نتوقع ايضا ان تتنامى أهمية العالم الثالث من خلال مساهمته في

---

(١) ظهرت دراسات كثيرة عن العالم الثالث . ونشير على الخصوص لكتاب مالك بن بي « الافريقية الاسيوية » وكتب نيبورماند وكتب جمال حمدان وكتاب « العالم الثالث » لجوكوف واخرين .

(١) بلدوين ص ٢٧ .

(٢) انظر كمثل ملحق بالعدد ٣ من نشرة مؤسسة الدراسات في ١-٢-٧٣ حول ازمة الوقود والطاقة في الولايات المتحدة وعلاقتها بنفط الشرق الاوسط .

طرح مثل حضارية جديدة تشتد حاجة العالم لها . وقد ظهرت أهمية هذه المثل وفعاليتها من خلال طرح غاندي وطاغور قبيل تبلور الفكرة ثم من خلال نداءات نهرو وعبد الناصر وتيتو الذين عبروا عن العالم الثالث باعتباره ضمير العالم وصمام امنه ، وتصوروه جسرا يصل بين قوى الارتطام وهمزة وصل لا كتلة جديدة تزيد في تقسيم العالم . ونلاحظ استمرار قيام العالم الثالث بهذا الدور على الرغم مما اصابه من عداء الاستعمار له . وقد دللت الدورة الاخيرة للامم المتحدة التي خصصت لبحث موضوع المواد الاولية على ذلك ، وكانت للدعوة اليها من العالم الثالث على لسان الجزائر العربية دلالة هامة .

ان هناك صعوبات كثيرة في طريق قيام العالم الثالث بدوره ، ولكن من الواضح ان المستقبل امامه . وهو اذا كان اليوم فقيرا متخلفا فاننا هو كذلك بالواقع لا بالامكانيات ، بالفعل لا بالقوة . وامكانياته الطبيعية ضخمة ورصيده المادي شبه بكر « ولا يزال المجال فسيحاامامه »[1] ولديه ما يسهم به في الحضارة الانسانية .

لقد شغل العالم الثالث بقضية فلسطين انشغالا كبيرا منذ ان ظهر الى الوجود في عالمنا المعاصر ، باعتبارها احدى قضاياه التي نتجت عن تسلط الاستعمار عليه . وكان موقف دوله على العموم من القضية موقفا متفهما لطبيعة الصراع العربي الاسرائيلي ولاصل القضية . وقد برز الموقف في مؤتمر باندونج كما أبرزته مؤتمرات التضامن الآسيوية الافريقية الافريقية ومؤتمرات عدم الانحياز . وشذت عنه بعض الدول الآسيوية التي ارتبطت بالغرب وبعض الدول الافريقية التي استقلت حديثا وتسلط عليها النفوذ الصهيوني . ولكن لم تلبث غالبية هذه الدول ان تبنت موقف

---

(١) جمال حمدان . استراتيجية الاستعمار والتحرير ص ٣٥١ وفصل العالم الثالث من كتابنا « عبد الناصر والثورة العربية » .

العالم الثالث من القضية وقطعت علاقاتها مع اسرائيل في فترة حرب رمضان بعد ان وضح لها أمر الوجود الصهيوني المغتصب . ولما كان الوطن العربي هو قلب العالم الثالث فان العالم الثالث تأثر الى حد كبير بموقف العرب من القضية التي هددت وجودهم : وأيد مطالبة العرب بانسحاب العدو من الاراضي التي احتلها عام ١٩٦٧ وبالمطالبة بحقوق شعب فلسطين . ولنا ان نتوقع في عالم الغد استمرار العالم الثالث على موقفه المساند للقضية وتأييده لما يطرحه العرب من حلول لها ، بل ووقوفه وقفة واحدة لتصفية الكيانات العنصرية الاستعمارية فيه ومن بينها الكيان الصهيوني . ولعل أهم ما تحقق في الفترة الاخيرة على مستوى العالم الثالث وعي كثير من دوله لحقيقة الكيان الصهيوني باعتباره استعمارا استيطانيا عنصريا .

ان هذا الحديث عن موقف العالم الثالث من القضية بوجه عام لا يغني عن تناول بعض دوله بحديث خاص مثلما فعلنا مع بعض دول اوروبا الغربية، لان التعبير عن فكرة العالم الثالث لا يزال كما قلنا في بداياته . ولان هناك دوائر عدة متداخلة تقع ضمن هذا المصطلح ..

هناك الدائرة الاسلامية ، التي تحدث عنها عبد الناصر في فلسفة الثورة ، وهي تجمع أخوة العقيدة الواحدة والتاريخ الحضاري الواحد في ظل الحضارة العربية الاسلامية[1] . ومهما اختلفت الاراء حول طبيعة روابط هذه الدائرة وماهية الصيغ المعبرة عنها ، وهو اختلاف ظهر في تاريخنا الحديث منذ ظهور فكرة الجامعة الاسلامية في القرن الماضي، فان هناك اتفاقا على وجود عالم اسلامي الوطن العربي جزء منه ، وهذا العالم الاسلامي يضم مع الامة العربية قوميات عدة جمعتها اخوة الدين . كما ان هناك اتفاقا على وجود دور أصيل له ينبع من الفكر ويتجسد في وحدة عمل

---

(١) يصدق وصف دول اسلامية على الدول التى يعيش فيها غالبية مسلمة وقد جمعت الحضارة العربية الاسلامية بين هذه الغالبية وبين اخوة القومية من المنتمين لديانات اخرى وخصوصا للمسيحية . ويلاحظ ان المذاهب المسيحية الغالبة فى العالم الاسلامى هي المذاهب الشرقية .

ووحدة مصير . وتحتل قضية فلسطين بين قضايا العالم الاسلامي مكان الصدارة لان اغتصاب فلسطين وقد هدد الوطن العربي ــ وفلسطين منه في موقع القلب ــ هدد في الوقت نفسه العالم الاسلامي لان الوطن العربي قلبه وقضية فلسطين من ثم في خطرها على العالم الاسلامي اليوم تذكر باخطار الحروب الصليبية التي جابهته بالامس . وهكذا فاذا كان الوطن العربي يدعو وهو يعاني من التجزئة الى قومية المعركة فان من واجب العالم الاسلامي كما يرى كثيرون ان يتنادى الى اسلامية المعركة ، ولا تعارض بين الشعارين أو تناقض وانما هو التكامل بينهما[1] . وبالطبع فان للعالم الاسلامي دور خاص أيضا في صياغة فكرة العالم الثالث والنهوض بدعوته الى المثل الجديدة .

هذه الدائرة الاسلامية تجمع دولا كثيرة في افريقيا وآسيا فضلا عن دول الوطن العربي . وأهمية هذه الدول في الصراع كبيرة من نواح عدة . فهي من زاوية الجغرافيا السياسية تمثل العمق الاستراتيجي للوطن العربي، ومن زاوية الامكانيات تمثل الاحتياطي . ونشير من بين هذه الدول على الخصوص الى تركيا وايران وأثيوبيا[2] وارتيريا لما لها من مكان استراتيجي خاص في الصراع العربي الاسرائيلي . ويلاحظ ان التحالف الاستعماري الصهيوني من موقع وعيه لهذه الحقيقة عمل على تعطيل دور هذه الدول الاسلامية الاصيل ، وأقام معها علاقات حاول بها ان يقفز من فوق الحصار العربي . وقد تضافرت عوامل مختلفة مكنته في مراحل الصراع السابقة من الكثير من أهدافه معها ، وكان في مقدمة هذه العوامل ارتباط هذه الدول

---

(١) يراجع « فلسفة الثورة » لجمال عبد الناصر عن الدائرة الاسلامية . كما يراجع مالك بن نبى فى فكرة الافريقية الاسيوية وفكرة كومونولث اسلامى . ويراجع جمال حمدان في العالم الاسلامي المعاصر .

(٢) مجمع اثيوبيا بين صفتها الاسلامية وصفتها الافريقية . ويقدر عدد سكان المسلمين فيها بثلث السكان . كما ان مسيحيها من الاقباط المرتبطين بالكنيسة القبطية فى مصر .

بالغرب لاسباب محددة ووجود خـلافات جوار بينهـا وبين دول الوطن العربي عززتها خلافات نابعة من عدم تقدير تباين الظروف المحيطـة بكل من هذه الدول . وهكذا اعترفت تركيا باسرائيل في وقت مبكر وقامـت بينهما علاقات تجارية وتجـاوز الامر ذلـك في الخمسينات الى عـلاقات سياسية ضمن استراتيجية حلف الاطلسي الذي ارتبطت به تركيا . وتغلغل النشاط الصهيوني في ايران مستهدفا شغل العراق والخليج العربي بمشاكل الجوار عن رمي ثقلها في الصراع ضده ونجح في بلوغ هـدفه الى حـد كبير كما تغلغل في الحبشة التي تحكم ارتيريا وانشأ فيها قواعد له يهدد بها الجزيرة العربية ومصر والسودان ويشل الدور العربي في البحر الاحمر.

لقد حدثت مع تطور العلاقات الدولية عبر مراحل التوازن الاربعـة متغيرات كثيرة في هـذه الدول ومعهـا الباكستان . فالعـلاقات التركية الاميركية « تعفنت » في الستينات ، على حـد تعبير بالدوين ، وتركيا وان استمرت على صلتها بأمريكا والغرب عملت على توثيق صلاتها وتحسـين علاقتها مع الاتحاد السوفيتي . وهذه جميعها بوادر رفض الانحياز توطئة للافادة من الموقع بين القطبين . وهذا الاتجاه ، كما يقول جمال حمـدان «عند تركيا وايران لن يكون بلا سابقة في تاريخهما الارتطامي المفعم»[1] . والاهم من ذلك زوال توتر العلاقات الشديد بين تركيا وعدد من الدول العربية وخصوصا مصر وجارتيها العراق وسوريا ، وظهور تحسن ملحوظ في علاقات الجوار حدث التعبير عنه في صور مختلفة من بينها نمو العلاقات التجارية . كذلك طرأ بعض التطور عـلى الموقف الايراني بين الدولتـين الكبيرتين . وعلى الرغم من ان توتر العـلاقات بين ايران والعـراق لا زال موجودا ، فان حدة توتر العلاقات الايرانية العربية التي بلغت ذروتها في الستينات ومطلع السبعينات حين ضمت ايران جزر الخليج ، خفت وحدث

---

(١) جمال حمدان بين اوروبا واسيا ص ٢٥٩ .

نوع من الانفراج بين ايران ومصر . وقد وضح هذا التطور قبل ذلك على موقف باكستان التي أقامت علاقات جوار حسنة مع الصين وخففت من ارتباطها بالاحلاف الغربية ، وخرجت من الحرب مع الهند برؤية جديدة بعد ان قامت بنجلاديش . واذا كان هذا التطور قد تأخر ظهوره في الحبشة فان متابعة ما يجري هناك تكشف عن وجود تفاعلات قوية ستأتي بتطورات ، بل وتغيرات . فالثورة الاريترية مشتعلة والثورة الاجتماعية في الحبشة عموما تهدد مؤسسة الحكم وتنذر بالتغيير[١] .

لنا أن نتوقع في عالم الغد أن تزداد أواصر العالم الاسلامي ترابطا وانسجاما مع روح الوحدة من خلال التنوع . وهذا سيجعله أقدر على القيام بدوره الذي هو جزء من دور العالم الثالث . كما سيوحد موقفه من قضية فلسطين ويضاعف من تأثير هذا الموقف . وواضح ان الجو مهيؤ ضمن هذا التوقع لقيام علاقات أفضل بين الوطن العربي والدول الاسلامية المجاورة له مع نمو المصالح المتبادلة في مجال الضغط الاقتصادي عامة وفي مجال الاستراتيجية .

وهناك في العالم الثالث الدائرة الافريقية . وقد تحدث عنها عبد الناصر في فلسفة الثورة في وقت مبكر ، وهي متداخلة مع الدائرة الاسلامية فالاسلام جبهة زاحفة في أفريقيا . ويمتد الوطن العربي على أجزاء واسعة في القارة ويمثل ثقلا كبيرا فيها . وقد ازداد الاهتمام الاستراتيجي بأفريقيا جنوب الصحراء . كما تضاعف الاهتمام عامة بهذه القارة البكر التي عانت الكثير من ويلات الاستعمار الغربي. ونلاحظ ان التحالف الاستعماري الصهيوني من موقع وعيه لاهمية القارة ولمكان الوطن العربي فيها عمل على تمكين اسرائيل من التغلغل فيها لتكون اداته في استغلالها وليقفز بها من فوق الحصار العربي فيمكن لها من الاستمرار . واذا كان قد نجح في ذلك خلال الستينات فان مخططاته لم تلبث ان اصيبت بضربة في السبعينات

---

(١) كتب هذا الجزء قبل قيام احداث اثيوبيا التي اوصلت الى تولي الجيش سلطات الامبراطور .

مع انكشاف طبيعة التغلغل الاسرائيلي للافريقيين ومع تنامي العلاقات العربية الافريقية . وقد وقفت دول القارة وقفة واحدة في حرب رمضان وقطعت علاقاتها باسرائيل .

على الرغم من ان افريقيا وهي في بداية صحوتها لا تزال تعاني من تخلف مرير ومن بقايا الاستعمار في أبشع صوره العنصرية فان المستقبل امامها في عالم الغد . وهي مؤهلة للاسهام ضمن العالم الثالث في طرح قيم جديدة . ولنا ان نتوقع مزيدا من الترابط الافريقي الذي سيؤدي الى عزلة التحالف الاستعماري الصهيوني وأداته اسرائيل في افريقيا . كما سيؤدي حتما الى زوال بقايا الاستعمار العنصري ويبدو من أحداث البرتغال الاخيرة ان الدور قد جاء على مستعمراتها والبقية ستلي .

ونشير ضمن العالم الثالث الى دائرة عدم الانحياز ذات المدلول السياسي والتي برزت في الخمسينات وتوسعت في الستينات . وقد شغلت الهند ويوجوسلافيا مع مصر العربية مكانا خاصا . ونلاحظ ان فكرة عدم الانحياز وهي في أصلها فكرة آسيوية افريقية احتلت مكانا في اوروبا حين تبنتها يوجوسلافيا وزحفت على العالم الجديد في امريكا اللاتينية . وستبقى للهند أهمية بارزة في آسيا وقد كان موقفها من الصراع العربي الاسرائيلي معبرا عن موقف العالم الثالث . والعلاقات الهندية العربية مؤهلة لمزيد من النمو والتماسك خصوصا بعد الوصول لتسوية بين دول شبه القارة الهندية الثلاثة . كذلك ستبقى ليوجوسلافيا أهمية في البلقان وشرق أوروبا عامة ومن المتوقع ان تحذو بعض جاراتها حذوها في الاتجاه نحو عدم الانحياز . وقد ظهرت تباشير ذلك في أكثر من دولة في شرق اوروبا وخصوصا في رومانيا . ولنا ان نتوقع استمرار موقف التأييد اليوجوسلافي للحق العربي في قضية فلسطين ومزيدا من تنامي العلاقات العربية اليوجوسلافية .

كما لنا ان نتوقع مع التفات الوطن العربي لابنائه المغتربين في اميركا اللاتينية ومع بروز قوته في عالم الغد قيام علاقات أقوى مع دول امريكا اللاتينية . وقد ظهرت بدايات طيبة في هذا المجال مع عودة البيرونية لحكم الارجنتين .

الفصل الثاني

إسرائيل والصهيونية مستقبلاً

كيف يبدو توجه العدو الاسرائيلي بعد حرب رمضان ، ما وجهة اسرائيل في هذه المرحلة ؟ وهل تغير الهدف الصهيوني الاصيل ؟

ان الاجابة تقتضي الالتفات في الدرجة الاولى للنفسية الاسرائيلية، وكنا قد درسنا تأثير حرب رمضان عليها. وهذا الاهتمام بالجانب النفسي في الصراع نابع من حقيقة عبر عنها نحوم جولدمان بقوله «ان المشكلة هي أولا قبل كل شيء نفسانية وليست اقليمية » .

من تتبعنا للاحداث الاسرائيلية التي جرت بعد الحرب، ومن ابرزها اجراء الانتخابات وتشكيل الحكومة وابرام اتفاق فصل القوات في جبهة قناة السويس[1] ، يمكننا ان نزداد تأكدا مما سبق ان قررناه من ان الهدف الصهيوني الاصلي لم يتغير . ويمكننا ان نلاحظ ان النفسية الاسرائيلية على الرغم مما عانته خلال الحرب فانها تتجه نحو مزيد من التشدد والتطرف. فعلى الرغم من ترديد كلمة السلام في كل مناسبة، فان مضمون ما

(١) كتب هذا الجزء قبل ابرام اتفاق فصل القوات على الجبهة السورية .

يطرح معها، يسد جميع الطرق امام السلام، ويكشـف عن هـذا التشدد والتطرف ، حتى فقدت الكلمة مدلولها. وواضح ان الحرص على استخدامها يتصل بتضليل الرأى العام العالمي من جهة، وبالهاء الفرد الاسرائيلي الذي يتوق للامن ويخشى الحرب. نجد امثلة على ذلك في البرامج التي اعلنتهـا الاحزاب والكتل الاسرائيلية لدخول الانتخابات . فهذه وثيقة حزب العمل تتحدث عن «اتفاق سلام يتم احرازه في مفاوضات دون شروط مسبقة .. ولن ترجع اسرائيل الى حدود الرابع من حزيران ١٩٦٧ التي كانت بمثابـة اغراء بالعدوان .. والمحافظة على الطابع اليهودي لدولة اسرائيل من اجـل تحقيق اهدافها الصهيونية ومهماتها في الهجرة وجمع الشتات .. والعمل على استمرار الاستيطان وتدعيمه وبناء المستوطنات..» وقد قبل حزب مابـام الشريك الاصغر في التجمع العمالي الوثيقة بصورة عامة. وهذه برامـج تكتل ليكود تتحدث عن «حق الشعب اليهودي في ارض اسرائيل. وينبغي رفض كل مشروع يسفر عن تقسيم ارض اسرائيل الغربية من جديد (اي الضفة الغربية) .. وينبغي ايضا تطبيق سيادة الدولـة على منـاطق ارض اسرائيل المحررة بصورة قانونية... والتطلع والسير الدائم للسلام الـذي معناه توقيع معاهدات سلام عن طريق مفاوضات مباشرة، وشروط الأمن مرتبطة بممارسة السيطرة على مناطق استخدمها العـدو.. والاستيطـان اليهودي الواسع النطاق في قطاعات اليهودية والسـامرة وغزة وهضبـة الجولان وسيناء لان له اهمية قصوى.» وهذه برامج الحزب القومي الديني تتحدث عن «حقنا الديني التاريخي في ارض الميعاد وتحقيق سلام دائـم شريطة عدم التنازل عن اي جزء من ارض اسرائيل التاريخية ميراث ابنائنا وعدم الاشتراك في مسئولية حكومية اذا وضعت حكومة اسرائيل مشروعا يلزم بالانسحاب من اليهودية والسامرة (الضفة الغربية) »[1] .

---

(١) تراجع نشرة مؤسسة الدراسات بتاريخ ٦-١٢-٧٣ و ١-١-١٩٧٤ .

وهكذا نجد في برامج هذه الاحزاب الاسرائيلية التعبيرات اياها التي دأبت على ترديدها منذ حرب ٦٧، والتي تعبر عن اطماع صهيونية توسعية مجنونة وعن تعصب عنصري مهووس، وكأن درس حرب رمضان لم يجد شيئا في اقناع الغزاة الصهاينة بمناقشة اصل المشكلة. فلا زال هؤلاء الغزاة يتحدثون عن حق تاريخي وحق ديني وأهداف صهيونية وأرض اسرائيل الغربية وارض اسرائيل التاريخية والتهجير الواسع والاستيطان وعدم الرجوع الى حدود الرابع من يونيو ١٩٦٧ التي كانت بمثابة اغراء للعدوان والحدود الآمنة والحدود الرادعة ثم يقولون مفاوضات دون شروط مسبقة بعد ان وضعوا كل تلك الشروط وجاهروا بكل ذلك «الكفر» . ونلاحظ ان هذه النفسية الاسرائيلية وهي تردد ذلك كله تطرح تعبيرات خاصة بها لايحكمها منطق ولاتعطي مفاهيم محددة، ومع هذا فهي تتمسك بها. ولقد وقف يعقوب تلمون امام هذه الظاهرة وكتب في دراسته «حساب النفس» انني ادرك انني اعرض نفسي لسيل من الذم والغضب، ولكنني اعترف بانني كمؤرخ لا افهم ما هي الحدود الآمنة ، وما هي الحدود الرادعة ، وما هي الحدود التي هي اغراء للمعتدي. فالتاريخ بأسره يظهر ان الامن او عدم الامن لا يتعلق بالحدود الآمنة أو غير الآمنة ، الطبيعية أو الاصطناعية المحصنة أو المكشوفة، وانما يتعلق الامن بدوافع العدو وتصميمه على شن الحرب.»[1]

وأجريت الانتخابات الاسرائيلية واعلنت نتائجها الرسمية في ٨ يناير ١٩٧٤ فكشفت هذه النتائج عن الاتجاه نحو مزيد من التشدد والتطرف. فهي لم تؤد فقط الى زيادة قوة اليمين المتطرف، متمثلة في المقاعد الثمانية الاضافية التي حصل عليها التكتل ، وانما ادت الى تثبيت سيطرة العناصر المتطرفة على حزب العمل (تحالف مائير ــ ديان ــ غاليلي) على الرغم من كونها اقلية فيه، والى اضعاف العناصر المعتدلة (بالمفهوم الاسرائيلي طبعا)

---

(١) نشرة مؤسسة الدراسات ١٦ـ٢ـ١٩٧٤ عن هاآرتس .

ودللت النتائج بصورة عامة على ان أغلبية التجمع الاسرائيلي عدوانيــة في اتجاهها العام او « صقرية » على حد التعبير الشائع بينها للدلالة على العدوان والحرب[1] . ولا تتعارض نتيجة راكاح مع هذه الحقيقة لانها عبرت عــن عرب الاراضي المحتلة عام ٤٨ وليس عن تجمع اسرائيل .

وقد وضح التوجه الاسرائيلي نحو مزيد من التشــدد والتطرف من استفتاء للرأى العام حول مؤتمر جنيف اجراه معهد البحوث الاجتماعيــة والتطبيقية التابع للجامعة العبرية قبيل الانتخابات. وجاء في نتيجته ٨٨٪ من الاسرائيليين ليسوا مستعدين لتنازلات بعيدة المدى بالمناطق مقابــل السلام . و ٧٨٪ يؤمنون بان هدف العرب من الحرب هو ابادة اسرائيــل وليس استرجاع المناطق المحتلة. و٥٨٪ ليسوا مستعدين لارجاع شبرواحد من الضفة الغربية. و٩٠٪ يعارضون مشروع روجرز و٦٦٪ يعـارضون استجابة الحكومة الاسرائيلية للضغط الاميركي في مسألة قبول مشروع روجرز .

وتتالت تصريحات قادة اسرائيل خلال الشهور الماضية بمناسبة انعقاد مؤتمر جنيف والحديث عن فصل القوات، ولازالت تتالى معبرة عن المنطق نفسه. وبلغ الامر بجولدا مائير ان تحدثت عن‌عدم الانسحاب من الجولان.

مع انحرب رمضان شجعت بعض الاصوات على رفض هذا التشدد والتطرف والدعوة الى الاعتدال ، الا ان نطاقها بقى محدودا. ونلاحظ ان المنطق الذي يحكمها لايختلف عن منطق المتشددين في منطلقاته وأسسه، وانما الاختلاف في التفاصيل. نرى هذا فيما كتبه بعض اساتذة الجامعات وفي دراستي تلمون وجولدمان وفي بيان «الفهود الســود» الانتخـابي وشعارات بعض المنظمات اليسارية التي ظهرت بعد حرب رمضان فتلمون

(١) من تحليل النتائج النهائية لانتخابات الكنيست الثامن • نشرة مؤسسة الدراسات ١٦-١-١٩٧٤ .

مثلا يقول «العرب مصممون على ابادتنا؛ ويجب على اسرائيل ان تكـون قوية جدا حتى بعد التسوية وتوقيع معاهدة سلام، بيد ان عليها ان تعتبر قوتها العسكرية عاملا رادعا فقط، وليس اداة لسياسة دينامية..» وجولدمان يناقش لضمان امن اسرائيل .. هكذا. ومـع ذلك تشعر هـذه الاصوات بضرورة التمهيد لحديثها الذي يوصف بالاعتدال كيلا ينالها سخط وغضب الغالبية المتشددة.

هذا النزوع الى التشدد والتطرف في اوساط التجمع الاسرائيلي بعد حرب رمضان ليس مفاجئا لنا، وقد توقعناه كعرب قبل ظهوره من موقـع معرفتنا وخبرتنا بالوجود الصهيوني. فهذا الوجود يتحكم فيه ــ كما وضح لنا من حديثنا عنه ــ عاملان اساسيان يصوغان نفسيته العامة. اولهما كونه استعمارا استيطانيا اوروبيا في نشأته، وثانيهما قيامه على العقيدة الصهيونية.

ان من طبيعة الاستعمار الاستيطاني ان يغلب عليه التشدد والتطرف. نرى ذلك بوضوح في أمثلته الماضية والحاضرة . ولقد تابعنا مؤخرا نشوب أزمة في البرتغال بعد أن أصدر أحـد العسكريين البرتغاليين كتابا ناقش فيه مستقبل المستعمرات البرتغالية «وتجرأ» وطرح فكرة اعطاء الحكم الذاتي للمستعمرات وربطها بالاتحاد الفيدرالي، فقامت القيامة عليـه وغضبـت الحكومة من جرأته فأقالته[1]. والامثلة تتكرر باستمرار في روديسيا وجنوب افريقيا كشاهد على هذه الحقيقة. وتاريخ الاستعمار الاستيطاني الفرنسي في الجزائر من قبل حافل بالامثلة التي تؤكدها، وقد سجل تطرف المستوطنين في اعقاب الحرب العالمية الثانية حين قاموا بمذبحة قسطنطينية عام ١٩٤٥، وسجل ما بلغ اليه هذا التطرف اعوام ١٩٥٦ و١٩٥٨ و١٩٦٠ من عصيـان

---

(١) كتب هذا الجزء قبيل حدوث الانقلاب العسكري في البرتغال الذي قاده الجنرال (سبينولا) صاحب الكتاب المشار اليه .

للحكومة الفرنسية عند ظهور اي تراجع منها عن التشــدد والتطرف[١] . ومثل ذلك في كل صـور الاستعمار الاستيطاني التي حفظها التاريخ الحديث.

وحين نبحث عن تفسير هذه الظاهرة في الاستعمار الاستيطاني نجد وانها نابعة من كونه يقوم على القوة الغاشمة التي لا تأبه لاية معان انسانية، ويرتكز على فكرة العدوان والاغتصاب . ونلاحظ ان اللجوء الى القــوة الغاشمة يزداد في الاستعمار الاستيطاني كلما جابهته مقاومة اصحاب الحق اهل البلاد، تعبيرا عن نمو خوف عميق في نفــس المستعمر المستوطن من المستقبل؛ وهكذا تتحول عملية الصراع بينه وبين اصحاب الحق الى قضية حياة أو موت بالنسبة اليه، فينقاد في تصرفاته الى احط صور البربريــة والهمجية . وتتكون لديه نفسية خاصة نتيجة ذلك كله[٢] .

واذا كان الاستعمار الاستيطاني الاوروبي قــد استنــد الى بعض النظريات العنصرية التي ظهرت في اوروبا القرن التاسع عشر واستترت وراء « رسالة الرجل الابيض » ، فان الاستعمار الاستيطاني الصهيوني باعتباره جزءا من الظاهرة صب ذلك كله في بوتقة العقيدة الصهيونية التي ضخمت عقدة شعب الله المختار، ونفخت في مشاعر الاضطهاد وكراهية الشعوب، واحيت اسطورة المسادا[٣].

تكاتف هذان العاملان في صياغة النفسية الاسرائيلية فطبعــاهــا بطابع التشدد والتطرف. وكان طبيعيا ان يعبر الناطقون باسم اسرائيل عن

---

(١) يراجع للتوسع في موقف المستوطنين كتاب صلاح العقاد « تاريخ المغرب العربي » .

(٢) اهتمت الدراسات الغربية بمتابعة هذه الظاهرة . وقد اثبت جمال حمدان في استراتيجية الاستعمار والتحرير اسماء عدد منها في معرض دراسة الاستعمار السكنى ص ١٣٨ .

(٣) أذكر مقالا للصحفي الاميركي السوب كتبه أوائل عام ١٩٧٣ عن جولدا مائير وعقدة المسادا شرح فيه مائير العقيدة الصهيونية على النزوع والتطرف عند قادة اسرائيل . واسطورة المسادا تتحدث عن نفر من يهود حوصروا من قبل الجند الرومان وماتوا على آخرهم دون ان يسلموا في موقف انتحاري .

هذه النفسية وما فيها من تشدد وتطرف. وان يؤثروا ذلك على اعادة النظر في المنطلقات تجنبا للمصير الحتمي الذي ينتهي اليه الاستعمار الاستيطاني. وان يعتبروا اعادة النظر هذه او حتى عدم المغالاة ترددا أو ضعفا . وقد وقد اوضح تلمون فيدراسته حين قال عن جولدا مائير «هناك دلائل على ان السيدة مائير تريد ان تسجل صورتها في التاريخ اليهودي ، لاكصانعة سلام او مصممة القوة الاسرائيلية بحد ذاتها، بل كمن تغلب على الخطر ، فلم تستسلم، ولم تتراجع ولم تذهلها ضغوط وتهديدات». ونلاحظ ان هذه النفسية حين تتحدث عن السلام مضطرة لاعتبارات معينة ، تتصور سلاما خاصا بها تنعته «بالسلام الحقيقي» «والسلام الدائم» الخ بحيث لايمكن لها اعتبار العرب مؤهلين له الا حين يصبحون ـ على حد قول تلمون ـ «صهيونيين هرتسليين يعترفون بحدود الميعاد ويقرون بعودة صهيون، ويفضل انينصرفوا منأماكنهم ويستسلموا لانه لا حول لهمولا قوةوبالتالي لاخيار. وما هو دون ذلك ليس سلاما. ويضيف متعصبو فكرة اسرائيل الكاملة اما اسرائيل من السويس حتى جبل الشيخ ونهر الاردن او خراب الدولة الثالثة». ولقد بلغ الامر بديان وهو يمارس سياسة القوة الغاشمة وينادي بخلق الحقائق في المنطقة ان نظر ـ كما يقول تلمون ـ «بازدراء الى الذين يتحدثون عن الكرامة الذاتية وحق تقرير المصير والاماني القومية للسكان العرب وتدنيهم الاجتماعي. وقدحل هذه العقدة باعلانه انالتعايش السلمي بين اليهود والعرب لايجوز الا في ظل حراب جيش الدفاع الاسرائيلي. وان من حقنا البقاء في يهودا والسامرة الى الابد، وواجبنا استيطان كل مكان.»

وكما ان النزوع الى التشدد والتطرف يزداد في المراحل الاخيرة من الاستعمار الاستيطاني عامة، كتعبير عن اندفاع ما قبل النهاية، فمن المتوقع ان يزداد في التجمع الاسرائيلي بعد حرب رمضان التي اعتبرناها بداية النهاية في الوجود الصهيوني ونتوقع ايضا ان يصبح هذا النزوع الىالتشدد

مجالا للمزايدة بين الاحزاب الاسرائيلية التي يكثر وجودها في التجمع ويكون ذلك سببا آخر لتفاقم الظاهرة .

وهكذا يتأكد لنا ان النفسية الاسرائيلية تتجه نحو مزيد من التشدد والتطرف . ويبدو لنا ــ في معرض الاجابة على السؤال الذي طرحناه ــ ان توجه العدو الاسرائيلي بعد حرب رمضان سيكون في اتجاه العدوان . وانه سيتشبث اكثر بهدفه الصهيوني الاصلي. وذلك قدره وقدرنا.

*

ولكن ما الذي يريد العدو تحقيقه في المرحلة القادمة بالتطرف والتشدد ضمن الهدف الصهيوني الذي وضح انه لم يتغير ؟

ان عدم تغير الهدف الصهيوني يعني استمرار العمل على التهجير اليهودي والانسياق وراء الاطماع التوسعية كما رأينا في البرامج الانتخابية ومتابعة الاستيطان مع بقية الاهداف المنبثقة عن الهدف الصهيوني منذ ظهوره. هذا بصورة عامة وهو لايغني عن تحديد الاهداف المرحلية للعدو.

ونبحث عن الاهداف المحددة للمرحلة القادمة فنلاحظ ظاهرة تلفت النظر هي ان التجمع الاسرائيلي لم يتفق بعد عليها، بل ولم يقم اكثر الاحزاب والاتجاهات بتحديد دقيق لاهداف المرحلة كما يتصورها. ومن كل ما نجده لدى الجميع نستخلص ان عدونا يتطلع في المرحلة القادمة الى التمسك بجل ما احرزه في المراحل السابقة وانهاء العداء العربي وفرض سلامه هو فضلا عن ذلك، مقابل تنازلات طفيفة. وقد صاغ برنامج حزب العمل تصوره لاهدافه المرحلية صياغة عامة وذكر ان «اسرائيل ستسعى لاتفاق سلام يضمن حدودا يمكن الدفاع عليها، ترتكز على حل اقليمي وسط وهي ليست حدود الرابع من حزيران سنة ١٩٦٧ والمحافظة على الطابع اليهودي لدولة اسرائيل من اجل تحقيق اهدافها الصهيونية ومهماتها في الهجرة وجمع الشتات، وبدء مرحلة من العلاقات الطبيعية بين اسرائيل والدول المجاورة في حقول

السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة بعد انهاء مظاهر العداء والحصار والمقاطعة واستمرار الاستيطان» .

وصاغ برنامج التكتل (ليكود) تصوره للاهداف المرحلية صياغة أعم فيها النص على رفض تقسيم «ارض اسرائيل الغربية» وبقية الاحلام التوسعية التي سبق ان اشرنا اليها عند الحديث عن النزوع الى التشدد والتطرف . ومثله فعل الحزب الديني القومي. ولم يتضح شيء من التحديد الا في برنامج راكاح ــ القائمة الشيوعية الجديدة ــ الذي كرر ما اعلنه بعدحرب ٦٧ من ضرورة الانسحاب من جميع المناطق المحتلة في حرب يونيو والاعتراف بالحقوق القومية لشعب فلسطين مع التمسك بدولة اسرائيل . ونكرر الاشارة الى ان بنية راكاح تجعله اقرب الى ان يكون حزبا عربيا ولايعكس من ثم توجها اسرائيليا .

ولقد ظهرت مجادلات للتحديد اقترحها بعض المفكرين الصهاينة ، نجد فيها تركيز عدد منهم على أهمية فرض السلام وانهاء العداء العربي مع التمسك بالدولة اليهودية الخالصة وقبول انسحاب من بعض المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ . ومن امثلة ذلك ما طرحه جولدمان الذي شدد على اهمية السلام وفضله مع ضمانات كثيرة على التمسك بكل المناطق. وما طرحه ايضا تلمون الذي اصر «على عمق استراتيجي في سيناء وتوسيع عنق الزجاجة بين قلقيلية وتتانيا.. ونقاط استراتيجية يحتفظ بها بالاستئجار وضمانات دولية» مع معاهدة سلام . ولكن هذه الآراء التي ان اختلفت في التفاصيل وبدت معتدلة فانها متفقة في المنطلقات مع الاحزاب، لايتوقع ان تجد لها فرصة للمشاركة في رسم الخريطة التي سيحملها العدو الى محادثات التسوية . ويعترف تلمون بانه يصعب جدا على الاسرائيليين التوصل الى قرار بينهم بشأن الخريطة التي يحملها المفاوض الاسرائيلي الى مؤتمر السلام ، «لان الثلاثي الذي يقرر السياسة في الحكومة ــ مائير، ديان، غاليلي ــ مرتبط بفكرة الحدود الواسعة وفي الحقيقة بالضم الكامل. ولان التعاليم التي

استقاها الجمهور الاسرائيلي منهم بشأن الحدود الامنة غسلت الكثير من الادمغة وجردتها من القدرة على فحص المشكلة بصورة نقدية منطقية » .

وهكذا يتضح ان اهداف العدو لهذه المرحلة التي ستعبر عن النزوع الى التشدد والتطرف وان لم يجر تحديدها بدقة، فانها لاتختلف فيمضمونها عما كان يريده في المراحل السابقة وهو ما كان سببا في اضرام نارالصراع. كما يتضح استحالة التوصل الى تسوية تتفق مع هذه الاهداف في المرحلية الاسرائيلية. وهذا لايعني رفضنا لاحتمال التوصل الى تسوية مرحليةمؤقتة ولكن مثل هذه التسوية لن يقبل بها العدو الا مكرها بفعل تكاتف العامل العربي في الصراع مع العامل الدولي . ولنا ان نتوقع نتائج خطيرة لها تظهر في صفوفه ان حدثت . ولقد اتضح لنا ان عدم تحديد العدو لاهداف المرحلة بدقة ناجم عن شعوره بخطر هذا التحديد على اوضاعه الداخلية ؛ وخشيته من ان يفجر تناقضات قوية في أوساط التجمع الاسرائيلي الذي يوحده الشعور المشترك بالخطر وغلبة اصوات التشدد والتطرف .

وهكذا نجد تفسير الظاهرة التي لفتت انظارنا، ونتذكر دليلا على هذا التفسير ان خطر التحديد الدقيق للاهدافعلى الاوضاع الداخليةالاسرائيلية كان احد العوامل الهامة التي حدت بالحكومة الاسرائيلية الى تجنب رسم خريطة لمطالبها بعد حرب ٦٧ على الرغم منالحاح يارنج في الاوساط الدولية لانه لم يكن ممكنا للائتلاف الاسرائيلي الحكومي آنذاك ان يتفق على خريطة واحدة . وحين اضطرت الحكومة الاسرائيلية الىقبول مبادرة روجرز بعد قبول مصر العربية بها في يوليو ١٩٧٠ ووجدت نفسها مرغمة امام تحديات المبادرة حدث أن تفجر الائتلاف الحكومي فيها وخرج جاحال سلف التكتل من الوزارة واشتهر عن مائير وغيرها من قادة اسرائيل تنبيهم قبل حرب رمضان الايجدوا انفسهم مضطرين يوما لطرح تحديدات

نتيجة ضغط الولايات المتحدة والاوساط الدولية، لان في ذلك خطر نشوب حرب بين يهود ويهود .

ويهمنا ان نقف هنا للنظر في النتائج الخطيرة التي تتوقع ظهورها في صفوف العدو ان حدثت تسوية. وقد وضعنا احتمال التوصل الى تسوية مرحلية يقبل بهاالعدو مكرها بفعل تكاتف عوامل خارجةعن ارادته. وبالطبع فان مثل هذه التسوية لن تتم في هـذه المرحلة الا بضغط من الاوساط الدولية ـ وخصوصا الولايات المتحدة ـ على اسرائيل ، واحتمال ذلك قائم . وقد تمنى تلمون في دراسته حدوث ذلك ورآه « علاجا » في مثل هذا النزاع العنيد والمأساوي الذي لا توجد احتمالات بأن يتمكن الفرقاء فيه من التغلب يوما على صعابهم الداخلية والنفسية والسياسية دون تدخل جاد او حث او اكراه من قبل الدول الكبرى .. »

ان أهم هذه النتائج هو تفجر الاوضاع الداخلية في التجمع الاسرائيلي نتيجة ازمة الثقة واهتزاز المفاهيم واحتدام صراع المزايدات بين الكتل والاحزاب الاسرائيلية . اذ كيف يمكن ان يتواءم من كان الانسحاب في نظره كارثة وخيانة مع انسحاب تفرضه التسوية . وكيف يمكن ان تتغير النظرة الى امور اعتبرت لسنوات طويلة مسلمات صهيونية . ونلاحظ ان الشهور الماضية شهدت ظهور بدايات تفجر داخلي في أوساط العدو تجلت بعد الانتخابات في مصاعب تشكيل حكومة مائير ، وفي تصاعد حركة الاجتماع وموجة العداء للزعامة الاسرائيلية السياسية التي نقلت الصحف الاسرائيلية صورا منها تحدث للمرة الاولى مثل الهتاف بسقوط مائير وديان في المؤتمرات ، وفي تقاذف التهم بعد نشر نتائج التحقيق الذي أجرته لجنة خاصة حول القصور في حرب « الغفران » ، ثم في استقالة حكومة مائير بعد فترة قصيرة من تشكيلها .

وقبل أن نتحدث عما يمكن ان يسفر عنه هـذا التفجر المحتمل في

التجمع الاسرائيلي لا بد لنا ان نتحدث عن الاساليب التي سيحاول العدو اتباعها للتعبير عن توجهه العام ولتحقيق اهدافه المرحلية ولاحتواء خطر التفجر الداخلي فيه .

طبيعي ان تتأثر هذه الاساليب بتجربته الماضية وان تحاول التكيف مع المعطيات الجديدة التي طرحتها حرب رمضان عربيا ودوليا . وعلى هذا فلنا أن نتوقع لجوء الاسرائيليين الى اسلوب المساومة ليجابهوا به المناخ الدولي الذي هيأته حرب رمضان لفرض تنفيذ قراري مجلس الامن . وليجابهوا به الموقف العربي الذي توحد خلال الحرب فيكون أسلوب المساومة خير سبيل لتضليل الرأي العام العالمي وتخفيف سخطه على التشدد الاسرائيلي ، كما يكون خير سبيل لبذر بذور الشقاق في الموقف العربي الذي لا يصبر على هذا الاسلوب . وسيكون اللجوء لاسلوب المساومة حلا هروبيا لتناقضات الوضع الداخلي الاسرائيلي واختلاف الاحزاب والكتل الاسرائيلية حول الحل ومزايداتها على بعضها .

وليس اسلوب المساومة بالاسلوب الجديد على الصهيونية ، فقد تفننت في اتباعه منذ ظهورها . ولجأت اليه السياسة الاسرائيلية على الخصوص بعد حرب ١٩٦٧ لتعطل تنفيذ قرار ٢٤٢ ، فكان قبولها باستقبال يارنج ومماطلتها في الاجابة على اسئلته . وكان قبولها بمبادرة روجرز واثارتها عشرات القضايا الجزئية . ونجد هذا الاسلوب متفقا مع النفسية الصهيونية التي تعود في أصولها لنفسية شيلوك تاجر البندقية . كما نجده غير مخالف للاسف مع ما تبلور من اساليب السياسة الغربية التي فرضت نفسها على السياسة الدولية .

ظهر هذا الاسلوب بشكل حاد بعد حرب رمضان ، وكأن الحرب لم تصنع شيئا في تلقين الاسرائيلين درسا لاعادة النظر في أساليبهم . فعشية مؤتمر جنيف كثر الحديث في الاوساط الاسرائيلية عن « المناورة والمساومة

واستغلال الاوراق والثغرات » وتعبيرات اخرى تعبر عن اسلوب المساومة. من ذلك ما صرح به ألون في محاضرة « ان مجال المناورة المتوافر لنا ليس صغيرا .. ولقد أحسنا صنعا بعدم اهدار الامكانات المتاحة لنا » . وما صرح به ديان في محاضرة أخرى « يجب ان نكافح بتشدد من اجل حدود دولة اسرائيل المستقبلية .. يجب الا ننزل من الجولان ، والا نتحرك من على نهر الاردن ، ولا من جبال نابلس » الى بقية الاسطوانة المعتادة . وحين بدأت مباحثات الكيلو ١٠١ لفصل القوات على جبهة القناة طرحت اسرائيل ضمن أسلوب المساومة عروضا « مضحكة » او مثيرة للغضب ــ بحسب نظرة المرء لها ــ لا تدخل ضمن منطق أية تسوية . ثم تراجعت تدريجيا . ومثل ذلك تكرر بشأن فصل القوات على الجبهة السورية فكان أول عرض لاسرائيل ان تنسحب من جزء من الجيب الشمالي الذي احتلته مقابل كذا وكذا وكذا . ولا نود هنا ان ننساق الى تفاصيل الامثلة بقدر ما نقصد الاشارة الى اسلوب المساومة الذي سيغلب على السياسة الاسرائيلية خلال هذه الفترة في محادثات التسوية[1] .

*

ولنا أن نتوقع مع غلبة أسلوب المساومة على السياسة الاسرائيلية تزايد اهتمام اسرائيل بقوتها العسكرية تلبية للنزوع نحو التشدد والتطرف في المرحلة القادمة . ومعلوم ان هذا الاهتمام بالقوة العسكرية زافق الوجود الصهيوني منذ بدايته ، وحين نظر بن جوريون الى الوراء وتحدث عن ذكرياته الاولى أفاض في الحديث عن تسليح مستعمرات الاستيطان الصهيوني الاولى ، تماما كما أفاض في الحديث عن تسليح اسرائيل قبيل قيامها بحرب ١٩٥٦ . وقد تحولت اسرائيل في السنوات التالية الى مستودع

---

(١) تراجع من أجل التفاصيل نشرات مؤسسة الدراسات بتاريخ ١٦ــ١٢ــ٧٣ ، ١ــ٢ــ٧٢ و ١ــ٤ــ٧٤ وقد كتب هذا الجزء قبل ابرام اتفاق لفصل القوات على جبهة الجولان الذي أبرم بعد استمرار الاشتباكات على الجبهة طيلة خمسة وسبعين يوما ، وبعد رحلات متصلة لكيسنجر بين دمشق والقدس على مدى خمسة اسابيع .

سلاح ؛ وقفزت ميزانية الحرب فيها بمعدل ٤٥٪ بين حرب ٦٧ واواخر عام ١٩٧١ . وتجاوزت بعد ذلك نسبة ٣٠٪ من الميزانية العامة . وخلال حرب رمضان طلبت اسرائيل كميات هائلة من مختلف الاسلحة من الولايات المتحدة الاميركية ولبي طلبها . وتشير الاخبار ونشرات التسليح وتصريح لوزير الدفاع الاميركي في ابريل ١٩٧٤ الى ان امداد امريكا اسرائيل بالسلاح مستمر تلبية للقوائم التي قدمها ديان في زياراته الاخيرة. كما تشير الاخبار الى انشغال اسرائيل بتطوير صناعة الاسلحة فيها .

ومما ينم عن تزايد اهتمام اسرائيل بقوتها العسكرية فضلا عن استيراد السلاح وصنعه ما نشر عقب حرب رمضان في اسرائيل عن انشاء شعبة جديدة في هيئة أركان الجيش الاسرائيلي تختص بالتخطيط وستكون هذه الشعبة مسؤولة عن بناء الجيش وتخطيط نظام القوات فيه ؛ وتشجيع الابحاث حول وسائل القتال وتطويرها ، وبلورة المذاهب القتالية. وستكمل عمل الشعب الاربعة الاخرى في هيئة الاركان وهي القيادة العامة والمخابرات العسكرية والعمليات والتموين . وقد عين مسؤولا عنها اللواء ابراهام تمير أحد المهتمين بالفكر الاستراتيجي . وأوردت مجلة الجيش الاسرائيلي (بماحانيه) ان التخطيط الاستراتيجي الذي ستقوم به الشعبة الجديدة يمتد الى أربعة مجالات .. تنبؤ سياسي استراتيجي ، يتعلق بمجال نشاط الدول العمى والوضع العام في الشرق الأوسط ، والمواجهة الاسرائيلية العربية ، وصولا الى مخطط استراتيجي ومخطط حربي يستخلص منها المخطط الامثل لبناء الجيش الاسرائيلي . وتنبؤ تكنولوجي ينعكس على مجالات الشراء وتطوير جهاز الامن والانتاج الذاتي . وتنبؤ ديمغرافي (سكاني) يتعلق بمخزون القوى البشرية لتوفير حاجات الجيش الاسرائيلي والتصنيف النوعي لهذا المخزون ، ويتعلق أيضا بمخزون القوى البشرية

---

(١) نشر في مؤسسة الدراسات بتاريخ ٢٦-١١-١٩٧٣ .

لدى العرب ، وتنبؤ اقتصادي يعالج النواحي الاقتصادية المختلفة لاقتصاد الحرب .

وهكذا يعمد الغزاة الصهاينة المتطرفون الى التخطيط لاستكمال تحويل التجمع الاسرائيلي لتجمع حرب وعدوان . وكان ديان قد أكد هذا التوجه في حديثه لرؤساء تحرير الصحف الاسرائيلية في اليوم الرابع للحرب « علينا الاعتماد على قوتنا الفعلية .. وعلينا ان نبني الوضع على عنصرين : الاول الخطوط والثاني استمرار بناء قوتنا في المستقبل أيضا ونحن لا نبدأ من الصفر ...» . كما كان الباحثون الاستراتيجيون يتوقعونه انسجاما مع طبيعة الوجود الاسرائيلي في منطقة الوطن العربي . وقد كتب أحدهم يقول : « اسرائيل حالة قائمة بذاتها فمساحتها الصغيرة ومجتمعها الديني وقاعدتها الصناعية وتاريخ اليهود الحديث ، كل ذلك اقنع المخططين الاسرائيليين بالاعتماد على القوة العسكرية الفعالة القاهرة ؛ لضمان اثنين من أهم أهداف استراتيجيتها العسكرية . الاول هو الحد من قدرة العرب على استعمال القوة كوسيلة لحل مشكلة فلسطين . واذا ما فشل الهدف الاول فالهدف الثاني هو ضمان الحرب لصالح اسرائيل بأقل عدد من الاصابات من طرفها . فاسرائيل لا يناسبها النصر الذي يكلف كثيرا لانه يؤدي الى تقويض دعائم أمن الدولة الاسرائيلية مستقبلا . ولهذا السبب والاسباب الاخرى ، ركزت اسرائيل باصرار على الوصول الى مستوى عال من التسلح الحديث لضمان اهدافها والى ان يحين الوقت الذي يقوم فيه سلام مؤكد بين اسرائيل والدول العربية ، لا يمكن ان تراود اي زعيم اسرائيلي فكرة ايقاف السعي للتفوق العسكري المستند الى قوة بشرية مدربة وجهاز من السلاح الحديث »[1] .

---

(١) جفري كمب « الاستراتيجية ومستويات التسلح » انظر الصراع السوفياتي الاميركي في الشرق الاوسط ص ٥٠

ان محاولة استكمال تحويل التجمع الاسرائيلي لتجمع حرب وعدوان ستتم على الرغم من الحقائق الجديدة التي برزت خلال حرب رمضان في مجال السوق واساليب الحرب الحديثة والتي غيرت كثيرا من المفاهيم الاستراتيجية التي كانت سائدة . ويكفي ما أثبتته الحرب من ازدياد أهمية القوة البشرية والسلاح والمشاة . وستتم هذه المحاولة على الرغم من ان منطق القوة الغاشمة الذي حكم تصرفات اسرائيل خلال السنوات الماضية لم يفلح في القضاء على مقاومة شعب فلسطين العربي بل زاد في اضرامها . واستمرت المقاومة وتصاعدت رغم كل الضربات التي نزلت بها ولم يفلح هذا المنطق أيضا في التأثير على الارادة العربية . ومع ان هذه الحقيقة ليست غائبة عن العدو فانه سيسير في محاولته لانها تعبير عن توجهه الذي شرحنا أسبابه وقلنا انه قدره .

وستعني هذه المحاولة تسلط منطق القوة الغاشمة على التجمع الاسرائيلي قيادة وقاعدة ولنا ان نتوقع تعبير هذا المنطق عن نفسه باستمرار العدوان . وستكون نتيجة سير العدو في هذا الطريق استفحال سيطرة المؤسسة العسكرية في الفترة القادمة على مقدرات اسرائيل .

ولقد تردد الحديث في الصحف الاسرائيلية بعد حرب رمضان عن احتمالات وقوع انقلاب عسكري في اسرائيل . وكان مما قاله اريك كوهين المحاضر في الجامعة العربية انه « ساد في الماضي اعتقاد بأنه لا معنى لمناقشة احتمال انقلاب عسكري في اسرائيل ، حيث ان الجيش غير مسيس ومتشبع بالمبادىء الديمقراطية ولكن نظرة كهذه تقوضت ويجب عدم استبعاد الاحتمال» . وتصور كوهين ان تعمق أزمة الارادة القومية وتدهور استقرار النظام السياسي في اسرائيل يمكن ان يؤدي لقيام ضابط بمناشدة زملائه ان يضعوا حدا للعبة الديمقراطية . وخفف وقع هذا التصور بالاستدراك بأن ذلك سيكون « ليس بدافع التطرف وانما بالتحديد بدافع

الشعور بالمسؤولية والقلق العميق على صورة الدولة وأمنها . [1] والحق ان ما تتوقع حدوثه هو صيغة تعبر عن استفحال سيطرة المؤسسة العسكرية، وليس شرطا ان تكون انقلابا. لان سيطرة المؤسسة العسكرية الاسرائيلية متحقق منذ فترة وامره واضح للعيان وقد صدرت عنه مجموعة دراسات . ونلاحظ ان هذه السيطرة زادت بعد حرب ٦٧ وهددت المعاني الديمقراطية التي يحرص العدو على الجهر بتمجيدها . ومما سجله تلمون في دراسته قوله عن القيادة العسكرية الاسرائيلية « توصلت الديمقراطية الوحيدة في الشرق الادنى (كذا) الى أن يصبح جيشها مستتبنا لجنرالات على غرار جنرالات اميركيين جنوبيين ، وحكام مرتزقة . كانوا قبل جيلين او ثلاثة أجيال يحكمون ولاياتهم وكأنها اقطاع خاص . »

واذا كان الانتصار العسكري الاسرائيلي عام ١٩٦٧ قد زاد في هذه السيطرة ، فان تقوض اسطورة الجيش الذي لا يقهر في حرب رمضان سيضاعف من زيادتها لتستفحل . وهذه ظاهرة نراها بعد هزائم الجيوش وخصوصا في معارك الاستعمار الاستيطاني ضد حركات التحرير ، لان المؤسسة العسكرية تحاول تغطية فشلها بطلب مزيد من السيطرة وتحاول احتواء خطر التفجر الداخلي عن طريق ذلك وتحاول تصعيد العدوان لتبرير وجودها . وتنعكس تجاربها في الممارسة العنصرية ضد اصحاب الحق على أساليبها في تمكين سيطرتها وتسلطها في مجتمعنا . ويلفت النظر بقوة اثناء حرب رمضان وبعدها اجراءات المؤسسة العسكرية الاسرائيلية في رقابة الانباء وتقييد الحريات . واذا كان بعض الاسرائيليين قد ذهل من اقتراح وزير الدفاع الاسرائيلي بعدم منح العرب الذين ضموا الجنسية الاسرائيلية ووصفوه بأنه «اقتراح مذهل يسبب الخزي لاسرائيل ويكشف عن مدى فهمه وسلوكه نحو الديمقراطية والحكم البرلماني» فان على هؤلاء

(١) راجع هاآرتس في ٢-١١-٧٣ وفيها اشارة لموقف الحكومة المتزعزع داخليا وامكان حدوث انقلاب عسكري منعا لتنازلات اضافية . وانظر ايضا نشرة مؤسسة الدراسات في١-٤-١٩٧٤.

أن يتوقعوا تطبيق هذا الفهم وهذا السلوك عليهم . ونذكر هنا ما حدث للمؤسسة العسكرية الاستعمارية الفرنسية في الجزائر بعد قيام الثورة ومحاولتها استكمال سيطرتها على الحكم في الجزائر اولا ثم في فرنسا نفسها[1] .

ولكن ماذا سيكون اثر اعتماد اسرائيل اسلوب المساومة وسياسة القوة الغاشمة على مجرى الصراع العربي الاسرائيلي ؟

ان ما يبدو واضحا أن ذلك سيزيد من حدة الصراع وسيضاعف من ثم خطر التفجر الداخلي الاسرائيلي ويؤثر على السياسة الاسرائيلية في المجالات الاخرى .

وهكذا تعرفنا على توجه العدو بعد حرب رمضان ورأيناه نزوعا نحو التشدد والتطرف وتشبثا بالهدف الصهيوني الاصلي ، ودرسنا أسبابه ثم تعرفنا على أهداف العدو في المرحلة القادمة ورأينا انها تعبر عن تطلعه للتمسك بجل ما أحرزه ، وانهاء الصراع العربي وفرض سلامه ، وانها لم تتحدد بدقة لاسباب عدة . ودرسنا اسلوب العدو في التحرك وتوقعنا لجوءه للمساومة . كما توقعنا تزايد اهتمام اسرائيل بقوتها العسكرية ومحاولة استكماله تحويلها لتجمع عدوان وحرب ، وأوصلنا ذلك الى توقع استفحال سيطرة المؤسسة العسكرية الاسرائيلية وانعكاس ذلك على صورة الحكم في اسرائيل . ونتابع الآن دراسة المجالات الاخرى في السياسة الاسرائيلية التي تحاول تحقيق الاهداف الصهيونية للمرحلة القادمة .

*

ان من أهم انشغالات السياسة الاسرائيلية في المرحلة القادمة سيكون موضوع التهجير والنزوح اليهودي . وهو الموضوع القديم اياه الذي

---

(١) انظر تلمون في دراسة « حساب النفس » ولقد حدث بعد كتابة هذا الجزء ان استقالت حكومة مائير واختار حزب العمل رابين ليرأس الحكومة الاسرائيلية ، وهو عسكري سابق كان رئيسا لاركان الجيش الاسرائيلي في حرب ١٩٦٧ .

شغل الحركة الصهيونية في جميع مراحل الغزوة السابقة . وسيكون هم السياسة الاسرائيلية كالمعتاد تهجير اعداد كبيرة من يهود العالم الى الاراضي العربية المحتلة ، والوقوف في وجه حركة النزوح اليهودي من هذه الاراضي الى أوطانهم الاصلية . وكما رأينا فقد نصت برامج الكتل والاحزاب على أهمية التهجير ووعدت بالانشغال به وباستيعاب المهاجرين الجدد وكشف ذلك عن عدم وجود تراجع عن الهدف الصهيوني .

ومعلوم ان التهجير اليهودي هو أساس رئيسي من أسس الحركة الصهيونية وقد كان أحد قرارات المؤتمر الصهيوني الاول عام ١٨٩٧ . وهو كما قال بن جوريون « السبب الذي من أجله انشئت الدولة وبمقتضاه وحده سوف تبقى» . ويؤكد زعماء الصهاينة دوما ان أمن اسرائيل متوقف على الهجرة اليهودية . وقد لجأت الحركة الصهيونية الى اساليب مختلفة مدروسة لدفع يهود الاوطان الاخرى الى الهجرة منها لفلسطين المحتلة : فغذت انعزالية اليهودي في مجتمعه ، ودبرت حملات المعاداة للسامية في الغرب ، وركزت دعايتها على الحياة اليهودية الخالصة التي زعمت بأن اليهودي لا يحياها الا في الدولة اليهودية ، وضربت بعد حرب ١٩٦٧ على الوتر العنصري وما فيه من نزعة تحكم واستعلاء لجذب اليهود .

من الواضح ان جميع هذه الاساليب ستتبع في المرحلة القادمة لتهجير أكبر عدد ممكن من يهود العالم . وقد تطلعت المؤتمرات الصهيونية الاخيرة وزعامات اسرائيل الى ان يصبح عدد يهود التجمع الاسرائيلي في السبعينات ستة ملايين يهودي ليفوا بمتطلبات مرحلة التوسع . وسيستمر تركيز اسرائيل في هذه المرحلة على تهجير يهود الاتحاد السوفيتي ، وهو التركيز الذي بدأ في مرحلة التوسع واستغل الى آخر مدى التقارب الاميركي السوفيتي . ونذكر حملات اسرائيل المتتالية على الاتحاد السوفيتي في الغرب لدفعه الى فتح باب الهجرة امام مواطنيه من اليهود ، وتأثير الصهيونية على الكونغرس الاميركي ليعمل في الاتجاه نفسه . وقد حققت اسرائيل

والصهيونية العالمية نجاحا في هذا الصدد فارتفعت ارقام التهجير من الاتحاد السوفيتي من أقل من ألف يهودي عام ١٩٧٠ . الى حوالي ثلاثة عشر ألف يهودي عام ١٩٧١ الى اثنين وثلاثين ألفا عام ١٩٧٣ الى حوالي خمسة وثلاثين ألفا عام ١٩٧٣[1] . كما ستستمر محاولات اسرائيل تهجير عدد اكبر من يهود الغرب ـ أوروبا الغربية وأميركا الشمالية ـ بحثا عن نوعية مختارة وتغليبا للطابع الغربي في المجتمع الاسرائيلي .

ولكن الى أي مدى ستنجح اسرائيل في سياسة التهجير والاستيعاب في المرحلة القادمة ؟

ان حرب رمضان بالمعطيات الجديدة التي طرحتها آذنت بوضع جديد للتهجير بين يهود العالم وفرضت عليهم نظرة جديدة له . ونتوقع ان يؤثر ذلك على معدلات التهجير لتنخفض ارقامها خلال السنوات القادمة . وسيتناسب هذا الانخفاض تناسبا طرديا مع استمرار التوتر وتصاعد المقاومة .

ولعل أهم ما طرحته حرب رمضان على اليهود في موضوع التهجير هو انها طرحت السؤال الجذري عليهم ماذا بعد ؟ والى متى ؟

ولذا فقد طرأ انخفاض على معدلات الهجرة بعدها . وقد تحدث « يوشع تدمور » في « دافار » عن اسباب هذا الانخفاض وقال « انها كثيرة ولكن العامل المشترك بينها جميعا هو ان الحرب اثبتت لنا بوضوح قيود قوة اسرائيل ، بسبب الفجوة الهائلة بين الملايين الثلاثة من اليهود وعشرات الملايين من العرب .. فالسؤال الذي أخذ يثقل على الكثيرين هو ماذا بعد ، والى متى ؟ » وهكذا طرحت علامات الاستفهام الخاصة بالمستقبل .

---

(١) نراجع نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية بتاريخ ١ـ٤ـ١٩٧٤ وفيها احصاء مفصل للهجرة من الاتحاد السوفيتي منذ عام ١٩٥٠ .

ان توقعنا انخفاض معدلات التهجير لا يجب أن يجعلنا نغفل عن استمرار محاولات العدو فيه . وعلينا ان نتوقع تشبث بعض اليهود في الدعوة اليه بفعل تأثير الصهيونية عليهم ، اذ لا زال هؤلاء يرددون انهجرة ثلاثة ملايين يهودي خلال عدة سنوات تساعد على حل مشكلة أمن اسرائيل وقدرتها على الصمود . وكانوا قبل حرب رمضان يرددون ان ذلك يؤمن لاسرائيل التفوق . ونذكر هنا تصريح بن جوريون اثر حرب ١٩٦٧ بأنه يتطلع لهذا العدد فيتحقق التفوق . ولذا فقد توجه بنداء ليهود الغرب كي يهاجروا لفلسطين المحتلة .

ويرتبط بالتهجير اليهودي الى فلسطين المحتلة النزوح اليهودي من فلسطين المحتلة . فالتهجير والنزوح وجهان لموضوع واحد . وهم العدو كان ولا يزال تجاه النزوح ان يقف في وجهه . واذا كان الحديث عن ظاهرة النزوح وعن هذا الهم لا يعلن في برامج الاحزاب فانه في الواقع يشغل القيادات الصهيونية . ومعلوم ان هذه الظاهرة رافقت الغزوة الصهيونية في جميع مراحلها . وقد بلغ مجموع ما نزح من المهاجرين اليهود على مدى سنوات الغزوة حوالي نصف مليون يهودي عادوا الى أوطانهم الاصلية . اي ان نسبة النزوح الى التهجير تتراوح بين ١ الى ٥ و ١ الى ٦ ، وهي نسبة ليست قليلة . ونلاحظ ان هذه الظاهرة كانت تشتد كلما بدت علامات القوة على الموقف العربي . فهي تتناسب طردا مع حركة النضال العربي[١] ونذكر هنا ارتفاع عدد النازحين اليهود ابان سنوات وحدة مصر وسوريا وبعد تصاعد المقاومة الفلسطينية عام ١٩٦٩ .

ان العدو يحاول ـــ كما قلنا ـــ الوقوف في وجه حركة النزوح في المرحلة القادمة فالى اي مدى سينجح ؟

---

(١) تابعنا موضوع التهجير والنزوح تفصيلا في أحاديث وراء العدو من اذاعة صوت العرب وستصدر هذه الاحاديث في كتاب .

مرة أخرى تشير الى المعطيات الجديدة لحرب رمضان وتتوقع على أساسها ان ترتفع ارقام النزوح خلال السنوات القادمة ؛ وسنبين فيما بعد اثر تصاعد المقاومة في المرحله القادمة ــ وهو ما تتوقعه ــ في تحقيق هذا الارتفاع . وقد كشفت ارقام مكتب الاحصاء المركزي الاسرائيلي ان عدد الاسرائيليين الذين يسافرون الى الخارج هو في ارتفاع دائم مقابل الذين يعودون الى اسرائيل منهم ؛ وتوقع المكتب ان يصل النزوح هذه السنة الى ذروته[1] . وسيكون من صوره ان يغير المهاجرون من اليهود السوفيت طريقهم فيسافروا الى ما وراء البحار بدلا من فلسطين المحتلة ، وقد فعل ذلك منهم ١٤٢٠ شخصا سنة ١٩٧٣ . وكما قلنا فان ظاهرة النزوح تشغل القيادة الصهيونية . وفي لقاء ديان بطلاب جامعة بار ــ ايلان الاسرائيلية قال بمرارة « أخشى أن أتساءل اليوم ما اذا كان النزوح عن البلد يفوق الهجرة اليها » . والحق انه تساؤل يرد دوما في تجارب الاستعمار الاستيطاني ؛ ويكون الجواب عليه بالايجاب حين تبلغ التجربة بداية نهايتها .

ونأتي الى السياسة الخارجية للعدو لنرى ماذا ستكون عليه في المرحلة القادمة .

ان موضوع السياسة الخارجية لاسرائيل وثيق الصلة بجميع الموضوعات التي طرحناها . فعن طريق السياسة الخارجية سيحاول العدو أن يؤمن توجهه العدواني، ويوجه المناخ لتحقيق أهدافه المرحلية ولاستخدام اسلوب المساومة، ويوفر حاجته للسلاح ويفتح الطرق امام التهجير اليهودي ويسدها في وجه النزوح .

---

(١) أجرت جريدة معاريف تحقيقا عن النزوح في ١٩ـ٢ـ١٩٧٤ كشفت فيه عن صوره المختلفة وذكرت تحذير رئيس رابطة اساتذة التخنيون من نيات اعضاء كبار في الرابطة ومشاريعهم للنزوح وما اثارته الرسالة من ردود فعل .

وليس لنا ان نتوقع تغيرا كبيرا في الخطوط الرئيسية لسياسة اسرائيل الخارجية في المرحلة القادمة . لان العوامل التي رسمت هذه الخطوط وحددت بالتالي السياسة الخارجية لا تزال كما هي تعكس صورة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني ووضعه في قلب الوطن العربي[1] . ولكن لنا ان نتوقع شيئا من التغير في مناخ التحرك الاسرائيلي الخارجي بفعل المعطيات الجديدة التي طرحتها حرب رمضان .

ولقد كان من نتائج الحرب ـ كما رأينا ـ ازدياد عزلة اسرائيل دوليا وحدوث تغيرات في مواقف بعض الدول من الصراع العربي الاسرائيلي لصالح العرب . وبالطبع ستحاول السياسة الخارجية الاسرائيلية كسر طوق العزلة والخروج منها وبناء جسر تصل بها الى مواقع جديدة . كما ستحرص على التمسك بعلاقاتها مع الغرب .

ولكن محاولاتها هذه ستكون متأثرة بالتوجه الاسرائيلي العام في المرحلة القادمة وهو ـ كما رأينا ـ نزوع نحو التشدد والتطرف . كما ستكون مطبوعة بطابع النفسية الاسرائيلية التي تتحكم فيها عقد الاستعمار الاستيطاني الاوروبي وعقد الصهيونية . وقد عبر هذه النفسية قول حاييم هرتسوج المعلق العسكري الاسرائيلي وهو يدعو الى كسر العزلة « ان مصلحتنا الدائمة هي ان نستغل اليوم اية علاقة بالعالم تدعم صراعنا ضد أعدائنا . ولدينا مقياس واحد فقط هو : هل هـذا حسن لليهود أم لا ؟ » كما عبر عنها المؤرخ العسكري عاموس بيرلموتر الذي دعا الى معارضة اسرائيل لاميركا لانها لا تتفق تماما في موقفها مع الموقف الاسرائيلي . وعلى هذا يمكننا ان نتوقع نتائج هذه المحاولات من خلال استعراض موجز للعلاقات الاسرائيلية الخارجية .

---

(١) أنظر عن عوامل السياسة الخارجية ، مناهج السياسة الخارجية في دول العالم ، باشراف روي مكريدس ترجمة حسن صعب .

تأتي العلاقات الاسرائيلية الاميركية في المقدمة . ومعلوم ان لهـذه العلاقات مركز الصدارة منذ قيام اسرائيل . وقد قامت على أسس محددة وعبرت عن مصالح محددة للتحالف الاستعماري في منطقة الوطن العربي. وتداخلت فيها مصالح الولايات المتحدة في المنطقة مع دور اسـرائيل في الاستراتيجية الاميركية مع تأثير الصهيونية في السياسة الاميركية ، وننظر في مستقبل هذه العلاقات بعد حرب رمضان على ضوء المعطيات الجديدة ، فلا نجد تغيرا اساسيا في البنيان الذي قامت عليه . ولا في النظرة الى طبيعة الصراع العربي الاسرائيلي . وكل ما نجده اختلاف على التفاصيل بحـكم اختلاف دور دولة كبرى مع دور جيب استعمار استيطاني . ولنا ان نتوقع تفاقم هذا الاختلاف مع التحولات التي تطرأ في الوطن العربي على الموقف من الدولتين الكبيرتين وعلى نظرة واشنطن لدور اسرائيل في الاستراتيجية الاميركية في المنطقة . وقد آذنت حرب رمضان بحدوث هذا التحول على المستويين معا . حيث فتحت المجال امام صفحة جديدة من العلاقات العربية الاميركية سيكون لها تأثيرها على النظرة الاميركية لدور اسرائيل في المنطقة.

سيكون في مقدمة مشاغل السياسة الخارجية الاسرائيلية في المرحلة القادمة الوقوف في وجه هذا التحول الذي تراه خطيرا عـلى مخططـات اسرائيل . وتخشى أن يؤدي الى ممارسة الولايات المتحدة نوعا من الضغط على السياسة الاسرائيلية للقبول بما تشبثت برفضه . وستحاول اسرائيل بكل الوسائل لتمنع حدوث اي شكل من اشكال الضغط الاميركي .

يدخل في هذه الوسائل متابعة اقناع الولايات المتحدة نظريا وعمليا بأهمية الدور الذي تقوم به اسرائيل في المنطقة ، بل وفي العالم أجمع لصالح الاستراتيجية الاميركية سواء في مواجهة القوة العربية الذاتية او فيمواجهة السياسة السوفيتية . وقد دأبت اسرائيل منذ قيامها على التصريح بدورهـا هذا والتبجح به امام الولايات المتحدة . واستغلت كل الفرص لتقديم الادلة

العملية عليه وخصوصا حين احتدم الصراع في المنطقة بين الثورة العربية وسياسة القوة الاميركية الغاشمة من جهة وبين اميركا والاتحاد السوفيتي من جهة أخرى . وهكذا ابرزت اسرائيل ما حققته حرب ١٩٦٧ للسياسة الاميركية التي تبناها جونسون . وفاخرت بالضربة التي انزلتها بالثورة العربية ، وباغلاق قناة السويس امام الاسطول السوفيتي المتطلع للنفاذ الى المحيط الهندي . كما أبرزت عام ١٩٧٠ الدور الذي قامت به بالاصالة وكبديل عن الولايات المتحدة في أعقاب احداث ايلول في الاردن . وقد بالغ الارهابي مناحيم بيجين يومها في التبجح بهذا الدور حين عارض حزبه مشروع روجرز وشرح كيف وفرت اسرائيل على الولايات المتحدة تدخلها المباشر بعد أن استنفرت قواتها بأن حركت اسرائيل بعض قواتها في الجولان لتحاصر القوات السورية ، وكيف يمكن تشبث اسرائيل بعدم الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة من التضييق على التحرك السوفيتي في المنطقة وابقاء القناة مغلقة في وجه أسطوله البحري [١] . ويقول تلمون في شرح هذا المنطق « أراد العسكريون المتطرفون بيننا وبعض المتحدثين الرسميين عندنا اقناع الجمهور الاسرائيلي ووعظ الاميركيين بأن الولايات المتحدة بحاجة الينا ، بدرجة لا تقل وربما تزيد على حاجتنا اليها . لان كل الاستراتيجية العالمية للولايات المتحدة تفرض عليها ان تمنع الروس من الحصول على موطىء قدم في منطقتنا وفي المحيط الهندي وفي افريقيا . ونحن الدعامة المستقرة الرشيدة للنظام الدفاعي الاميركي من مراكش حتى الهند ، وربما حتى اليابان والآن يمطر النقد الشديد لغباء السياسة الاميركية الانتحارية ذلك ان الولايات المتحدة تعاملنا كدولة تابعة مزعجة ينبغي اجبارها على قبول الطاعة والولاء »[١] . وواضح ان هذا المنطق

---

(١) فصلنا هذه الامثلة في مقالات نشرناها في حينها وستصدر في الجزء الثاني من كتاب يوميات المقاومة .

(١) تلمون .. من دراسة حساب النفس .

يتحسب من المستقبل حين يحكى عن معاملة الولايات المتحدة هذه ، لانها لم تظهر بعد . ولقد كان مما أقلق تلسون ان كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة حين تكلم عن امكان الضمانة الاميركية لاسرائيل « عدد نواحي العلاقة الخاصة بينهما وبين اميركا ، علاقة عاطفية ، وكون اسرائيل ديمقراطية ، وحرص الولايات المتحدة على منع مؤامرة القضاء على دولة . ولم يذكر مصالح سياسية او استراتيجية مشتركة ابدا » وواضح ايضا ان هذا المنطلق الاسرائيلي لا يريد ان يلتفت الى التغيرات الدولية التي طرأت وتطور استراتيجيات الدفاع نتيجة لها . وهو مضطر بفعل تأثره بالنزوع الاسرائيلي الى التشدد والتطرف ان يستمر على خطوط ثابتة في تحركه . ومن هنا فهو قلق من تحولات السياسة الاميركية . وقد نقلت هاآرتس قول بعض المراقبين ان اسرائيل ستضطر الى الاختيار بين برنامج سلام يضر بمصالحها الامنية والاقليمية ، وبين صداقتها للولايات المتحدة » .

من المتوقع أن يؤدي هذا الوضع الى تركيز السياسة الاسرائيلية على وسيلة اخرى في تعاملها مع الولايات المتحدة الاميركية .. تلك هي التحرك الصهيوني داخل الولايات المتحدة للتأثير على سياستها الخارجية بمختلف السبل ، وممارسة التهديد والابتزاز ان لزم الامر . ومعلوم ان للحركة الصهيونية ثقل كبير في أوساط الاعلام والمال الاميركية، وهي تستغل نشاط يهود امريكا لتنفيذ مخططاتها . ويلاحظ بعض المراقبين ان هذا التحرك الصهيوني يقوم بدور خاص في تحريك فضيحة « ووترجيت » ويربطون بين الخط البياني لحركة الفضيحة وبين أحداث الصراع العربي الاسرائيلي[1] . ومن هنا يرد على ألسنة الاسرائيليين « تعبير الاملاء على

---

(١) نقلت الصحف بعد كتابة هذه السطور ما نشرته جريدة نيويورك تايمز الاميركية في ١٢-٥-٧٤ من ان نيكسون وصف مجموعة المحامين الذين يعملون لحساب المدعى فى القضية بأنهم « عصابة من اليهود » . وانه حذر معاونيه من وجود « شبكة من اليهود » داخل الحكومة وبين الصحفيين يتبادلون المعلومات .

اميركا » وقد استخدمه تلسون وهو يتساءل « هل نملي على الاميركيين » كما عبر عنه عاموس بيرلموتر عن هذا المنطق حين حث اسرائيل على ان تقول لا لاميركا وقال « ان سياسة الولايات المتحدة الخارجية تنطلق من دافعين متعلقين بشخصين هما نيكسون وكيسنجر . ونيكسون ينوء تحت وطأة « ووترجيت » وهو في موقف الدفاع اما كيسنجر فقد وقع في فخ سياسة تدعى الوفاق الدولي وقد خدعه السوفيت » وطالب بيرلموتر هذا بأن تقف اسرائيل كما وقفت فيتنام الجنوبية ودعا الى معارضة اميركا[٢] . ولنا ان نتوقع انتشار هذه الدعوة كلما نشط التحرك الاميركي لابرام تسوية؛ وهذا سيؤدي الى اندفاع التحرك الصهيوني داخل الولايات المتحدة لايقاف هذا النشاط .

ولكن هل يتوقع حدوث ضغط اميركي على اسرائيل ؟ وهل يستطيع التحرك الصهيوني ان يعطل مفعول هذا الضغط ؟

سبق ان أجبنا عن السؤال الاول وقلنا انه ليس لنا ان نستبعد حدوث ضغط اميركي في حدود التفاصيل التي ينحصر الاختلاف ضمنها . وهناك سابقة له حدث اثر عدوان ١٩٥٦ الثلاثي حين ساهم الضغط الاميركي في فرض انسحاب اسرائيل من سيناء وغزة ، ويومها اضطر بن جوريون للرضوخ . وقد تكررت بعد حرب ١٩٦٧ تصريحات المسؤولين الاسرائيليين التي تتحسب من احتمال حدوث ضغط اميركي ، وتمنى ديان ألا يأتي اليوم الذي تضغط فيه الولايات المتحدة على اسرائيل للانسحاب ، لانها قد تضطر حينذاك له . وأوضحنا ما يجعلنا لا نستبعد احتمال حدوث هذا الضغط ادراكنا ان السياسة الاميركية مع وجود مكان خاص لاسرائيل فيها الا انها تأخذ بعين الاعتبار مسؤولياتها الدولية وتتصرف باعتبارها دولة كبرى في

---

(٢) نشرة مؤسسة الدراسات في ١٦-١١-١٩٧٣ .

عالمنا المعاصر تنظر نظرة أشمل من النظرة الاسرائيلية الضيقة . وتنشغل بالحفاظ على مصالحها بالمنطقة .

اما بالنسبة للسؤال الآخر فواضح من متابعة السياسة الاميركية خلال ربع القرن الماضي ان للتحرك الصهيوني اثره القوى في توجيهها . وخصوصا في منطقة الوطن العربي . واستشعار الاسرائيليين لهذا الاثر القوي هو الذي يدفعهم للتفكير « بالاملاء » على الولايات المتحدة . ويلفت النظر ان الخبير الاستراتيجي الاميركي جون كامبل وهو يناقش احتمالات الصراع في ظل انفراج دولي متوقع قال « وقد تصر اسرائيل على حفظ ما يضمن أمنها بنفسها ، مما يجعلها تحاول اجبار الولايات المتحدة على اتباع سياسة مؤيدة لاسرائيل على الدوام ضد العرب »[1] . ولسنا هنا في مجال الحديث عن أساليب التحرك الصهيوني في الولايات المتحدة التي سيحاول بها تعطيل الضغط الاميركي والوصول الى الاجبار ، وقد تناولتها دراسات كثيرة من بينها تلك التي كتبها لينلنتال . ولكنا نشير الى المثل البارز امامنا اليوم في قضية نيكسون ووترجيت . ويبدو لنا مع ذلك ان التحرك الصهيوني في الولايات المتحدة على الرغم من فعالية اساليبه لن يكون قادرا على الوقوف فيوجه متطلبات الاستراتيجية الاميركية وفقا للتغيرات الدولية التي ستبقى قائمة ، وسيستمر هذا الاختلاف على التفاصيل بين المرد والجيب الاستعماري[2] . ولقد توقع جولدمان ان يطرأ بسبب ذلك « تعديل بسيط جدا في العلاقات الاميركية الاسرائيلية ، لان الولايات المتحدة لن تستطيع على المدى البعيد التسليم بعداء العرب الدائم، وستضطر الى تعديل سياستها ... ولكن هذا لا يعني بالتأكيد ان الولايات المتحدة ستتخلى عن اسرائيل ، فهي تضمن وجودها وأمنها ... »[1]

---

(١) الصراع السوفييتي الاميركي ص ٢٩٢ .

(٢) والكتاب ماثل للطبع أوصلت فضيحة ووترجيت الى استقالة نيكسون في أغسطس ١٩٧٤ .

(١) هاآرتس ١٧ـ١ـ١٩٧٤ عن نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية

ان اسرائيل وهي تعتمد في سياستها الخارجية تجاه امريكا الى التحرك الصهيوني داخل الولايات المتحدة كوسيلة من وسائلها الى جانب وسيلة الاقناع تعلم ان للولايات المتحدة هي الاخرى وسائلها للتأثير على السياسة الاسرائيلية : وتنشغل من ثم بالحد من هذا التأثير . وتأتي في مقدمة هذه الوسائل الامريكية المساعدات المالية التي تقدمها الولايات المتحدة لاسرائيل والتي بلغت أرقاما خيالية . ففي عام ١٩٧٣ قبل الحرب بلغت في مجموعها ٦٠٠ مليون دولار أضيف لها كمساعدة طوارىء بسبب الحرب مبلغ ٢ر٢ مليار دولار . ولم يلبث ان قدم سابير وزير المالية الاسرائيلي طلبا بمساعدات اضافية امريكية بحوالي مليار دولار . وقد قال معلقا على هذه الارقام وهو يقدم الميزانية الجديدة للكنيست : « ان معنى الحصول على هذا المبلغ الكبير من الولايات المتحدة ازدياد تعلقنا بدولة كبرى صديقة حقا . ولكن من المتوقع ان تكون لنا معها خلافات في الرأي » . وكان المحرر الاقتصادي لجريدة دافار قد علق على هذه الارقام بأنها « تجسد بوضوح اعتماد اسرائيل على الكرم الامريكي وسيؤدي كل تطور غير متوقع في الادارة الامريكية الى ذعر في اسرائيل . ويبدو ان الامريكيين مدركون أنه ليس هناك سوط أكثر فعالية من المساعدات .. واحدى ميزاته انه ليس هناك ضرورة حتى لهزه اذ يكفي وجوده.» وحفلت تعليقات نواب الكنيست والصحف على الميزانية بأنها تعني التعلق بالولايات المتحدة [١] . كما يعني استيراد السلاح من امريكا الاعتماد عليها ، ونلاحظ ان النقاش يحتدم في الاوساط الاسرائيلية حول الثمن السياسي للمساعدات الامريكية أبان حرب رمضان وبعدها .

ومن المتوقع أن تحاول اسرائيل الالتفات الى التأثر الامريكي على سياستها وضبطه والحد منه بتقديم قيادات اسرائيلية معروفة بميولها الامريكية القوية للصفوف الاولى في الحكم ، ولقد كان

(١) نشرة مؤسسة الدراسات للعدد ٩ في ايار وفي ١٠-٢-١٩٧٤ .

تقدم موشي ديان في عام ١٩٦٧ للصف الاول في الحكومة الاسرائيلية
ـسن هذه المحاولة ، وهو المعروف بأنه الامريكي الاول في اسرائيل .
ونلاحظ انه تحمل نصيبا كبيرا في العلاقات الامريكية الاسرائيلية خلال
السنوات التالية ، وحقق نجاحا للمصالح الاسرائيلية الامريكية المشتركة
على حساب علاقات امريكا بالعرب التي هبطت الى الحضيض . ويعزز
توقعنا هذا ان الولايات المتحدة ستحاول ان يتخذ تأثيرها صورة الايحاء
أكثر من الضغط المباشر . وقد كتب مراسل هاآرتس من واشنطن مؤخرا
وقبيل زيارة كيسنجر الثانية للمنطقة يقول: «يريد كبار الموظفين الامريكيين
أن يكون لاسرائيل رئيس حكومة شجاع وصاحب خيال ومرن ومحبوب
من الشعب ، كي يستطيع تنفيذ سياسة مرنة »[1] .. ونلاحظ ان محصلة
التوجهين الامريكي والاسرائيلي أوصلت الى ترشيح حزب العمل لاسحق
رابين كرئيس للحكومة بعد استقالة مائير ، وهو المعروف بأنه الامريكي
الثاني في اسرائيل ، وقد رحبت الولايات المتحدة علنا بهذا الترشيح ولنا
أن نتوقع من ثم بأن يكون خط السياسة الاسرائيلية الذي ترسمه هـذه
المحصلة هو التثبت بالارتباط بالولايات المتحدة وتقدير ظروفها في المنطقة،
مع التحايل وبمختلف الاساليب لاخضاع السياسة الامريكية للمصالح
الاسرائيلية . وقد وصف رابين في مناسبات عدة الولايات المتحدة بأنها :
« الصديق الوحيد الذي بقي لاسرائيل في العالم . ومن هنا علينا أن نرى
الخلاف مع الولايات المتحدة ليس في اطار الصدام ، وانما في اطار النقاش
بين الاصدقاء » .

ولكن الى أي حد يستطيع هذا الخط التوفيق بين قبول الاسرائيليين
بحل سياسي استجابة للولايات المتحدة وبين النزوع الاسرائيلي الواضح
في التشدد والتطرف المعبر عن طبيعة الوجود الصهيوني ؟

---

(١) هاآرتس فى ٢٣ــ٤ــ٧٤ عن نشرة مؤسسة الدراسات في ١ــ٥ــ١٩٧٤ .

اننا نتوقع ان يكون هذا التوفيق صعبا ، وان تبرز امامه عقبات وازمات وسيفتح ذلك كله الطريق للمتشددين كي يصلوا الى الحكم ويحولوا بقوة واستماتة اسلوب التحرك الصهيوني داخل الولايات المتحدة بنية الاملاء والاجبار بدلا من الحوار . وهكذا يمكننا ان نخرج من هذا الحديث بأن الخط العريض للعلاقات الاسرائيلية الاميركية سيبقى كما هو مع حدوث تعديل بسيط جدا ــ على حد تعبير جولدمان ــ في تفاصيل العلاقة واستمرار ضمان الولايات المتحدة لوجود اسرائيل وأمنها ، وتفاقم التوتر بسبب ذلك في المنطقة الى حد سيفرض على الولايات المتحدة وقفة أخرى تراجع فيها حساباتها .

ونعرض للعلاقات الاسرائيلية السوفيتية لنتعرف على مستقبلها . فنجد بداية ان السياسة الاسرائيلية في توجهها نحو الاتحاد السوفيتي تنطلق من ادراك وزنه الدولي في عالم الغد وتأثيره في منطقة الوطن العربي، ويحكمها في الوقت نفسه ارتباط اسرائيل بالولايات المتحدة والعلاقات الاميركية السوفيتية . كما يؤثر على توجهها وجود امتداد للصهيونية العالمية بين يهود الاتحاد السوفيتي .

ولقد تدهورت العلاقات الاسرائيلية السوفيتية في أعقاب حرب ١٩٦٧ ، وكان من مظاهر هذا التدهور قطع الاتحاد السوفيتي للعلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل . وغلب على السياسة الاسرائيلية تجاه الاتحاد السوفيتي خلال سنوات السكرة بالنصر بعد ٦٧ طابع التطاول والتحدي وأسلوب الابتزاز معبرة عن الجو النفسي الاسرائيلي في تلك الفترة ومؤدية دور للسياسة الاميركية ، وخصوصا لغلاة المعادين للاتحاد السوفيتي من الاميركيين . ولبس التعبير عن هذه السياسة ثوب الغوغائية «الديماغوجية» وهكذا تعالت تصريحات ديان وغيره من قادة اسرائيل تنال من الاتحاد السوفيتي وقوته وأسلحته . وتتابعت حملات الصهيونية العالمية على الاتحاد السوفيتي في الصحف الغربية والمحافل الدولية . وكان تركيزها على تهجير

اليهود السوفيت الى فلسطين المحتلة . ولكن ذلك كله لم يمنع من متابعة الخارجية الاسرائيلية مساعيها لعودة العلاقات مع الاتحاد السوفيتي وفقا لشروط تناسب اسرائيل . وقد ساهمت قيادات الصهيونية العالمية في هذه المساعي .

لنا ان نتوقع استمرار هذه المساعي مستقبلا وخصوصا وسط التحركات الدولية للوصول الى تسوية . وهناك وجهة نظر صهيونية قوية يعبر عنها جولدمان تتفاءل « بامكانية عودة العلاقات الاسرائيلية السوفيتية الى وضعها الطبيعي في اللحظة التي يتم فيها التوصل الى تسوية، بل وبامكان ان تصبح العلاقات ودية بينهما بعد عقد اتفاقية سلام » . وتقوم وجهة النظر هذه على استنتاج يشرحه جولدمان بقوله : « في ضوء محادثات عديدة وصريحة مع دبلوماسيين سوفييت كثر يمكنني استنتاج ان الاتحاد السوفيتي ليس بعيدا فقط عن أية سياسة غرضها تصفية اسرائيل ؛ بل هو يسعى بحماس لضمان مستقبل الدولة . والمساهمة في تحسين مثل هذا الضمان ، لان له مصلحة ذاتية كبيرة في استمرار وجود اسرائيل على الرغم من توجه السياسة الاسرائيلية نحو الغرب أكثر فأكثر . وذلك لان اسرائيل كانت العامل الرئيسي الذي مكن من التغلغل السوفيتي في الشرق الاوسط . ودون دولة يهودية كان معظم العالم العربي مواليا لاميركا»[1] . وتستشعر وجهة النظر الصهيونية هذه أهمية هذه النتيجة لان اسرائيل « لا تضطر عندها من جديد الى ضمان وجودها والارتباط بالمساعدة المالية والسياسية والعسكرية الاميركية » والحق ان السياسة الخارجية الاسرائيلية كانت على الدوام واعية أثر الضمان الدولي على وجودها . مثلما وعت امكانية الاستفادة من الصراع بين الدولتين الكبيرتين في تأمين دعم أكبر لها من الولايات المتحدة . وهذا يعني ان اسرائيل وهي تؤدي دورا

---

(١) هاآرتس في ١٣-١-٧٤ عن نشرة مؤسسة الدراسات في ١-٢-١٩٧٤ .

للسياسة الاميركية في المنطقة تحرص على أن يستمر الاتحاد السوفيتي على الاعتراف بمبدأ وجودها : وتتصور ان هذا الوجود في حد ذاته يشكل خدمة للاتحاد السوفيتي ولو بصورة غير مباشرة حيث مكنته من التغلغل في المنطقة . ولقد عبر تالمون عن رؤية العلاقات الاسرائيلية السوفيتية مستقبلا بقوله « ان العداء الروسي يبسط ظله الثقيل على جميع الاحتمالات والمشاريع . وهناك قدر من المعقولية في القول انه حتى لو لم يصمم الاتحاد السوفيتي على تصفية دولة اسرائيل التي يكرهها ، فمن المؤكد انه ينوي الابقاء على التوتر من حولنا ومن اجل ذلك فهو بحاجة الى ذريعة يمنحها له وجودنا . ومع ذلك هناك قيود شديدة للعداء الروسي منها حاجته الحيوية الى التعاون مع الولايات المتحدة والخوف من الصين ومصلحة البلاد العربية المحافظة في الوجود الاميركي كوزن مضاد لروسيا : واخيرا كابوس الحرب النووية »[1] .

وهكذا يتضح لنا ان الهدف الاسرائيلي للسياسة الاسرائيلية مع الاتحاد السوفيتي هو استمرار اعترافه بمبدأ وجودها . ثم هناك اهداف أخرى في مقدمتها موافقته على تهجير اكبر عدد ممكن من اليهود السوفيت وخصوصا من الخبراء والفنيين ومنها اقامة علاقات تعاون تستهدف في النهاية ان يعترف الاتحاد السوفيتي لاسرائيل بدور في المنطقة .

ولكن الى اي مدى ستنجح هذه المساعي الاسرائيلية في تحقيق أهدافها هذه ؟

لقد سبق ان توقعنا ان يؤيد الاتحاد السوفيتي التسوية السليمة : وهذا يعني استمرار اعترافه بمبدأ وجود اسرائيل كدولة . ولكن هذا التأييد لا يعني عدم اصطدامه بالنزوع الاسرائيلي نحو التطرف والتشدد. كما ان ممارسة الصهيونية الضغط على الاتحاد السوفيتي لتهجير اليهود

---

(1) طلمون .. دراسة حساب النفس .

السوفييت سيكون سببا في توتر العلاقات الاسرائيلية السوفيتية هذا فضلا عن ان سوء علاقات اسرائيل بالاتحاد السوفيتي خلال السنوات الماضية اوجد حاجزا سيصعب على المساعي الاسرائيلية اختراقه . وأهم من ذلك كله ان هذه المساعي ستصطدم بالعلاقات السوفيتية العربية وما تعبر عنه من مصالح أصيلة ودائمة للاتحاد السوفيتي في المنطقة . خصوصا وان تطور هذه العلاقات قد يؤدي الى ان يعيد الاتحاد السوفيتي النظر في موقفه القائل بمبدأ الاعتراف باسرائيل متأثرا بتنامي القوة العربية في عالم الغد وبموقف الصين الشعبية المنافسة له وبتطلعه الى التعاون مع العالم الثالث .

وتأتي لعلاقة اسرائيل بأوروبا الغربية وهي علاقات تستشعر السياسة الاسرائيلية أهمية خاصة لها وتضعها في المرتبة التالية لعلاقاتها بالولايات المتحدة وهي تنبع في أصولها من حقيقة كون اسرائيل تجسيدا لاستعمار استيطاني اوروبي ومن طبيعة التحالف بين الصهيونية والاستعمار الاوربي. وقد رأينا ان اوروبا الغربية ستتوزع في المستقبل بين متطلبات مصالحها مع الوطن العربي وبين تأثير الصهيونية في داخلها حين تتعامل مع الصراع العربي الاسرائيلي . فكيف ستتحرك السياسة الاسرائيلية في اوروبا الغربية مستقبلا ؟

تتعدد مجالات ارتباط اسرائيل بأوروبا الغربية ، وتشمل الاقتصاد والسياسة والاستراتيجية والسكان . ويكفي ان نشير بايجاز الى ارتباط اسرائيل اقتصاديا بالسوق الاوروبية المشتركة التي لها حصة رئيسية في صادرات اسرائيل ، وقد أبرمت معها بعد حرب ١٩٦٧ اتفاقية تفضيلية[1] . كما وقعت السوق بروتوكولا ينظم علاقاتها باسرائيل لفترة انتقالية ريثما

---

(١) يراجع ما كتبه المحرر الاقتصادي لنشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية عن علاقة اسرائيل بالسوق الاوروبية المشتركة بتاريخ ١-٣-١٩٧٢ لمزيد من المعلومات عن هذا الارتباط .

يتم توقيع اتفاقية شاملة بين السوق ودول المنطقة العربية . ونشير ايضا الى ارتباط اسرائيل باستراتيجية حلف الاطلسي في المنطقة والى تغلغلها في السياسات الاوروبية عن طريق الصهيونية ، ومن خلال الاحزاب الاشتراكية خصوصا ، ثم الى نفوذها عن طريق يهود اوروبا النشطين الذين استقطبتهم الحركة الصهيونية وسيطرة هؤلاء على وسائل توجيه الرأي العام الاوروبي .

ونلاحظ انه حين حدث شيء من التحول في مواقف بعض الدول الاوروبية من الصراع مؤخرا فانه تم على المستوى الحكومي ولم يظهر له انعكاس واضح على مستوى الرأي العام في تلك الدول . وذلك لاسباب من بينها نفوذ الحركة الصهيونية في توجيه الرأي العام ويمكننا ان نلاحظ الظاهرة نفسها في دول اوروبا الشرقية[1] . وقد برزت الظاهرة في أوروبا الغربية خلال حرب رمضان ودللت استطلاعات الرأي العام فيها على تأييده اسرائيل . وكانت نتائج واحد منها ٤٨ بالمائة في لندن أيدوا اسرائيل بينما أيد العرب ٥ بالمائة . وفي باريس ٤٥ بالمائة مقابل ١٦ بالمائة ، وفي بون ٥٧ بالمائة مقابل ٨ بالمائة ، وفي روما ٤٣ بالمائة مقابل ١٦ ، وفي لاهاي ٧٣ بالمائة مقابل ٦ بالمائة[2] .

من المتوقع ان تركز اسرائيل في سياستها الاوروبية على استغلال هذه الظاهرة ، والقيام بما أسمته اجهزة الاعلام الاسرائيلية « غزو الرأي العام في اوروبا الغربية » . ولكن من المتوقع ايضا ان تتسع القطاعات الاوروبية المتفهمة للحق العربي مع تنامي المصالح الاوروبية العربية المشتركة ، مع استمرار مقاومة شعب فلسطين العربي وبروز القوة العربية وغلبة المثل الجديدة في عالم الغد . وقد لاحظ المراقبون الاسرائيليون ان مكانة

---

(١) شرحنا هذه الظاهرة في كتابنا « يوميات المقاومة » وفصلنا اسبابها .
(٢) نشرة مؤسسة الدراسات في ١-١-١٩٧٤ .

اسرائيل في المانيا تدهورت بالمقارنة بسنة١٩٦٧ لان اليسار الجديد والنفور من الاحتلال ابعد عنها قطاعات كبيرة من الجيل الناشيء والشباب المثقف . والحق ان الشباب في اوروبا عموما اكثر استعدادا لفهم طبيعة الصراع والتحول لتأييد الحق العربي .

كما تتوقع ان تركز اسرائيل على استغلال ارتباطها بالسوق المشتركة ليس للقفز على المقاطعة العربية فحسب ولكن لتجعل من هذا الارتباط قضية ضد المقاطعة العربية . ومع ان سلطات بروكسل تجاوبت مع اسرائيل حين أصرت على تضمين اتفاقياتها مع دول البحر المتوسط بندا يضرب المقاطعة العربية . الا اننا نتوقع ان تعود دول السوق عن اصرارها وتعيد النظر في موقفها على أساس ما برز من قوة للموقف العربي الواحد . وستحاول اسرائيل جهدها لعرقلة مساعي التعاون العربي الاوروبي الذي ألحت فكرته بعد حرب رمضان .

ونتوقع ايضا ان تتابع اسرائيل مساعيها لدخول حلف الاطلسي ؛ وهي مرشحة لعضويته . لتحقيق مزيد من الارتباط بأوروبا الغربية والولايات المتحدة . وستطرح نفسها على أساس انها تستطيع « الدفاع » عن «الجبهة الجنوبية الى جانب تركيا وايران ضد هجوم سوفياتي مفاجيء». ولكن الى اي مدى سينجح هذا المنطلق مع المتغيرات الدولية التي سيشهدها عالم الغد خصوصا ان حدث تحول في موقف كل من تركيا وايران ؟

كذلك ستتابع اسرائيل الاهتمام بعلاقاتها بالاحزاب الاشتراكية الاوروبية ؛ وستتفاءل بوصولها الى الحكم في دولها . ولكن الى أي مدى تستطيع هذه الاحزاب انتخرج عن المصالح الثابتة لدولها حين تتولى الحكم؟ هذا ان لم تشهد هي نفسها تحولات في داخلها في النظرة للصراع . وامامنا الآن مثل لحكومة ويلسون في بريطانيا وحكومة شميت بعد برانت في المانيا .

هذا وستعمد اسرائيل الى متابعة سياسة الابتزاز مع المانيا الغربية ، وتتوقع ان يضعف مفعول هذه السياسة مستقبلا بين الالمان .

وستبرز سياسة الابتزاز الاسرائيلية هذه في علاقات اسرائيل باليابان على الخصوص . واذا كانت الورقة التي تستخدمها اسرائيل مع المانيا لابتزازها هي ما تزعمه من « مسؤولية الشعب الالماني عن الكارثة اليهودية في أوروبا » فان الورقة التي تستخدمها مع اليابان مكشوفة وهي « ضغط يهود العالم ـ وخصوصا يهود الولايات المتحدة ـ على اليابان » .

تتوقع أن تندفع السياسة الاسرائيلية في استخدام هذه الورقة تعبيرا عن انفعالها من حدوث ما تسميه « خرق التوازن الحساس بصورة فظيعة في الموقف الياباني » . ومعلوم ان اليابان أقامت علاقات دبلوماسية مع اسرائيل في عام ١٩٥٢ ، واتسع نطاق التبادل التجاري بينهما بعد فتح مضيق تيران اثر حرب ١٩٥٦ ، ولكن اليابان اتخذت مع ذلك موقفا رأته السياسة الاسرائيلية محايدا وانتقدت فيه الاستجابة اليابانية لبعض طلبات المقاطعة العربية . ومن اجل ذلك مارست المنظمات الصهيونية مرات عديدة الضغط المضاد على اليابان وأجبرت شركات يابانية على التراجع . وتدرك السياسة الاسرائيلية مدى تأثير الموقف النفطي العربي على اقتصاديات اليابان ، ولذلك نراها تتهيؤ لمجابهته بالضغط اليهودي على اليابان . وقد عرض بن عامي شيلوني أستاذ التاريخ الياباني المعاصر في الجامعة العبرية للاضرار التي تلحقها المقاطعة العربية النفطية بالاقتصاد الياباني ثم أوضح ان حكومة اليابان « تعرف انها اذا ما قطعت علاقاتها باسرائيل فقد تواجه مقاطعة منظمة أشد تأثيرا» . ويضع مهندسو السياسة اليابانية نصب أعينهم « العراقيل » التي يسببها يهود الولايات المتحدة للمعاهدة التجارية مع روسيا[1] .

---

(١) هاآرتس ١٢ـ١٢ـ١٩٧٣ عن نشرة مؤسسة الدراسات في ١ـ١ـ١٩٧٤ .

ولكن الى أي مدى ستنجح اسرائيل في سياستها هذه ؟

اننا نتوقع أن يكون تأثر اليابان بالموقف العربي أكبر وسيتجلى ذلك في موقف أكثر تقدما من الموقف الحالي في انصاف الحق العربي . وقد ظهرت تباشير هذا الموقف بعد حرب رمضان استجابة لوقفة العرب النفطية. ذلك لانه على الرغم من أهمية السوق الاميركية للمصدرين اليابانيين ، ولتأثير يهود اميركا على هذه السوق فان لمصالح اليابان في منطقة الوطن العربي المتزايدة وللاتجاهات اليابانية الثابتة المؤيدة للحق العربي ولما سيطرأ على العلاقة بين الصهيونية واميركا تأثيرا أكبر بكثير على السياسة اليابانية .

وعلى الرغم من موقف الصين المبدئي من الكيان الاسرائيلي والنظر اليه كاستعمار استيطاني وعدم الاعتراف به، فاننا نتوقع ان تستمر محاولات اسرائيل والصهيونية العالمية لاقامة علاقات مع الصين . فالسياسة الاسرائيلية تدرك ما للصين من أهمية في عالم الغد . وستعتمد في محاولاتها هذه على يهود العالم ومساعي الولايات المتحدة ودول اوروبا الغربية . وقد اهتمت اسرائيل اهتماما كبيرا بما حدث من تطور في العلاقات الاميركية الصينية وظهر ذلك في الصحف الاسرائيلية بمناسبة زيارة كيسنجر ثم نيكسون للصين . ومن المتوقع ان تصطدم هذه المحاولات بصعوبات كثيرة ، وان تتابع الصين تأييد الحق العربي مع تنامي العلاقات العربية الصينية . ولا نتوقع أن ترد فكرة اعتراف الصين باسرائيل ما دام العرب يرفضون الاعتراف بها .

وعلى الرغم ايضا من الصدمات التي لاقتها السياسة الاسرائيلية في بعض دول العالم الثالث ، ومن طبيعة المواقف المؤيدة للحق العربي التي يمكن لهذه الدول ان تتخذها ، فان اسرائيل لن تجد مناصا من استمرار محاولة النفاذ الى العالم الثالث بأساليب مختلفة . فالسياسة الاسرائيلية

تدرك أهمية العالم الثالث المتزايدة في عالم الغد . وهي تدرك ايضا اهميته الاستراتيجية بالنسبة لها على الخصوص وقد مارست تجربة فيه منذ قيامها .

ستتابع السياسة الاسرائيلية تركيزها على علاقاتها بتركيا وايران واثيوبيا التي أوضحنا ما لها من أهمية خاصة في الصراع العربي الاسرائيلي. وستعمل على تنمية هذه العلاقات مستغلة لدى ايران على الخصوص توتر العلاقات الايرانية العراقية ومصالح اقتصادية يقف وراءها ممولون يهود . وسيكون هدفها الرئيسي تعطيل مشاركة العراق في الجهد العربي لحسم الصراع بشغله في المشكلة الكردية وبشاكل الحدود . ومن أهدافها أيضا أن تحصل على النفط الايراني لسد حاجاتها من الوقود ، وان تكون لها علاقات مع دولة تجاور حقول النفط في الخليج والجزيرة العربية . ولقد نجحت السياسة الاسرائيلية كما سبق ان اوضحنا في تنمية علاقاتها بايران خلال الستينات ابان اشتداد التوتر في العلاقات العربية الايرانية . ولكن هذا التوتر خف مؤخرا وسيكون على السياسة الاسرائيلية ان تتوقع ظروفا جديدة تحيط بايران مما سيجعل تحركها مع دولة تقع ضمن الدائرة الاسلامية أكثر صعوبة مستقبلا . ويصدق هذا على علاقات اسرائيل بتركيا التي تقع ضمن الدائرة الاسلامية والتي تحسنت علاقاتها العربية في الستينات بعد أن ساءت في الخمسينات بسبب انضمامها لسياسة الاحلاف الغربية . وتتوقع ان تستميت السياسة الاسرائيلية للتغلغل والنفاذ في اثيوبيا التي تسيطر على الساحل الاريتري الطويل على البحر الاحمر . لتجد لاسرائيل قواعد تهدد منها الجزيرة العربية وتكون فيها على مقربة من مضيق باب المندب . وقد اقامت اسرائيل بعض هذه القواعد وعملت على مجابهة الثورة الاريترية مستشعرة اخطارها عليها . واستغلت وجودها في اديس أبابا مركز المنظمة الافريقية للتجسس على السياسات الافريقية. ولكن أثيوبيا قطعت بعد حرب رمضان علاقاتها باسرائيل شعورا منها بوجوب مصالحة

العرب وبخطر سياسة الاعتماد على اسرائيل انسجاما مع الموقف الافريقي الواحد الذي اتخذته منظمة الوحدة الافريقية . ومن المتوقع انها ستعطي اهمية أكبر لعلاقاتها العربية وفي اعتبارها ما تعانيه من أزمة النفط . الامر الذي سيوجد صعوبات امام التحرك الاسرائيلي فيها .

ولقد كانت الصدمة التي لاقتها السياسة الاسرائيلية في القارة الافريقية والتي بلغت مداها عام ١٩٧٣ حين قطعت غالبية الدول الافريقية علاقاتها الدبلوماسية باسرائيل . ولذلك نجد انها كانت محل مناقشات متتالية في الاوساط الاسرائيلية . فبعد ان اعلن أبا ايبان وزير الخارجية الاسرائيلي في فبراير ١٩٧٣ ان اسرائيل لا تزال ممثلة في ٢٧ دولة افريقية بعشرين سفيرا مقيما ، ناقش مؤتمر سفراء اسرائيل في افريقيا الذي عقد في أغسطس اسباب قطع عدد من هذه الدول علاقاتها باسرائيل . ولم تنته حرب رمضان حتى كانت غالبية الدول الافريقية قد قطعت علاقاتها باسرائيل.

على الرغم من هذه الصدمة الكبيرة فان السياسة الاسرائيلية ستحاول معاودة الكرة لتتغلغل في افريقيا . وقد كشفت المناقشات التي دارت في الاوساط الاسرائيلية عن اهتمام كبير بالقارة البكر لما فيها من ثروات ، ولما لها من أهمية استراتيجية كعمق للوطن العربي . وأوضحت اسباب الفشل الذي أصاب السياسة الاسرائيلية ومن أهمها ان المساعدات الاسرائيلية كانت استعراضية ، وكانت مساعدة رجل أبيض اوروبي، وارتبطت بالوجود الغربي في القارة . وقد جاء انحسار النفوذ الغربي مع نمو العلاقات العربية الافريقية مع موقف فرنسا من احتلال اسرائيل للاراضي العربية عام ١٩٦٧ مع استمرار هذا الاحتلال ليضعف البناء الذي اقامته اسرائيل في أفريقيا .

ويبدو ان توجه اسرائيل هذه المرة سيأخذ بعين الاعتبار بقايا البناء ، وسيركز على البحث عن حلفاء أوروبيين . وقد طالب برئيلي في دافار

« مساعدة كل مبشر مسيحي في افريقيا ، كاثوليكيا كان أم بروتستينيا ، اميركيا أم أوروبيا لانه لا مجال للتفكير في تهويد الافريقيين » كما سيهتم بالشباب وبالاعلام . ولكنه سيضع في الاعتبار الاول توثيق علاقات اسرائيل بالكيانات العنصرية الشبيهة بها في افريقيا ، وهي جنوب افريقيا والمستعمرات البرتغالية وروديسيا . لان ذلك على حد قول هرتزوج السبيل الى كسر العزلة في افريقيا . ومعلوم ان العلاقات بين اسرائيل وجنوب افريقيا قوية جدا وهي تشمل تعاونا واسعا في المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية ، وتعبر عن طبيعة التكوين الواحد كوجود استعماري استيطاني اوروبي[1] وطبيعي ان هذا التوجه المعبر بصدق عن السياسة الاسرائيلية سيؤدي الى مزيد من كشف اسرائيل في افريقيا .

وستنشغل السياسة الخارجية الاسرائيلية بعلاقات اسرائيل بدول امريكا اللاتينية . وقد استطاعت قبل حرب رمضان ان تقيم علاقات قوية مع أكثر هذه الدول ، واهتمت بتوثيق هذه العلاقات عن طريق ايفاد البعثات الفنية والخبراء والمساهمة المالية في المشاريع الانشائية والتنمية الزراعية . كما اهتمت بتوثيق علاقاتها بيهود تلك الدول لتستغلهم في نفاذها الى الحكم والسلطات ولتشجع تهجير اعداد منهم الى اسرائيل . ومعلوم ان عدد يهود اميركا اللاتينية هو ٨٠٠ ألف نسمة . وقد سارت سياسة اسرائيل تجاه هذه الدول وفق السياسة الاميركية ، وحققت نجاحا مع الانظمة اليمينية العسكرية التي كانت تبدي اعجابا بقوة اسرائيل العسكرية وتقدمها العلمي على حد قول صحيفة جيروزاليم بوست . وكانت لاسرائيل

---

(١) تراجع نشرات مؤسسة الدراسات في ١٦-٢-٧٣ و ١١-٩-٧٢ و١-١-٧٣ وبراجع مقال جورج طعمة حول جنوب افريقيا واسرائيل فى مجلة شؤون فلسطين ديسمبر ١٩٧٣ .

علاقات وثيقة بالبرازيل وعلاقات حسنة بالارجنتين واورغواي والمكسيك وكوبا[1] .

ولكن هذه العلاقات ما لبثت ان وقفت على حافة التغيير اثر حرب رمضان اذ وجدت اسرائيل نفسها معزولة في اميركا اللاتينية ؛ « فباستثناء دولتين ظلتا تؤيداها ؛ أصبحت باقي الدول محايدة او فاترة . أو معادية تماما » وقد أوردت الدراسات الاسرائيلية سببين لهذا التغيير هما انضمام بعض هذه الدول الى كتلة عدم الانحياز ؛ ومسألة النفط . ومن المعلوم ان كوبا اعلنت قطع علاقاتها باسرائيل في مؤتمر عدم الانحياز الاخير الذي انعقد في الجزائر قبيل الحرب . وتتخوف بعض الاوساط الاسرائيلية من احتمال انتصار قوى يسارية في انتخابات ١٩٧٦ . ومن تزايد نشاط العرب في اميركا اللاتينية وازدياد قوتهم الاقتصادية الذي يؤثر في ازدياد قوتهم السياسية . وقد ضايق اسرائيل انتصار البيرونية في الارجنتين وتوجهها للعمل مع كتلة الدول غير المنحازة كما ضايقها ان تقطع جويانا بعد كوبا علاقاتها بها .

وستحاول السياسة الاسرائيلية ان توقف هذا التغيير باللجوء الى النفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة ليقوم بالتأثير على دول اميركا اللاتينية ، ويزيد من التركيز على يهود اميركا اللاتينية ، ولكن من الواضح انها ستقابل صعوبات كبيرة بعد ان طرحت حرب رمضان معطياتها الجديدة وهزت مكانة اسرائيل في العالم .

*

بعد هذا الحديث عن سياسة اسرائيل الخارجية في المرحلة القادمة نأتي الى موضوع هام تنشغل به السياسة الاسرائيلية انشغالا كبيرا . ذلك

---

(١) نشرة مؤسسة الدراسات ١-١٢-٧٢ ويبلغ يهود البرازيل ٦٠ الف والارجنتين ٤٧٥ الف واورجواي ٥٢ الف والمكسيك ٤٠ الف وكوبا ١٢ الف وقد هاجر ٤٠ الف يهودي من سيلي ابان حكم الرئيس الليندي .

هو علاقات اسرائيل بالعرب عموما وبعرب فلسطين خصاصا في المستقبل القريب . وواضح ما لهذا الموضوع من تأثير مباشر على مستقبل الصراع في المنطقة .

ألح هذا الموضوع على السياسة الاسرائيلية دوما . واشتد الحاحه بعد حرب ١٩٦٧ وبروز وجود شعب فلسطين العربي من خلال تصاعد مقاومته ، فكان محل التفكير والنقاش . ويكفي ان نتتبع المناقشات الاسرائيلية حول هذا الموضوع قبل عام من حرب رمضان لنلاحظ الحاحه. فقد ظهرت كتابات كثيرة في اسرائيل بمناسبة سنوات خمسة على احتلال الضفة الغربية وغزة والجولان وسيناء تناقش حصيلة الاحتلال ومستقبله وشاركت رئيسة الوزراء وعدد من القادة في النقاش بتصريحات حول الموضوع ثم نشرت الصحف الاسرائيلية نقاشا دار بين مفكرين اسرائيليين حول مستقبل المناطق المحتلة وحقوق الشعب الفلسطيني . وعقدت ندوة لرؤساء اركان الجيش الاسرائيلي السبعة السابقين ناقشت الموضوع ، ودارت في أوساط حزب العمل مناقشات عرض فيها قادة اسرائيل آراءهم في مستقبل المناطق العربية وفي قضايا الصراع العربي الاسرائيلي[1] .

ويمكننا ان نلاحظ ايضا من خلال تتبع هذه المناقشات ودراسة السياسة الاسرائيلية ان لهذا الموضوع حساسية خاصة في أوساط العدو فضلا عن الحاجة عليه ، وان معالجته يحكمها منطق الهوى ويتحكم فيها الانفعال ، وان الاختلاف حوله شديد في التفاصيل والنقاش محتدم ويتناسب مع قوة الموقف العربي . واذا كان تفسير الحاح الموضوع هو ما له من تأثير مباشر على الصراع ، فان حساسيته نابعة من انه يتعلق بأصحاب الحق الذين استهدفتهم الغزوة الصهيونية . وهو يطرح دوما أصل القضية ولذلك يحكم معالجته منطق الهوى ويتحكم فيها الانفعال . وما ظاهرة

---

(١) عرضت نشرات مؤسسة الدراسات هذا النقاش في اعدادها من اكتوبر ٧٢ الى اكتوبر ١٩٧٣.

الاختلاف على التفاصيل الا تعبير عن الحيرة والتخبط ازاء شعور غامض بوجود طريق مسدود . وهي ظاهرة تتكرر في تجارب الاستعمار الاستيطاني حين تقوى مجابهة اصحاب الحق له .

لقد وقفت السياسة الاسرائيلية من العرب عامة وعرب فلسطين خاصة موقفا صاغته الحركة الصهيونية . قوامه انكار وجود شعب فلسطين العربي واستهدف العرب بالعداء . للتمكين لغزوتها في المنطقة . وكان همها ان تتابع ضرباتها للعرب « الذين لا يفهمون لغة أخرى » ما دامت تعمل على احلال « يهود مكان عرب .. وسيادة مكان سيادة » . وقد ضخمت سياستها العدوانية هذه وهم عنصر الامن اللازم لها « ففضلته على السلام » وانساقت وراء أطماعها غير المحدودة . وغلبت الاصوات السكرى بالعسكرية الاسرائيلية على الاصوات القليلة التي طرحت سؤال ما بعد بقلق . وطرحت في المحافل الدولية مقولات غريبة لتبرير سياستها هذه واستهترت بالمنطق . وعلى الرغم من ان حرب الاستنزاف وتصاعد مقاومة شعب فلسطين العربي بعد حرب ٦٧ هزا مفاهيم صهيونية كثيرة فان هذا الموقف من العرب وعرب فلسطين بقي غالبا حتى كانت حرب رمضان[١] .

سبق لنا في القسم الاول من الحديث ان عرضنا لأثر حرب رمضان على هذا الموقف الاسرائيلي . وقلنا ان الحرب تبدو نقطة تحول بالنسبة للوجود الاسرائيلي الاستعماري سواء في نظرته للعرب أو في نظرته لمستقبله بينهم . ذلك ان الحرب فرضت على الاسرائيليين مراجعة للنفس . ومن خلال المراجعة جرى تقويم الموقف الاسرائيلي الذي صاغته الحركة الصهيونية وارتفعت اصوات تطالب برؤية الحقائق . وفي مقدمتها حقيقة وجود شعب فلسطين العربي . وكان طبيعيا ان يصل التقويم الى ادانة

---

(١) شرحنا هذا الموقف الصهيوني في « يوميات المقاومة » مفصلا وبحثنا جميع الكتب الصهيونية بأمثلة عليه .

الموقف ، وقد أوضح تلمون في دراسته هذا الاتجاه الذي ظهر بعد الحرب فقال « ينبغي ان نجرؤ على رؤية حقائق خطرة وغير سارة ومربكة . نراها كما هي ولا نتهرب منها . وينبغي ان نبني عليهـا شبكة عـلاقات بدل ان نبنيها على الاوهام والسيف وخصوصا اذا لم تكن لدينا القوة والامكانية لازالة جيراننا من العالم وكأنهم لم يكونوا ... لقد فرض حظر وتحريم عـلى اسم « الفلسطينيين » من خلال ذريعة مدهشة وهي اننا باسماع هذه الكلمة السحرية نشجع زعماء المنظمات على المطالبة بحق الفلسطينيين في فلسطين بأسرها . والنتيجة اننا مكنا لهذه المنظمات »[1] .

اذن ماذا سيكون الموقف الاسرائيلي من العـرب وعرب فلسطـين مستقبلا ؟ وكيف تتصور اسرائيل علاقاتها بالعرب ؟

يحكم موقف اسرائيل من العرب وعلاقاتها بهم التوجه العام لها بعد حرب رمضان . وقد رأيناه توجها نحو مزيد من التشدد والتطرف في اتجاه العدوان متشبثا بالهدف الصهيوني الاصيل ؛ ووجدنا امثلة كثيرة عليه في برامج الاحزاب والكتل الاسرائيلية للانتخابات الاخيرة . وهكذا يظهـر هذا التوجه في الموقف الاسرائيلي من العرب مقترنا بما جد بعد الحرب في نظرته لهم او لمستقبل الوجود الاسرائيلي .

يبدو هـذا بوضوح حـين ننظر فيما تضمنته برامج الاحزاب بشأن موضوع العلاقات العربية، وفيما يصدر من كتابات وتصريحـات حـول الموضوع.. فبرنامج حزب العمل تضمن لاول مرة في تاريخه حديثـا عن الكيان الفلسطيني واعترف لاول مرة ايضا بالهوية الفلسطينية في وثيقـة رسمية صادرة عنه. وقد اضطر الى ذلك بعد انافلس اسلوب انكار الوجود الفلسطيني. ولكنه وقد اعترف بالهوية الفلسطينية يشترط لتحقيقهـا ان تكون جزا من الدولة الاردنية، متشبثا بموقف قديم له، ويرفض «قيـام

---

(١) من دراسة حساب النفس .

دولة عربية فلسطينية منفردة اضافيـة غربي الاردن.» ونشير هنـا الى ان المتتبع لتصريحات لجولدا مائير حتى حرب رمضان يلاحظ انكارها المستمر للوجود الفلسطيني ورفضها الشديد لقيام دولة فلسطينية. وقد عـالجت وثيقة حزب العمل مشكلة الوجود الفلسطيني التي تؤرق الاسرائيليين بالنص على ان اتفاق السلام مع الاردن يقوم «على اساس وجود دولتين مستقلتين. اسرائيل وعاصمتها القدس الموحدة. ودولة عربية الى الشرق منها. وفي الدولة الاردنية الفلسطينية المجاورة. يمكن للهويـة الذاتيـة للعرب الفلسطينيين والاردنيين ان تعبر عن نفسها. من خلال سلام وعلاقات جوار جيدة باسرائيل. وترفض اسرائيل قيام دولة عربية فلسطينية منفردة اضافية غربي نهر الاردن.» ويلاحظ على النص التشبث الاسرائيلي باغتصاب القدس والتوزع بين الاعتراف بالوجود الفلسطيني وبين التخوف من نتائجه..وقد تقدم حزب مبام الشريك الاصغر لحزب العمل في التجمع العمالي خطوة صغيرة عن هذا الموقف حين نص أنه في نطاق الدولة العربية المستقـلـة شرقي اسرائيل يمارس الشعب العربي الفلسطيني حقه فـي تقرير مصيره وعلى اسرائيل ان تقف موقف التفهم والاحترام لكل قرار يتخذه الفلسطينيون والاردنيون بالنسبة لمصيرهم وسيادتهم وستقلالهم خارج حدود اسرائيل. بتحفظ واحد هو ان يقوم ذلك على حسن الجوار مع دولة اسرائيل. ويمكننا ان نلاحظ على هذا النص الذي تضمن فكرة تقرير المصير التخوف منهـا ومن ثم التحفظ عليها بشرط «حسن الجوار» وتكرر الحديث عن حق تقرير المصير «كحل لمشكلة الفلسطينيين» في برنامج الاحرار المستقلين ضمن تكتل ليكود مقترنا بان يتم ذلك «ضمن اطار دولة اردنية فلسطينية وضمن اطار اتفاقية سلام وأمن مع دولة اسرائيل. واقامة هيئـة تمثيليـة عربيـة فلسطينية في المناطق» والمناطق هنا هي الاراضي العربية المحتلـة في حرب ٦٧ الضفة الغربية وقطاع غزة. وقد اكتفى الحزب الديني القومي برفضه الانسحاب من هذه الاراضي التي يشير الى الضفـة الغربية منهـا باسـم

«اليهودية والسامرة» وكرر راكاح اعترافه بما اسماه الحقوق القومية للشعب الفلسطيني والانسحاب من جميع الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧.

وهكذا نجد ان برامج الاحزاب الاسرائيلية وقد اضطرت للاعتراف بالوجود الفلسطيني تحاول بما تطرحه العمل على احتوائه باساليب ملتوية هي امتداد لاساليبها في المراحل السابقة. وهي تكشف عجزا فاضحا عن فهم حقيقة هذا الوجود . وتلك ظاهرة نراها في الاستعمار الاستيطاني دوما .

ونلاحظ ان الاحزاب الاسرائيلية في انسياقها لهذه الاساليبالملتوية ترفض الاعتراف بمنظمة تحرير فلسطيني ممثلا لشعب فلسطين العربي ، وتحاول استغلال التسلط الاسرائيلي على الضفة الغربية وقطاع غزة لاقامة «هيئة تمثيلية عربية فلسطينية» تتفاوض مع اسرائيل ومعلوم ان سلطات الاحتلال دأبت طيلة السنوات الماضية على هذه المحادثات وفشلت. وقد انطلقت في محاولاتها من وجهة نظر برزت في الاوساط الصهيونية بعد حرب ٦٧ ترى ان تنتهز اسرائيل فرصة احتلالها لبقية فلسطين لتصفي القضية من خلال تسوية مع فلسطيني الاراضي المحتلة تقطع بها الطريقامام منظمة التحرير والمقاومة الفلسطينية. وزعمت وجهة النظر هذهان حلالمشكلة انما يكون من خلال الفلسطينيين. ووجدت في هذا الطرح ردا علىما طرحته بعض فصائل المقاومة من اقامة دولة ديمقراطية علمانية تضم المسلمين والمسيحيين واليهود في فلسطين ، وهو شعار تخوفت منه الاحزاب الاسرائيلية .

وتتبع الحوار المحترم فيالاوساط الاسرائيلية حول موضوعالوجود الفلسطيني وعرب فلسطين بعدحرب رمضان والفراغ من الانتخاباتفنلمس التشدد والتخبط. ونلاحظ انه لا تزالهناك غالبية ترفض قيامكيان فلسطيني على جزء من فلسطين، ونأخذ مثلا على هؤلاء موقف اسحق رابين الذي

اختاره حزب العمل المتحد لخلافة مائير في رئاسة الحكومة. فرابين يرى ان حل مشكلة الفلسطينيين يجب ان يتم في نطاق الاتفاق مع الاردن . وهو يعارض قيام دولة فلسطينية بين الاردن واسرائيل . متبنيا موقف الحزب وهويقترح على ساسة اسرائيل عدم الانجرار الى الجدل الدائر حول الكيان الفلسطيني لانهم بذلك يخدمون الاهداف العربية في هذه المرحلة. ويرفض الاعتراف بنظمة التحرير شريكا في حل مشكلة الضفة.[1] ويرى ان يتم توطين اللاجئين العرب في الضفة الشرقية للاردن وصولا الى «فلسطنة الاردن» ويمكننا ان نتعرف على اسباب رفض هذه الغالبية لقيام دولة فلسطينية من خلال ماكتبه موشيه معوز رئيس معهد الدراسات الاسيوية الافريقية في الجامعة العربية فهو يعتقد ان هذه الدولة «وهي دولة مرحلية ستكون تحت سلطة منظمة التحرير الفلسطينية وستشكل قاعدة ورأس جسر للاستمرار في محاربة اسرائيل... لان الموقف المبدئي للنظمات لايزال كما كان القضاء على دولة اسرائيل، وسينطوي قيامها على مخاطرة كبيرة على أمن اسرائيل، الى جانب احتمال ضعيف جدا لتسوية الصراع العربي الاسرائيلي. وهي ستتحول بعد سيطرة منظمات المقاومة عليها الى كيان فلسطيني عدواني يحظى بالدعم والتسليح السوفييتي.. فتشكل قاعدة لازعاج متواصل لاسرائيل وخط هجوم مريح جدا للجيوش العربية الى قلب الدولة اليهودية» . وتبدي هذه الغالبية تخوفا كبيرا من مفهوم حقوق الفلسطينيين المشروعة « الذي يطرحه العرب في الساحة الدولية . وقد خرج عزريا الون في دافار من تحليله لهذا المفهوم بانه يتضمن مراحل لتصفية اسرائيل . وعدد هذه المراحل « بأنها عودة الى خطوط وقف اطلاق النار لسنة ١٩٦٧، ثم عودة الى خطوط التقسيم بموجب قرار الامم المتحدة سنة ١٩٤٧، ثم اعادة للاجئين العرب، واذا بقيت بعد ذلك كله دولة

---

(١) نسرة مؤسسة الدراسات في ١-٥-١٩٧٤ .

يهودية تتعرض بالضغط عليها بالحرب او بالسلم الى ان تزول»[1] . وامام التخوف من هذا المصير يكون التشبث بالوقوف عند المرحلة الاولى كحد اقصى ورفض اقامة كيان فلسطيني على ارض فلسطينية.

ونجد الى جانب هذه الغالبية في الاوساط الاسرائيلية اقلية تعترف بالوجود الفلسطيني حيث لاجدوى من انكاره، وتطالب بقبول فكرةدولة فلسطينية من حيث المبدأ لان الحل الاردني في نظرها «وهــم» وتتطلــع من وراء ذلك الى احتواء حركة المقاومة الفلسطينية بأساليب جديدة بهدف الابقاء على الكيان الاسرائيلي والدولة اليهودية الخالصة، ويتهــم هؤلاء الغالبية بانهم «لايزالون يتســكون بمفاهيم قديمة» وينتقدون سياســة اسرائيل ازاء الفلسطينيين ويصفونها «بالجمود المثير والقلق» ويحذرون من ان استمرارها سيزيد منقوة الفلسطينيين وهميرون فيما ظهر بعدالحرب في رمضان في أوساط بعض المنظمات الفلسطينية من توجه لتبني سياسة المراحل تحولا هاما، يجب ان يحظى بتفكير مفتوح لدي مقرري السياسة الاسرائيلية. ويصف احدهم بان هذا التحول سيكون «ذي اهمية تاريخية ويمكن ان يساهم مساهمة كبيرة في احلال السلام في المنطقة.. اذا ماتبنت هذه المنظمات السياسية الواقعية وقبلت اقامة دولة على جزء مما يسمونــه فلسطين بدلا من السياسة الخيالية الفاشلة لفلسطين كلها.»[2] وقد فصل متتياهو بليد «اللواء احتياط» افكــار هذا الاتجــاه فسخر من الموقف الاسرائيلي المنكر للفلسطنيين وقال «ان هذه مرحــلة مضت ولن تعود» وتمنى ان تكون حرب يوم الغفران قد نسفت الوهم القائل ان باستطاعة اسرائيل دفع القضية الفلسطينية الى تحت البساط واخفائها عن اعين البشر»

---

(١) نشرة مؤســسة الدراسات في ١٦ـ٤ـ١٩٧٤ .

(٢) بجريدة عال همشمار فى ٢٢ـ٣ـ٧٤ مقال لمردخاي اورن . ويراجع ايضا مقال شاذول مشــمن فى هاارتس ١٩ـ٣ فى الرد على معوز ومقال اللواء متتيا هو بيليد فى معاريف بتاريخ ١ـ٢ـ٧٤ وقد عرضتها مؤسسة الدراسات فى ١٦ـ٤ـ١٩٧٤ .

فيما نسفت من أوهام . وأصبح انه يرى « ان مصير العلاقات بين اسرائيل والعالم العربي مرتبط منذ الان بقــدرة الاسرائيليين عــلى التصرف ازاء القضية الفلسطينية والقاء نظرة واقعية على طابعها او على طرق حلها» ، ودعا الى ان تعلن الحكومة الاسرائيلية انها مستعدة لتسوية القضية الفلسطينية على اساس اقامة دولة فلسطينية. ونشير الى ان بدايات هذا الاتجاه كانت قد ظهرت بعد حرب ٦٧بتاثير اشتداد المقاومة وحرب الاستنزاف، وقدعبر عنه أوري أفنيري في كتاب «اسرائيل بلا صهيونية» كما تضمنته صيحات بعض الشباب الاسرائيلي الناهض للحرب. وهو كمــا نــلاحظ تعبير عن الواقعية عند من يقولون به . كما أنه عند بعضهم اسلوب لدقة اسفين بــين منظمات المقاومة على امل تفجير الخلافات بينها.

وواضح مما رأيناه في برامج الاحزاب الاسرائيلية ان الاتجاه الاول هو الذي سيحكم السياسة الاسرائيلية خلال الفترة القريبة القادمة . وهو اتجاه رفض اقامة دولة فلسطينية ومحاولة حل المشكلة الفلسطينية ضمن دولة اردنية فلسطينية، ومحاولة رفض الاعتراف بمنظمة تحرير فلسطيــن ممثلة لشعب فلسطين، والبحث عن ممثلين في الحكومة الاردنية وفــي الاراضي العربية المحتلة للتفاوض معهم. ومع ذلك فاننا نتوقع ان تبرزأفكار الاتجاه الاخر تدريجيا في الايام القادمة في الاوساط الاسرائيلية، بعد ان تصطدم افكار الاتجاه الاول بما نضح من حقائق على مستوى المنطقة وعلى المستوى الدولي وفي مقدمتها حقيقة وجــود شعب فلسطــين . وأيضــا بعد ان تصطدم بالمعطيات الجديدة التي طرحتها حرب رمضان. وسيكون التحول الاسرائيلي تراجعــا وضمن ردود الفعل . وسيحاول العدو اثنــاء ذلك مجابهة حقيقة وجود شعب فلسطين بالرفض السلبي لاية مقترحــات وبالتحصن وراء اسلوب المساومة وباللعب بورقة الخلافات العربية ســواء بين المنظمات أو بين الحكومة الاردنية ومنظمة التحرير .

ان هذا الموقف الاسرائيلي من عرب فلسطين وقضيــة فلسطين هو

تعبير صادق عن حالة التحجر الفكري التي تسيطر على التجمع الاسرائيلي وهي حالة يقف فيها الفكر عند مقولات جامدة، ولايتحرك الافي نطاق التلاعب بالالفاظ رافضا التسليم بالحقائق وعاجزا عن الابداع . ومع ان تجارب الاستعمار الاستيطاني شهدت هذه الحالة ، ومن أمثلتها موقف المستوطنين من ثورة الجزائر ومن محاولات ديجول لحلها. فان ما نراه من تحجر فكري في الاستعمار الاستيطاني الاسرائيلي فاق كل ما شهدته التجارب الاخرى . وربما كان ذلك يعود للعامل الآخر فيه وهو عامل العقيدة الصهيونية ولتأخره الزمني في الميدان الاستعماري. وهو يبدو في مجالات السياسة الاسرائيلية المختلفة التي لاتزال تتحرك وفق الخطوط التي رسمها هرتزل في المؤتمر الصهيوني الاول. ولعل من اطرف الامثلة على هذا التحجر ماقاله سياسي اسرائيلي عن جولدا مائير من انها لاتخرج في جميع خطبها واحاديثها عن مائتي كلمة ترددها دوما مكررة معان ثابتة وجملا محددة وكانها لاتحفظ غيرها، ومعلوم ان مائير مثلها كمثل سابقيها من رؤساء الوزارات الاسرائيلية ليفي اشكول وبن جوريون وموشي شاريت ينتسبون جميعا لمفاهيم القرن التاسع عشر . وقد أشارت عند استقالتها الى هذه الحقيقة. وعلى الرغم من ان حرب رمضان اشعرت التجمع الاسرائيلي بحالة التحجر الفكري التي يعيشها، وعلى الرغم من ان السياسة الاميركية تعمل كما رأينا على ابراز قيادة ذات افق تتصف بالمرونة لتكون قادرة على مواجهة المعطيات الجديدة، فاننا لانتوقع ان يخرج العدو الاسرائيلي من حالة التحجر الفكري هذه. ومع ان اسحق رابين الذي رشحه حزب العمل لخلافة مائير والذي جاء نتيجة تفاعل العاملين ينتسب وفق التصنيفات الاسرائيلية الى جيل القيادة الثالث، فانه سيكون أسير حالة التحجر الفكري ، وآرائه المعلنة تكشف عن ذلك . ويجدر أن نشير الى الصياغات التي يستخدمها مع غيره من قادة الصهاينة والتي توضح ان التحرك هو في نطاق التلاعب بالالفاظ، فهو يرفض مثلا ان تعطي سوريا

«الجائزة على عدوانها» على حد قوله بانسحاب اسرائيل من الجولان . ولا يحاول ان يجابه حقيقة احتلال اسرائيل لاراض عربية في عام ١٩٦٧ ويبقي ان نلاحظ ان ظهور حالة التحجر الفكري هذه في اسرائيل شأنها شأن تجارب الاستعمار الاستيطاني الاخرى — هو ارهاص ببداية النهاية. وتعبير عن عجز التجربة عن التكيف مع العالم المحيط بها تماما كما حدث للحيوانات المنقرضة .

هذا عن موقف اسرائيل من عرب فلسطين وقضية فلسطين فماذاعن موقفها من العرب عامة والعلاقات العربية ؟

ان ما أوردناه عن الموقف الاسرائيلي عنعرب فلسطين — وقد فصلنا فيه — يصدق على الموقف الاسرائيلي من العرب عامة. وقد رأينا ما وردفي برامج الاحزاب الاسرائيلية عن قضايا الامن وما عبرت عنه من نزوع الى التشدد والتطرف. والحق ان هذا النزوع يحكم موقف اسرائيل والعرب وقد اوضحت نتائج انتخابات الكنيست الاخيرة «ان القوة المعارضة لحل اقليمي وسط مع العرب ازدادت كثيراه» ولاتزال المفاهيم الاسرائيلية عن العرب التي تصوغ هذا الموقف هي هي تحكمها نظرة عداء حاقدة. فالعرب حسب هذه المفاهيم «لايفهمون الاسياسة القوة والضرب المبرح.. ولامجال للتعايش السلمي معهم.. ولاسبيل للسلام الامن خلال فرض الامر الواقع وتلقين العرب دروسا لا ينسوها» .ويمكن ان نلاحظ الكثير منهذهالمفاهيم في برامج الاحزاب وخطابات القادة الاسرائيليين. وقد حفل حديث ديان لرؤساء الصحف الاسرائيلية في اليوم الثالث لحرب رمضان بها. كما يمكن ان نرى تجسيدها في الاعتداءات الاسرائيلية على لبنان وغيرها.

ونلاحظ ان حرب رمضان فرضتعلى البعض فياسرائيل مراجعة هذه المفاهيم، وطرحت مستقبل العلاقات الاسرائيلية بالعرب، بينما تشبثت الغالبية بالمفاهيم القديمة. ومن خلال المراجعة اكد جولدمان ما سبق ان

قاله «انه لامستقبل لدولة يهودية في الشرق الاوسط دون تفاهم كامـل مع العالم العربي وقد اثبتت احداث السنوات الاخيرة، خصوصـا حرب يوم الغفران هذه المقولة». وعلى هذا فلا بد في رأي جولدمان « من بذل محاولة جادة للتوصل الى التفاهم مع العرب بالوسائل السياسية والنفسية» وأكد ان القول باستحالة التعايش مع العرب «يعني نهاية الدولة اليهودية . ويعني ان البرنامج الصهيوني كان خاطئا منذ البداية ولم يكن جائزا اقامة دولة اسرائيل » لانه يستحيل القضاء على العرب. ويرى جولدمان تركيـز الجهد الاسرائيلي على اقناع اجزاء كبيرة من العالم العربي بأنها لا تستطيع في المستقبل المنظور تحقيق هدفها في القضاء على اسرائيل سواء بسبب قوة اسرائيل أو بسبب رفض معظم شعوب العالم . وسيؤدي ذلك الى قبول عدد متزايد من العرب هذا الامر، والى احلال السلام واقامة علاقات، ولا بأس ان تتخلى اسرائيل حينذاك عن المناطق المحتلة. وعليها ان تتصرف بعد ذلـك كدولة تنتمي الى المنطقة.[1]

وهكذا يبرز من خلال حديث المراجعة هذا رأي محدد يقول بضرورة التعايش مع العرب، ويرى في فكرة التعايش مخرجا لاسرائيل من مصير النهاية الحتمي الذي ينتظرها ان استمر الصراع. ومن ثمفهو يطالببالتسوية والسلام. ولكنه في مطالبته يؤكد كما يفعل تلمون في ختام دراسته عـلى «ان تكون اسرائيل قوية جدا. وتعتبر قوتهاعاملا عسكريا رادعا فقط وليس أداة لسياسة دينامية. وعليها ان تفعل كل شي من اجل تخفيف مشاعرالعرب المستفزة وعدم اهانتهم وعدم المطالبة بالضمانات الامنية . وبالامكان الامل بأنهم اذا ربطوا بين قوتنا الرادعة وبين الاحساس بتحمل ماعانوه انينزلقوا تدريجيا نحو التعايش.»[1] ويلفت النظر عند اصحاب رأي التعايش عموما

---

(١) ها ارتس ١٥ـ١ـ١٩٧٤ نشرة الدراسات ١ـ١٩٧٤٢ ٠

(٢) دراسة حساب النفس ٠

تأكيدهم على بناء قوة اسرائيل لتكون عامل ردع. مما يكشف عن جهلهم بالنفسية العربية التي تتشبث بالحق وترفض التنازل عنه خوفا وخشية.

ان الصوت الذي ينادي بالتعايش مع العرب في الاوساط الاسرائيلية لايزال خافتا ولايكاد يبين وسط الاصوات العالية التي تعبر عن المفاهيم القديمة في الموقف من العرب. والتي ينشغل اصحابها بمعالجة الاحداث اليومية وهم يفتقرون لرؤية مستقبلية. ولذا فاننا نتوقع استمرار الموقف الاسرائيلي التقليدي من العرب لفترة قادمة تتغلب فيها على الاسرائيليين مشاعر المكابرة وتتعطل لديهم القدرة على المبادرة ويسوء موقف التشبث بالموقف. وقد رأينا هذا الموقف ابان تحرك السفير يارنج وفي الرد على مبادرة الرئيس السادات عام ١٩٧١. وبالطبع فان ذلك سيخلق مناخا تقوى فيه الدعوة الى التعايش مع تأكد فشل السياسة الاسرائيلية التقليدية وتكثر فيه الفئات الغاضبة الموزعة بين الاتجاهين وتفعل فعلها في تفاقم تناقضات اسرائيل الداخلية.

وتعبيرا عن الموقف الاسرائيلي التقليدي. واحتواء في الوقت نفسه للتناقضات الداخلية نتوقع ان يعمد حكام اسرائيل الى استمرار معارضتهم الشديدة للوحدة العربية، والىبذل جهود كبيرة لمنع تقدم العرب علىطريقها وان يحاولوا ابعاد مصر عن ساحة الصراع تخوفا من دورها ووزنها مع استمرار نظرة الشك اليها . كما نتوقع ان يقفوا موقف العداء من سوريا والعراق ويحاولون الهيمنة على الاردن ولبنان بالتلويح بالقوة .

ومن المعلوم ان السياسة الاسرائيلية وقفت دوما موقف العداءالشديد من الوحدة العربية، واسباب ذلك واضحة. كما انها تتحسب دوما من دور مصر ووزنها. ولبن جوريون وغيره من قادة اسرائيل شروح اضافية لهذه السياسة. وقد اوضح رابين مؤخرا «انه لايؤمن بان مصر متجهة نحو السلام» بعد حرب رمضان، وذلك هو ايمان كثيرين غيره. ومع هذا فهناك توجه لمحاولة

«تحييد» مصر وابعادها عن الصراع . كما اوضح انه حتى لو تمت تسوية مع سوريا فانها ستكون على خلفية سياسة معادية[1].

وستحاول هذه السياسة الاسرائيلية اللعب بورقة الخلافات العربية والمراهنة عليها. وستبذل جهودا كبيرة في مختلف المجالات وخاصة في المجال الاعلامي. لاصطناع اسباب هذه الخلافات والنفخ فيها وقد امل تلسون ان تكون التسوية «سببا في تجدد الانشقاق في العالم العربي». كما اقترح يادين في ندوة رؤساء اركان جيش اسرائيل ان يستمر بث الاذاعة الاسرائيلية الموجهة للعرب اربعة وعشرين ساعة. وتلفت النظر شدة اهتمام اسرائيل بهذه الاذاعة.

ولكن الى أين ستؤدي هذه الساسة ؟

من الواضح انها ستصطدم بالمعطيات الجديدة التي طرحتها حرب رمضان في المنطقة. وستظهر اساليبها بمظهر القديم البالي والعجز عن التكيف . وتبدو لغتها الاعلامية لغة قديمة بل ومثيرة للاستهزاء. وقدلوحظ تضاؤل تأثير الاذاعة الاسرائيلية على المستمع العربي. وهكذا ستكون هذه السياسة عاملا رئيسيا في نفخ أوار الصراع.

*

ونصل الى موضوع اخر هام يؤثر تأثيرا مباشرا وفعالا على مستقبل الوجود الاسرائيلي في منطقة الوطن العربي ويتعلق بصميم الهدف الصهيوني وذلك هو علاقة اسرائيل والحركة الصهيونية باليهودية العالمية. وطبيعي مع مالهذا الموضوع من تأثير ان تنشغل به السياسة الاسرائيلية انشغالا خاصا .

واضح من تحديدنا للموضوع اننا نفرق بين اليهودية العالمية وبين

---

(1) ها راس ١٢-٥-١٩٧٤ نشرة مؤسسة الدراسات ١٦-٥-١٩٧٤ ، وفيها تصريحات لرابين وبيريز عن محاولة ابعاد مصر عن الصراع .

اسرائيل والحركة الصهيونية. فهما ليستا دائرتين متطابقتين. واذا كانت دائرة اليهودية العالمية تضم داخلها اسرائيل والحركة الصهيونية فهي ايضا تضم يهودا غير صهاينة ولايقيسون في اسرائيل. كما ان دائرة الحركة الصهيونية ضمت استعماريين من غير اليهود مثل ونستون تشرشل. أما بالنسبة للصلة بين اسرائيل والحركة الصهيونية. فاسرائيل تجسيد الحركة الصهيونية وهي دائرة داخل دائرتها. وهكذا فان الاسرائيلي الذي قبل فكرة دولة اسرائيل واقام فيها هو صهيون، وهو يلتقي مع صهاينة يهود اخرين يقيسون في اوطانهم ولكنهم يؤمنون بفكرة الدولة اليهودية واذاكان كل اسرائيلي صهيوني فليس كل يهودي صهيوني لان هناك من اليهودمن لايؤمنون بالصهيونية.

ان هذا التفريق بين دائرتي اليهودية الصهيونية وتوضيح الصلة بين الصهيونية واسرائيل امر ضروري يؤكده الواقع ويقتضيه البحث العلمي. واذا كان البعض منا يلجأون استسهالا الى التعميم وعدم التفريق فانهم بذلك يقعون في خطأ كبير يستفيد منه عدونا الى حد بعيد. وطبيعي انذرى اسرائيل والحركة الصهيونية تفرقان بين الدائرتين في مخططاتهما وهدفهما الواحد هو أن يتم التوصل لتطابق الدائرتين.. اي ان يصبح كل يهودي صهيونيا .

ولكي نفهم السياسة الاسرائيلية تجاهاليهودية العالمية واساليبهالبلوغ هدفها لابد لنا من فكرة موجزة عن اليهودية العالمية والصهيونية.فاليهودية العالمية تضم يهود العالم الذين بلغ عددهم حسب اخر الاحصاءات حوالي أربعة عشر مليونا وربع المليون. ويعيش أكبر تجمع منهم فيالولاياتالمتحدة ويضم حوالي ستة ملايين. والتجمع الثاني منحيث الحجم يعيش فيالاتحاد السوفيتي ويضم أكثر من مليونين وستمائة ألفا . والثالث يعيش في فلسطين المحتلة وهو اقل بقليل من الثاني. وهناك ثمانمائة الف يهودي في دول اميركا الجنوبية منهم حوالي خمسمائة ألف يهودي في الارجنتين وحدها.

كما يصل عدد اليهود في فرنسا الى حوالي خمسمائة وخمسين الفا وفي بريطانيا الى اربعمائة وعشرة الاف.[1] ويعيش الباقون في بقية دول اوروبا الغربية وجنوب افريقيا والمغرب العربي وانحاء اخرى من العالم.

ينتسب هؤلاء اليهود كما هو واضح الى قوميات واوطان عدة وتقوم بينهم فوارق حضارية بينة. ويجمع بينهم الدين اليهودي الذي هو رباط دائرة اليهودية في العالم. وهم مندمجون الى حد كبير في مجتمعاتهم يشاركون في أوجه حياتها المختلفة شأنها في ذلك شأن طوائف دينيةأخرى. ولهم في الوقت نفسه جمعيات ومنظمات يهودية تحقق التعاون بينهم. ولقد برزت في نطاق التجمعات اليهودية والمسيحية الغربية، ولم يكن للعرب والمسلمين شأن بهذا الصراع كما لم يعرف يهود الوطن العربي هذهالمسألة.

وكحل «للمسألة اليهودية» نشأت الحركة الصهيونية في اوروبا اواخر القرن الماضي وعملت على اصطناع قومية ليهود العالم الذين ينتسبون لقوميات عدة. وطرحت فكرة الوطن القومي اليهودي في مواجهة حلول اخرى للمسألة اليهودية تقوم على فكرة اندماج اليهود في مجتمعاتهم. وقد ظهرت الحركة الصهيونية كما أوضح توينبي « كرد فعل سياسي للمسألة اليهودية ومعاداة السامية، وولدت وترعرعت في مناخ غربي علماني أخذت عنه فكرة القومية بمدلولها الغربي ونزعة التوسع الاستعماري وراء البحار وهي لا تمت بصلة الى التراث اليهودي التقليدي بل تعتبر من وجهة النظر الارثوذكسية اليهودية مناقضة لهذا التراث[2]. وتحالفت الحركة الصهيونية مع حركة الاستعمار الغربي لاغتصاب فلسطين واقامة دولة لها فيها تكون «يهودية كما ان انجلترا انجليزية» على حد تعبير وايزمن، وبرزت امامها

---

(١) عن الكتاب السنوي اليهودي لسنة ١٩٧٢ انظر نشرة مؤسسة الدراسات في ١-١-٧٣ و ٦-٥-١٩٧٤ .

(٢) يراجع الجزء الثامن من موسوعة توينبي « دراسة في التاريخ » موضوع الغرب الحديث واليهود .

مشكلة سكان فلسطين العرب فأصبح همها ان تطردهم من وطنهم وتخلي فلسطين منهم، وسلكت لتحقيق ذلك سبيل العدوان المسلح. وعلى الرغم ان الحركة الصهيونية قد استطاعت ان تقيم دولة لليهود في فلسطين الا انها لم تستطع ان تحل ما اسمته «المسألة اليهودية» ، تماما كما توقع توينبي حين قال «ان نجاح الحركة الصهيونية في اقامة دولة لليهود في فلسطين ليس من شأنه أن يحل المسألة اليهودية وانما سيخلق مشاكل جديدة بين اليهود وانفسهم وبينهم وبين غيرهم».

ولقد عملت الحركة الصهيونية في نطاق اليهودية العالمية كي يصبح كل يهودي صهيونيا. ونشطت لتهجير اعداد كبيرة من يهود العالم الى فلسطين. واعتمدت أساليب مختلفة لبلوغ اهدافها بين اليهود : كان منها التأكيد على أهمية الحياة اليهودية الخاصة والزعم بأنها لاتكون الافي الدولة اليهودية او استغلال المشاعر الدينية وتغذية شعور اليهود باضطهاد الاخرين لهم في اوطانهم وعرقلة انصهارهم في مجتمعاتهم ، بل وبلغت حد تنظيم حملات « العداء للسامية » في مجتمعات الغرب . وحد تكفير كل يهودي لا يهاجر كي تبلغ أهدافها[1] .

وفي تتبعنا لاثر الحركة الصهيونية على يهود العالم نلاحظ انها استقطبت قلة منهم في بداية القرن ، وجابهت عداء كثيرين من القائلين بالاندماج والمعارضين لفكرة الدولة اليهودية تحسبا من نتائجها الوخيمة على يهود العالم في أوطانهم . ولقد كان من أشد معارضي اصدار تصريح بلفور في الوزارة البريطانية وزير من يهود بريطانيا.[2] ثم انتشرت الحركة الصهيونية

---

(١) يمكن ايراد امثلة كثيرة من تاريخ الحركة الصهيونية . من بينها تصريحات بن جوريون بانه ليس يهوديا من لا يهاجر . ومحاكمة ايخمان التى استهدفت هدفا صهيونيا بين يهود العالم

(٢) تقدم ادوين مونتاجو الوزير البريطانى بمذكرة اضافية يعارض فيها اصدار التصريح ويعتبره معاديا للسامية . ويمكن ان يراجع نص المذكرة فى ملف وثائق واوراق القضية الفلسطينية الجزء الاول اعداد على محمد على ص ٢٠٥ وفى كتاب ستاين « تصريح بلفور » ص ٤٨٢ .

منذ الثلاثينات بفعل عوامل محددة من اهمها بروز النازية في المانيا واضطهادها اليهود، وبلغ هذا الانتشار مداه بعد قيام اسرائيل عام ١٩٤٨ وبلوغها مرحلة التوسع عام ١٩٦٧. وهكذا هيمنت الحركة على اليهودية العالمية وقاومت بشدة الاصوات المعارضة لها التي وان خفتت الى انها بقيت موجودة تتابع طرح فكرة الاندماج. وتعددت مؤسسات الحركة وتوسعت لتتغلغل بين يهود العالم وتحشدهم لتنفيذ مخططاتها. ثم جاءت حرب رمضان بمعطياتها الجديدة لتنهي هذا العصر الذهبي ولتشغل الحركة الصهيونية ببحث مستقبلها في اوساط اليهودية العالمية.

فكيف نتصور مستقبل الحركة الصهيونية في اوساط اليهودية العالمية ؟

وكيف نتصور علاقة اسرائيل بيهود العالم وسياستها تجاههم ؟

سيؤثر على مستقبل الحركة الصهيونية بين يهود العالم عاملان رئيسيان حاسمان أولهما ان « المسألة اليهودية التي ألحت في القرن التاسع عشر هي الآن في طريقها الى الزوال. ومن المتوقع ان تختنق تماما في مناخ عالم الغد الذي سيختلف تماما عن مناخ ترعرعها. فلقد نشأت المسألة اليهودية في ظل اضطهاد في اوروبا ــ كما رأينا ــ وارتباط هذا الاضطهاد عند الاوروبيين بعقدة صلب المسيح التي لم يكن في الاسلام وجود لمثلها. وتفاقم نتيجة للتطور الاقتصادي والاجتماعي اللاحق في العالم المسيحي الغربي حين انتشر اليهود وسيطروا على اسباب القوة والثراء، ثم ظهرت البرجوازية المسيحية لتنافسهم فاشتد الصراع. وقد اوضح توينبي ان اضطهاد اليهود يقع خلال مرحلتين الاولى حينما يكون من الصعب الاستغناء عن خدماتهم. والثانية حينما يأنس الاغيار في أنفسهم القدرة على اغتصاب مركز اليهود . وبفعل استمرار التطور الاقتصادي والاجتماعي بلغت اوروبا الغربية واميركا في العصر الحديث مرحلة ثالثة يشعر فيها البرجوازيون والغربيون بالثقة

التامة بانفسهم وقدراتهم ولايخشون المنافسة. بل يحاولون وضع امكانيات اليهود في خدمة اقتصادهم الوطني. في هذه المرحلة تتوقف مظاهر العداء لليهود وتميل الدول التي تبلغها الى اتاحة اللجوء السياسي والفرصة الاقتصادية امام الذين يتعرضون للاضطهاد في البلاد الاخرى التي لاتزال في احدى المرحلتين الاوليتين.

واضح اليوم ان كثيرا من دول اوروبا الغربية واميركا دخلت هذه المرحلة الثالثة التي شرحها توينبي وهكذا لم يعد يهود تلك الدول يجابهون بمظاهر العداء لهم. واصبحوا جزءا من المجتمع في اوطانهم بعد ان استوعبهم الاقتصاد الوطني، وفتحت امامهم فرص المشاركة في مؤسسات دولهم على كافة مستوياتها بعد ان تخلص مسيحيو تلك الدول الى حد كبير من عقد التعصب ضد اليهود انطلاقا من الثقة التامة بانفسهم. وطبيعي ان يشعر اليهودي وهو يأخذ فرصته كاملة في مجتمعه بأن المسألة اليهودية لم يعد لها وجود وأصبحت تاريخا مضى وأن يفضل في العيش في مجتمعه والبروز فيه عن الهجرة الى اسرائيل بما تمثله من اغتصاب ومن كونها جيبا استعماريا و«جيتو» جديدا. وهذا ما يفسر عزوف يهود هذه الدول عن الهجرة الى اسرائيل ، ونزوح بعض من هاجر منهم عنها مفضلا العودة للعيش في مجتمعه والاندماج. وقد سجل مبعوث جريدة معاريف الاسرائيلية الى دول اميركا الجنوبية «ان الرأي العام السائد بين رؤساء الجاليات اليهودية، ومبعوثي الهجرة والعاملين في المنظمات الصهيونية هو انه لايتوقع هجرة جماعية كبيرة من اميركا الجنوبية وذلك لاستبعاد قيام وضع لاسامي مأساوي » وعزا ركود حركة الهجرة الى ان حياة اليهودي في أميركا الجنوبية هي بصورة عامة أسهل وأكثر راحة من الحياة في اسرائيل[1] .

والعامل الاخير الذي سيؤثر على مستقبل الحركة الصهيونية بين

---

(١) نشرة مؤسسة الدراسات في ١-١٢-١٩٧٢ .

يهود العالم هو فشل المثل الاسرائيلي كحل صهيوني لمسألة اليهودية . فاسرائيل بقيامها على الاغتصاب والعدوان وبالحروب المتتالية التي تخوضها وتشبث العرب بحقهم ونضالهم من اجل استعادته، لم توفر لليهودي المهاجر الى فلسطين الامن الذي يتوق اليه والذي ترك مجتمعه بحثا عنه، بل فرضت عليه العيش في ظل الخوف. خوف المستعمر المستوطن من صاحب الحق . واسرائيل بقيامها على تهجير يهود من قوميات عدة وضعت اليهودي المهاجر الى فلسطين وسط صراع مستمر يحتدم في التجمع الاسرائيلي بين يهود شرقيين ويهود غربيين من مستويات ومفاهيم حضارية مختلفة . واوجـــدت عند هذا اليهودي المهاجر « أزمة هوية » على حد تعبير ليلنثال . فاليهـــود العراقي والسوفييتي وامهي بيصه شحوة علىلعظ شحوقة بيصخذ بيصخذ اتوا منها ،اكثر من احساسهم بالانتماء الى المجتمع الذي يعيشون فيه الآن[١]. واسرائيل باقتصادها المرهق نتيجة اعباء الحروب واعتماده على المساعدات تتكرر فيها الازمات الاقتصادية وموجات تفشي البطالة، الامر الذي يدفع كثيرين الى النزوح والعودة الى اوطانهم. وقد حدث ان اشتدت الازمـــة الاقتصادية في اسرائيل اوائل الستينات بعد تهجير يهودي نشط من اميركا اللاتينية وغيرها فعاد معظم المهاجرين الى بلادهم الاصلية او الى الولايات المتحدة، واثرت هذه التجربة الفاشلة ــ كما وصفتها جريدة جيروزاليم بوست ــ تأثيرا عميقا في يهود القارة[٢] .

ولعل من أهم مظاهر فشل المثل الاسرائيلي في ان يكون حلا للمسألة اليهودية هو أن اسرائيل وبعد حوالي قرن على التهجير الصهيوني لم تشد للهجرة اليها الاسدس يهود العالم، وبقي خمسة اسداسهم كما كانوا يهودا يعيشون ضمن قومياتهم وفي اوطانهم ويعرفون عند الحركة الصهيونيـــة

---

(١) من حديث ليلنثال الكاتب اليهودي الاميركي في مجلة الديار مارس ١٩٧٤ .

(٢) نشرة مؤسسة الدراسات في ١ـ١٢ـ١٩٧٢ .

بيهود الشتات. ولقد حدث ما توقعه توينبي من بروز مشكلة يهوديةجديدة بفعل الحركة الصهيونية واقامة اسرائيل وهي «الاختلاف بين يهود الشتات ذوي العقلية السريانية التقليدية ويهود اسرائيل الذين يعيشون في عصرما بعد تحقيق الوعد الالهي بالارادة البشرية» وكان توينبي حين توقع ذلك في دراسته قد تساءل «اذا كانت اسرائيل لايسكنها البقاء بدون التأييد المادي والسياسي الضخم من يهود الشتات وخاصة في الولايات المتحدة فسوف نرى في المستقبل الى متى يمكن ان تستمر العلاقة قائمة بين يهود الغرب واسرائيل على التزام بدفع الضرائب دون ان يكون لهم حق التمثيل».

سيتفاعل هذان العاملان في التأثير على مستقبل الحركة الصهيونيةبين يهود العالم، فيقللا من نفوذها عليهم ويبرزا عقبات كأداء امام تحركها بينهم. وسيقوي بفعل هذين العاملين ونتيجة استمرار النضال العربي تيار الاندماجيين بين يهود العالم ويطرح حل «الاندماج» باعتباره الحل الصحيح الوحيد لما تبقى من المسألة اليهودية في عالم الغد، فتتأكد حقيقة ان اليهودية دين وليست قومية. وانه يمكن لليهود ان يعيشوا يهودا ضمن قومياتهم واوطانهم شأنهم شأن الطوائف الاخرى. ولقد ظهرت بوادر هذا التوجه بشكل واضح في السنوات الاخيرة وبرزت من خلالها شخصيات يهودية الى صفوف القيادة الاولى في بلاد عدة . فهذا كرايسكي مستشار النمسا وزعيم الحزب الاشتراكي فيها يهودي نمساوي يقول بحل الاندماج ويقف موقفا نمساويا حين يغلق المعسكر الصهيوني في شاناو في سبتمبر ١٩٧٣ وهذا «بارجيلبرت» وزير المال في الارجنتين يهودي ارجنتيني من الحزب البيروني . ثم هذا كيسنجر اليهودي الاميركي الذي أصبح وزير خارجية الولايات المتحدة. وطبيعي ان يتوجه طموح يهود اخرين لبلوغ المراتب العليا في اوطانهم ويؤثرون ذلك على زعامة في الجيتو اليهودي الذي تمثله اسرائيل .

ومن المتوقع ان يعبر هذا التوجه الاندماجي بين يهود العالم عن نفسه

باتخاذ مواقف من قضايا أساسية تختلف عن مواقف اسرائيل والصهيونية من تلك القضايا. ولقد وقف بعض الافراد البارزين من يهود العالم في الفترة الماضية هذه المواقف فرفض بعضهم فكرة دولة اسرائيل، وأيد بعضهم حقوق شعب فلسطين على اختلاف الدوافع، واشتهر كمثل على هؤلاء ليلنتال وبيرجر من يهود اميركا. ونلاحظ ان هذه الظاهرة قويت مع تصاعد مقاومة شعب فلسطين العربي فتجاوزت الافراد الى بعض المنظمات اليهودية. وقد حدث في مؤتمر طلابي عقد عام ١٩٧٠ صدام بين اتحاد طلبة اسرائيل والاتحاد العالمي للطلبة اليهود الذي اصر على اتخاذ قرار بشأن الاعتراف بالكيان الفلسطيني، فكان ان انسحب اتحاد طلبة اسرائيل وجمدت العلاقات بين الاتحادين لسنتين. وحين عقد المؤتمر التالي عام ١٩٧٣ أدان عدد من الوفود الطلابية اليهودية اسرائيل. وقد تشكلت لجنة يهودية في شيكاجو اثر اعتقال يهود اسرائيل اتهموا بالتعاون مع المقاومة للدفاع عنهم وعبرت عن استعدادها للتعاون مع الفلسطينيين.

وهكذا فان لنا ان نتوقع في السنوات القادمة تضاؤل تأثير الحركة الصهيونية على يهود العالم وزحزحتها من موقع القيادة الذي احتلته لسنوات طويلة كما لنا ان نتوقع اشتداد صراع الاندماجيين من اليهود معها. وقد لاحظ دانيال اليعازر من جامعتي بار - ايلان وتمبل أن حرب رمضان ادت الى بروز الاستقطاب في المجتمع اليهودي فقوت من التزام الملتزمين وزادت في عدم اكتراث اللامبالين[١].

وبالطبع ستحاول اسرائيل والحركة الصهيونية مقاومة هذا التوجه الاندماجي بين يهود العالم بوسائل مختلفة، ومن اهم هذه الوسائل دعم التعليم الصهيوني بين يهود العالم كعامل ضد الانصهار، ومن اجل تشجيع الهجرة الى اسرائيل. وقد اكدت قرارات وتوصيات اللجنة التنفيذية

---

(١) نشرة مؤسسة الدراسات في ١-٢-١٩٧٤ عن جيروزالم بوست في ٢٥-١٢-١٩٧٤ .

للمنظمة الصهيونية العالمية حين اجتمعت بالقدس اوائل عام ١٩٧٣ على اهمية التعليم الصهيوني لمقاومة انصهار اليهود في مجتمعاتهم. واوضح امين صندوق الادارة الصهيونية دولتشين ان جزءا من ميزانية المنظمة مخصص لتوسيع التعليم الصهيوني ونشر الاعلام الصهيوني في المهجر. كما اشار بقلق الى ظاهرة انصهار اليهود في مجتمعاتهم. وقد بلغ عدد روابط فروع التعليم الصهيوني نحو ٢٥٠٠ مؤسسة تعليمية في انحاء العالم يتعلم فيها ٣٥٠ ألف طالب يهودي[٢] . ومن الوسائل التي ستحاول بها الحركة الصهيونية احتواء هذا التوجه والقضاء عليه الجمع بين الصهيونيين وغير الصهيونيين في مؤسسات تعمل لصالح اسرائيل. ونذكر كمثل بارز على هذه المؤسسات الوكالة اليهودية الموسعة التي تقوم على التعاون بين ممثلي المنظمة الصهيونية العالمية وزعماء الجاليات اليهودية في العالم. وقد اوضح اريه بينكوس رئيس الادارة الصهيونية والوكالة اليهودية «ان نجاح الجمعية العمومية للوكالة اليهودية في الجمع بين الصهيونية وغير الصهيونية من اجل مصلحة اسرائيل يشكل نموذجا للعمل في سبيل الصهيونية واسرائيل في الخارج»[١]

ولكن هل تستطيع الحركة الصهيونية بوسائلها المختلفة ان توقف تيار الاندماج المتدفق والمتزايد بين يهود العالم؟

يبدو واضحا ان بروز الاستقطاب في المجتمع اليهودي بعد حرب رمضان دليل اكيد على ان التباين يشتد بين الصهاينة والاندماجيين، ومن المتوقع ان تزداد المصاعب امام اسرائيل والحركة الصهيونية في تحركها بين يهود العالم وان يرتفع أكثر فأكثر الصوت الاندماجي الذي يدين الحركة الصهيونية والذي سيردد بصيغ أخرى ماقاله مونتاجو الوزير البريطاني

---

(٢) نشرة مؤسسة الدراسات في ١-٣-١٩٧٣ .
(١) نشرة مؤسسة الدراسات في ١٦-٢-٧٣ .

اليهودي اثر اصدار بريطانية وعد بلفور «ان الصهيونية مافتئت تبدو لي دائما مذهبا سياسيا خبيثا لا يمكن ان يعتنقه اي مواطن مخلص للمملكة المتحدة. فاذا تطلع يهودي انجليزي الى جبل الزيتون وأضحى يتحرق شوقا الى اليوم الذي يستطيع ان ينفض فيه تراب بريطانيا عن حذائه ويعود الى احتراف الزراعة يكون ـ كما تراءى لي دائما ـ قد اعترف باهداف لاتتفق مع هويته البريطانية..» كما سيؤكد هذا الصوت المبادىء التي أكدها هذا الاندماجي واولها انه لاتوجد أمة يهودية، ومنها انكار ان لليهود اليوم علاقة بفلسطين او أنها مكان صالح لهم كي يعيشوا فيه[1] .

❋

وبعد ..

فتلك هي رؤيتنا لتوجه العدو مستقبلا . وقد عرضنا فيها للركائز الاساسية التييقوم عليها وجوده، ولاهدافه ومخططاته وأساليبه وسياساته. ويتضح من مجمل الصورة التي ترسمها هذه الرؤيا ان اسرائيل ستعاني متاعب شديدة في أوضاعها الداخلية خلال الفترة القادمة ، وهي مهيأة لحدوث تفجرات في هذه الاوضاع .

ولعل أكثر ما يلفت النظر في اوضاع اسرائيل الداخلية هو ذلك الصراع المحتدم بين فئات وطوائف التجمع الاسرائيلي الصهيوني . وهو نابع في الاصل من طبيعة هذا التجمع الذي يضم يهودا من قوميات وأوطان عدة ينتمون لبيئات حضارية مختلفة ويعيشون في مستويات معيشية متباينة . وقد وضح التباين والاختلاف بينهم الى درجة فرضت على كتاب صهاينة مثل ناداف صفران التساؤل عما اذا كان هناك شعب اسرائيلي واحد أم شعبان ؟ وذلك في معرض الحديث عن سكان التجمع الاسرائيلي

---

(١) وثيقة مونتاجو ملف وثائق واوراق القضية الفلسطينية الجزء الاول ص ٢٠٥ .

وملاحظة الفوارق الكثيرة بين طوائف اليهود الشرقيين وطوائف اليهود الغربيين فيه[1] .

لنا أن نتوقع اشتداد احتدام هذا الصراع في الفترة القادمة . وقد أنذرت حرب رمضان بذلك ، وكانت في الوقت نفسه عاملا مؤثرا فيه ، وكشفت نتائج الانتخابات الاسرائيلية عن بروز هذا التوقع . الامر الذي دفع بعض المعلقين الاسرائيليين الى الحديث عنها من زاوية كونها انقلابا على الصعيد الاجتماعي وبالطبع سيؤدي احتدام الصراع هذا الى تبديد البقية الباقية من اسطورة « الصابرا » التي صنعها الخيال الرومانسي الصهيوني في محاولته لتغطية الصراع والقفز على حقائقه . فلقد كشفت الدراسات التي تناولت « الصابرا » وهم اليهود الاسرائيليون الذين ولدوا على أرض فلسطين في ظل الغزوة الصهيونية على انهم ينقسمون في الحقيقة وفقا للبيئات التي ترعرعوا فيها الى شرقيين وغربيين ، وتشتد بينهم الفوارق في المستوى المعيشي والتعليمي وفرص العمل . ويمكننا ان نلمس هذهالحقيقة ونحن نقرأ بيان « الفهود السود » عن نتائج الحرب وفيه تضمين لوجهة نظر شباب الطوائف الشرقية ، ونلاحظ مدى اختلاف لغته عن لغة شباب يهود الغرب[2] .

لقد كان هذا الصراع عاملا هاما في حدوث ازمة على مستوى القيادة في اسرائيل . ومن المتوقع مع احتدامه ان تشتد هذه الازمة التي رأينا صورا منها في تشكيل حكومة مائير بعد الانتخابات الاسرائيلية الاخيرة ثم في استقالة هذه الحكومة وبعد ذلك في تشكيل حكومة رابين واعتمادها على غالبية ضئيلة جدا في الكنيست . وقد أشار أحد المعلقين الاسرائيليين الى « ان اسرائيل تعيش الان انقلابا مزدوجا على الصعيدين

---

(١) نادف صفران « الولايات المتحدة » ص ٧٢ طبعة هارفارد .

(٢) يراجع نص البيان في نشرة مؤسسة الدراسات بتاريخ ١٦-١٢-٧٤

الاجتماعي والحكومي . والازمة الحكومية الطويلة تعبير عنه وليست سببا له .. واذا كانت حرب تشرين قد أضافت سببا آخر في أزمة الزعامة فان جذور هذه الازمة تمتد الى ما قبل الحرب حيث ساد كبح انعدام النسو والتغيير في زعامة الاحزاب الكبيرة[١] . ونلاحظ ان صورة الوضع السياسي الداخلي في اسرائيل بعد الحرب تميزت باستمرار موجة العداء للزعامات السياسية وتصاعد حركات الاحتجاج والنشاطات الداعية الى التغيير . وبروز دور الجنود المسرحين في هذه النشاطات . والدعوة الى التغيير . وجميعها من مظاهر التعبير عن الصراع الداخلي المحتدم .

وسينفخ في هذا الصراع سوء الاوضاع المالية في اسرائيل الذي تفاقم بسبب الحرب . وقد تضمنت تقارير سابير المالية اشارات الى العجز المالي المزمن ؛ وكشفت عن تضخم مالي وارتفاع في الاسعار وزيادة في الضرائب . وبالطبع ستجهد الحركة الصهيونية لتحسين مركز اسرائيل المالي عن طريق المساعدات ، ولكن النزوع الاسرائيلي للعدوان سيفرض مزيدا من الانفاق العسكري ، مما يجعلنا نتوقع فشل تلك الجهود واستمرار سوء الاوضاع المالية ؛ ونفخها من ثم في الصراع الداخلي .

وسيكون من أهم العوامل في تفجير أوضاع اسرائيل الداخلية استمرار المقاومة الفلسطينية وتصاعدها بعمليات متميزة . وهو أمر متوقع في ظل معطيات ما بعد الحرب . وقد ظهرت بوادره في عمليتي الخالصة « كريات شمونا » ومعلوت ، وعمليات اخرى حدثت . ويمكننا ان نلاحظ ان هذا العامل من خلال تتبعنا لما فعلته هذه العمليات في التجمع الاسرائيلي وقد كشفت عنه المناقشات التي دارت في الكنيست والاحزاب والصحف. وسجل عن ديان انه تحدث في كتلة رافي بعد عملية معلوت فهاجم بشدة الخوف الذي تملك مدن الاعمار في الشمال ، هذا الخوف الذي كشف ان

---

(٢) من مقال لالياهو سلعطر في هاارتس بتاريخ ٨ـ٣ـ٧٤ عن نشرة مؤسسة الدراسات .

السكان القادمين من مراكش وبلاد اخرى لا تشدهم الى البلد جذور عميقة. وقال انه من بين ٥٠٪ فقط من مجموع السكان. تجنيد طيارين في سلاح الجو الاسرائيلي[1] . ويلفت النظر في هذا القول الحديث عن الخوف والتمييز بين فئات التجمع الاسرائيلي . وقد تحدث هيلل وزير الشرطة طالبا ألا يشل الاسرائيليون حياتهم او يشوشوها . وارتفعت أصوات بيجين وشارون وغيرهما بالدعوة للهجوم والتشدد مع العرب . ووصفت الصحف انتشار الشائعات في بعض المدن حول دخول فدائيين لها مبرزة الخوف الذي اصاب الكثيرين . ونعتت واحدة منها سلوك الاسرائيليين بالهستيرية

ونلاحظ أن هذه العمليات خلقت جوا من التخبط والحيرة على مستوى القيادات الاسرائيلية فزادت في أزمة القيادة . ويلفت النظر ان رئيف شيف المحرر العسكري لهآرتس دعا الى تشديد المراقبة على عبور الجسور المفتوحة . والغاء السماح بالزيارات الصيفية من الدول العربية لانها تستغل من قبل الفدائيين وأيد من دعا لفرض عقوبة الاعدام على رجال المقاومة . وهكذا يتحول الموقف الاسرائيلي من المبادرة والهجوم الى الدفاع بفعل الارادة العربية الفاعلة . وشتان بين الحديث الاسرائيلي عن الجسور المفتوحة قبل وبعد حرب آكتوبر .

ولنا ان نتوقع مع تصاعد المقاومة وتفجر أوضاع اسرائيل الداخلية ردود فعل اسرائيلية تجاه العرب في الاراضي العربية المحتلة وفي الجزء المحتل عام ١٩٤٨ على الخصوص . وقد ظهرت بعض ردود الفعل هذه وارتفعت أصوات يهودية تدعو الى موت الذين يؤيدون الفدائيين . وحين عبرت عضو الكنيست شولاميت ألوني عن قلقها من ظاهرة الكراهية للعرب والدعوة لموتهم قاطعها من اعضاء الكنيست . كما تعرض المواطنون العرب الدروز لحملة ارهابية عنصرية في اعقاب عملية الخالصة ووردت في الصحف

---

(١) هاارتس في ٢٤ـ٥ـ٧٤ عن نشرة مؤسسة الدراسات في ١ـ٦ـ٧٤

الاسرائيلية أمثلة كثيرة لهذه الحملة التي استهدفت جنودا في الجيش الاسرائيلي من الدروز والشراكسة ممن تفرض عليهم اسرائيل الخدمة الاجبارية في وحدة خاصة تسميها وحدة الاقليات ، كما استهدفت مواطنين عربا آخرين .

ويلفت النظر هنا أيضا ان العنصرية الاسرائيلية تتجه في حالة التفجر لضرب من جهدت في استخدامهم . ولقد عمدت السياسة الاسرائيلية الى تفكيك صفوف عرب الاراضي المحتلة ، وكان من أساليبها فرض التجنيد الاجباري على الدروز والشركس والبدو منهم . ويلفت النظر ايضا ان نتائج محاولاتها جاءت عكسية ــ كما لاحظ سميح القاسم في جريدة الاتحاد ــ « ولعل الجنود المسرحين من وحدة الاقليات هم أكثر أبناء شعبنا العربي مرارة ونقمة على حكام اسرائيل وسياستهم العنصرية العدوانية الاحتلالية »[1] .

ويلاحظ ان العدو الاسرائيلي مستمر في رسم سياساته العنصرية تجاه عرب الاراضي المحتلة . وتشغله على الخصوص سياسة التعليم الموجهة لهم. وهو ينطلق من الربط بين المستوى الثقافي والوعي القومي . وقد أوضح ساير في دراسة له عن تطور عرب اسرائيل رأيه « انه كلما ارتفع المستوى المعيشي والثقافي لهم ، ازدادت المشكلات وتفاقمت .. لان مستوى الثقافة لا يعيق المطامح القومية » . كما طرحت الصحف الاسرائيلية بوضوح مشكلة العداء بين الاسرائيليين وعرب الاراضي المحتلة ، وبينت ان خيبة أمل العرب آخذة في الازدياد ، ونقلت تنبؤا احصائيا يقول ان احدى مشاكل اسرائيل الاساسية في الثمانينات ستكون كيفية الحؤول دون انفجار خيبة أمل ثلاثماية ألف شاب عربي مثقف على نطاق واسع ومقلق ، وكيفية دفعهم الى التعايش مع المجتمع اليهودي»[2] . ومن المتوقع بالطبع

---

(١) الاتحاد ٣٠ــ٤ــ٧٤ عن نشرة مؤسسة الدراسات في ١٦ــ٥ــ٧٤

(٢) نشرة مؤسسة الدراسات في ١ــ٢ــ١٩٧٣

وفقا لجدلية الصراع أن تفشل مخططات السياسة الاسرائيلية العنصرية تجاه عرب الاراضي المحتلة ، وأن يزيد رد الفعل الاسرائيلي المعادي لهم من اندفاعهم نحو الالتحام بالمقاومة . الامر الـذي يساهم في تفجر أوضاع التجمع الاسرائيلي .

ان بروز خطر التفجر في اسرائيل بسبب الصراع المحتدم بين فئات التجمع ، وبسبب أزمة القيادة ، وسوء الاوضاع المالية . وممارسة السياسة العنصرية تجاه عرب الاراضي المحتلة ، سيدفع بقادة اسرائيل الذين تسيطر عليهم النزعات العنصرية وتحكمهم المؤسسة العسكرية الى طريق واحد في محاولة مستميتة منهم لاحتواء الخطر الذي يتهددهم . وهذا الطريق هو انتهاج سياسة عدوانية ضد العرب تعبر عن التوجه نحو التشدد والتطرف وتصرف الانظار عن المشاكل الداخلية ، وتكون سيفا مشهرا على كل رأي يخالف هذا التوجه . وهذه النتيجة التي نتوصل اليها ليست جديدة في تجارب الاستعمار الاستيطاني .

وهكذا علينا ان نتوقع استمرار العدوان الاسرائيلي بعد الحرب ، سواء على شكل رفض الانسحاب من الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ أو بالقيام بأعمال عسكرية ضد الاراضي العربية المجاورة . وقد باشر العدو القيام ببعض هذه العمليات في جنوب لبنان . ومن الممكن ان يحاول العدو القيام بحرب شاملة جديدة على أمل ان يوجد حقائق جديدة تطغى على معطيات حرب أكتوبر . ولكننا لا نتوقع ان يكون هذا الامر سهلا ، لان للحرب الشاملة الخامسة شروطا يجب توافرها . ونرجح أن يعود العدو لسياسة العدوان المحدود المستمر من خلال عمليات متوسطة المدى ، وفي الجبهة اللبنانية على الخصوص . وهذا سيقود بالطبع الى تسخين الجبهات الاخرى وازدياد حدة التوتر في الصراع .

ومن المتوقع أن يحاول العدو عرقلة مساعي التسوية بشتى الوسائل ،

وسيحاول تأجيل مؤتمر جنيف جهد استطاعته في سعي للابقاء على الوضع الراهن مكتفيا بالمرحلة الاولى التي تمت من خلال اتفاقيتي فصل القوات على الجبهتين المصرية والسورية : ثم سيعمل في حالة اضطراره للمشاركة في المؤتمر على افشاله بالمغالاة في الشروط التي يطلبها مقابل الانسحاب وفقا لقراري مجلس الامن . وسيكون تركيزه على الخصوص على ضرورة الاعتراف به والتعامل الاقتصادي معه ، في محاولة للتعجيز . ومن الواضح ان احتمال بلوغ تسوية نهائية وهذا هو حال العدو أمر بالغ الصعوبة .

وعلينا أن نتوقع في حال بلوغ تسوية أن تكون جزئية وان تتفاعل من جديد عوامل الصراع ويأخذ العدوان الاسرائيلي اشكالا أخرى .

وهكذا يتأكد لنا ان الصراع العربي الاسرائيلي لم ينته بعد حرب اكتوبر . ولن ينته حتى لو أبرمت تسوية جزئية لان جذوره موجودة . وقدرنا كعرب ان نجابهه .

الفصل الثالث

الوطن العربي في عالم الغد

ونصل في حديث المستقبل الى الجزء الذي يخصنا مباشرة . فبعد ان تعرفنا على عالم الغد ومكان الصراع العربي الاسرائيلي فيه . وتعرفنا على توجه العدو الاسرائيلي بعد حرب رمضان وموقفه من الصراع . آن لنا أن نتعرف على توجهنا نحن ونحدد مواقفنا ونرسم بدقة خطوط طريقنا .

لا بد بداية أن نحدد دائرة « نحن » . وواضح من حديث الحاضر والماضي وحديث المستقبل أنها تعني الامة العربية التي استهدفتها الغزوة الصهيونية بعدوانها ، وشعب فلسطين العربي الذي كان الهدف المباشر للعدوان جزء لا يتجزأ منها ، وتشمل هذه الدائرة الوطن العربي كله وفلسطين منه في موقع القلب .

ولقد تأكد لنا مما سبق ان صراعنا ضد العدوان الصهيوني لم ينته بعد حرب رمضان ، ولكنه دخل مرحلة جديدة. ووضح لنا من خلال الدراسة أن هذه الحرب هي بداية النهاية في الوجود الاستعماري الصهيوني . وأن لنا دورا كبيرا فاعلا في هذا الصراع . وأن زمام المبادرة في نطاق هذا الدور بأيدينا ومجال الحركة واسع امامنا .

ان الحديث عن هذا الدور الكبير الفاعل الذي سيكون له النصيب الاكبر في حسم الصراع هو حديث « النضال العربي الذي يتطلع للفعل والتأثير ، وهو حديث عما ينبغي ان يكون دون الغفلة عن توقع ما سيكون. » وهذا الحديث يقتضي منا بداية ان نتعرف على مكاناتنا كعرب في عالم الغد .

لعل من أهم نتائج حرب رمضان على الصعيد الدولي أنها أشارت الى ظهور قوة جديدة في العالم هي قوة الامة العربية . ولقد سجل تقرير معهد الدراسات الاستراتيجية في لندن هذه الظاهرة بلغته الخاصة فذكر « ان عام ١٩٧٣ الذي ساده النزاع في الشرق الاوسط واستخدام سلاح البترول قد شهد نشوء قوة سادسة في العالم هي مجموعة الدول العربية المصدرة للنفط التي أضيفت الى القوة العسكرية لكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وكذلك قوة الصين واليابان والسوق الاوروبية المشتركة »[١] . والحق ان حرب رمضان قد كشفت عن نشوء هذه القوة بما تجلى فيها من قدرة قتالية عسكرية عند العرب ، اعترف شليزنجر وزير الدفاع الاميركي لوزراء النفط العرب بأنها جعلت الولايات المتحدة تعيد النظر في حساباتها ، وبالموقف العربي الواحد في مجال النفط خاصة وفي المجال السياسي عامة .

كانت هذه القوة قبل الحرب في دور التكون ، وقد ظهرت ارهاصاتها حين انطلقت فكرة القومية العربية في الخمسينات بعد تفجر ثورة ٢٣ يوليو وشغلت خبراء الاستراتيجية العالميين في رصدها[٢] . ثم غطت النكسة وتفكك الموقف العربي ما ظهر من هذه القوة فأصبحت عناصرها الكامنة بالنسبة للعالم مجرد احتمال نظري حتى طرحتها حرب أكتوبر من جديد كحقيقة واقعة .

---

(١) الاهرام في ١٥ مايو ١٩٧٤

(٢) من بين كتب عديدة صدرت نذكر كتاب كامبل دفاع عن الشرق الاوسط وكتاب بيرجر العالم العربي اليوم

ستبرز هذه القوة في عالم الغد من خلال عناصر محددة مكونة لهـا كانت سببا في بروزها في عالمنا المعاصر . وكانت في الوقت نفسه سببا في طمع الطامعين بها وتألبهم عليها . وأول هذه العناصر هو الموقع الاستراتيجي الفذ لوطننا الذي يتوسط قارات العالم القديم ويربط بين جهاته الاربعة . ولا يتسع المجال هنا لشرح أهمية هذا الموقع الاستراتيجي وخطورته ولذا نقتصر على الاشارة الى تأثيره على استراتيجية البحر المتوسط الذي يحيـط وطننا بشطآنه شرقا وجنوبا ، وعلى استراتيجية البحر الاحمر الذي هو بحر عربي ، ثم على استراتيجية المحيطين اللذين يطل عليهما وطننا شرقا وغربا وهما الهندي والاطلسي . ولقد أفاض الدارسون الاستراتيجيون في شرح هذا العنصر وتتبعوا أثره على سياسات الدول والامبراطوريات في الماضي والحاضر ، وبحثوا في هذا الاثر مستقبلا . وهناك اجماع بينهم على خطورة هذا الموقع البيني ، وعلى ان قوته وتأثيره رهن بوحدته [1] . والعنصر الثاني في القوة العربية هو ثروات الوطن العربي الطبيعية وفي مقدمتها خلال هذه الفترة ثروة النفط . ولقد كشفت حرب رمضان بوضوح عن تأثير النفـط العربي على الدول الصناعية وأعطت مثلا عمليا على معنى « أزمة الطاقة » . وسجل تقرير معهد الدراسات الاستراتيجية ان استخدام سلاح النفط في حرب أكتوبر يعد أول انتصار يتحقق على أعلى مستوى سياسي وبشكل لم يحدث من قبل عن طريق فرض عقوبات اقتصادية . وتجمع الدراسات حول الطاقة ان تأثير النفط سيستمر لنصف قرن قادم ، وسيكون للنفط العربي الدور الاكبر فيه لانه يمثل الجزء الاكبر من الاحتياطي العالمي . وواضـح ان فعالية هذا العنصر رهن بوحدة الموقف العربي التي تجلت الى حد كبير

---

(١) يراجع بلدوين في « استراتيجية للغد » وهوروويتز في « الصراع السوفيتي الاميركي عـلى الشرق الاوسط » ، وجمال حمدان في « استراتيجية الاستعمار والتحرير » ، وكتابنا « يوميات المقاومة » من اجل التوسع في دراسة الموقع الاستراتيجي للوطن العربي .

في حرب رمضان[1] . وللثروات الطبيعية الاخرى في الوطن العربي تأثيرها الذي سيتزايد مع زيادة الحاجة الى المواد الاولية مع نمو القدرة على تصنيعها عربيا ، ويتصل بهذا العنصر الثاني ما تجمع من ثروات نقدية عربية واستثمارات عربية في العالم ، تبلغ قيمتها ارقاما خيالية . ويمكن ان توجه لتحقيق التنمية والتقدم .

واذا كان هذان العنصران يجسدان قوة مادية فان العنصر الثالث في القوة العربية يجسد قوة معنوية . وهو التراث الحضاري للوطن العربي . فهذا التراث الحضاري بما يوفره من اصالة ودفع للانفتاح على التراث الحضاري الانساني عامة ، وما يتضمن من قيم ومثل انسانية كفيل بالتفاعل مع العنصرين الاولين ان يولد قوة ضخمة ويقدم مساهمة كبيرة في التقدم الانساني . وليس هنا مجال شرح ما يتضمن هذا التراث الذي يرجع الى فجر الحضارات الانسانية والذي يزدان برسالات السماء ، وانما نكتفي بالاشارة الى أثره في تحقيق الانبعاث الحضاري الذي بدأته الامة العربية باليقظة العربية الحديثة .

وهكذا نجد ان الآفاق أمامنا كعرب رحبة في عالم الغد ، وما على النضال العربي في مرحلته الجديدة التي دخلها بعد حرب رمضان الا ان يستشرف هذه الآفاق الرحبة ويقوم بدوره كاملا في ريادتها . وقد هيأته المراحل السابقة للقيام بهذا الدور وجاءت حرب رمضان تتويجا لما تحقق في تلك المراحل ..

ان المسؤوليات الملقاة على عاتق جيلنا والتي ينبغي على النضال العربي أن ينهض بها في هذه المرحلة الجديدة مسؤوليات كبيرة ، بعضها مختص

---

(١) من بين بحوث كثيرة عن أزمة الطاقة نشير الى بحث ازمة الوقود في الولايات المتحدة وعلاقتها بنفط الشرق الاوسط الذي نشرته مؤسسة الدراسات في ١-٢-٧٣ والى دراسة مجلة ناشيونال جيوغرافي في شهر يوليو ١٩٧٤ .

بواجبنا تجاه أنفسنا ونابع من ضرورات تحديد المصير العربي . وبعضهـا الآخر مختص بواجبنا تجاه العالم الذي نعيش فيه ونابع من حتمية الانشغال بالمصير الانساني عامة .

ونظر في مسؤوليات النضال العربي تجاه أنفسنا فنجد انها لا زالت في هذه المرحلة الجديدة تقع ضمن الاهداف التي بلورها النضال العربي.. أهداف الحرية والاشتراكية والوحدة . فعلى الرغم مما حققته الامة العربية على طريق هذه الاهداف فانها لم تبلغها بعد كما هو واضح . وأمامها جهود ضخمة تبذل لبلوغها ولتكون أقدر من ثم على النهوض بمسؤولياتها تجاه العالم . واذا كان الميثاق الوطني قد أوضح عند صدوره قبل اثني عشر عاما ان هذه الاهداف « كانت نداءات مستمرة للنضال العربي . ولكن الثورة العربية الآن تواجه مسؤولية شق طريق جديد أمام هذه الاهداف » . فان هذه المسؤولية تتجدد اليوم بعد حرب رمضان لتتصدى لمتطلبات النضال العربي في المرحلة الجديدة . ومما يلفت الانتباه ويثلج الصدر ان ورقة أكتوبر التي صدرت في مصر العربية حددت هـذه المسؤوليـة وشرحت مهماتها .

وكان تركيزها على الربط بين المعركة العسكرية وبين معركة البناء . فقد أوضحت « ان المرحلة التي نبدؤها بعد أكتوبر المجيد هي مرحلة التقدم والبناء » . وأكدت وهي تخاطب شعب مصر العربي « ان بناء القوة الذاتية لمصر هي التي حركت الموقف كله وغيرت صورة الواقع المفروض علينا .. وستظل قوتنا الذاتية هي القاعدة الصلبة لحركتنا الحرة ، والركيزة القوية لدورنا العربي والافريقي والدولي . » ثم شرحت المهمة المطروحة وهي « لا تقل عن رسم استراتيجية حضارية شاملة لحركة مجتمعنا الى الامام .. من أجل بناء دولة عصرية ومجتمع حديث تغطي كل مجال في حياتنا .. بدءا من القيم التي يجب ان تتوافر لانساننا الجديد، الى علاقاته الاجتماعية ومستوى رخائه المادي ، الى اطار حديث للدولة التي يعيش فيها والمؤسسات التي

ينشط من خلالها .. مع توفير أساس متين لقوة هذه الدولة سياسيا واقتصاديا وعسكريا . وتناولت الورقة بعض معالم هذه الاستراتيجية الحضارية الشاملة [1] . ولنا ان نتوقع ان تحذو اقطار عربية اخرى حذو مصر العربية وتسجل رؤيتها لطبيعة ومهام المرحلة الجديدة التي دخلها النضال العربي بعد حرب رمضان . ويبقى على الفكر العربي واجب صياغة الرؤية القومية الشاملة لمسؤوليات ومتطلبات النضال العربي في هذه المرحلة الجديدة .

والحق ان الفكر العربي حين يتصدى لهذا الواجب لا يبدأ من فراغ. فهناك رصيد من جهود فكرية صادقة تجمع منذ ظهور حركة اليقظة العربية الحديثة في القرن الماضي . وقد ساهم في هذا الرصيد مفكرون اعملوا فكرهم في تشخيص الداء الذي أصاب الامة العربية والمسلمين عامة والبحث عن الدواء وعن وسائل النهوض وأسباب التقدم[2] . ويتضح من هذا الرصيد ان مشكلتنا الاولى هي مشكلة التخلف الذي يتمثل في مظاهر عدة والذي منشأه ركود العقل فينا وغلبة التقليد علينا ، وان معركتنا الاساسية هي معركة القضاء على التخلف وبناء حضارتنا من جديد وذلك بتحقيق أهداف النضال العربي .

كذلك فان مسؤوليات النضال العربي تجاه العالم لا تزال في هذه المرحلة الجديدة تقع ضمن الرسالة الحضارية للعالم الثالث التي شاركت الثورة العربية في بلورتها والتي تناضل من اجل القضاء على الاستعمار ، واستتباب السلام القائم على العدل ابعادا لخطر الفناء الذي يتهدد العالم ، وتحقيق التقدم والتعاون الدولي من أجل الرخاء . وواضح من صورة عالم الغد ما يمكن للفكر العربي وفكر العالم الثالث عامة ان يسهم فيه من عطاء

---

(١) ورقة أكتوبر الاهرام ١٩-٤-٧٤ . وقد جرى استفتاء شعبي عليها في ١٥-٥-٧٤ .

(٢) عرض أحمد امين في كتابه « زعماء الاصلاح في العصر الحديث » لاعمال بعض المفكرين وسيرهم . ونشير ايضا الى اعمال حديثة قيمة في هذا المجال لمالك بن نبي وقسطنطين زريق ووليد قمحاوي وزكي نجيب محمود وآخرين .

لبناء حضارة انسانية تسود فيها القيم الجديدة التي يحكمها الضمير والحق فيخرج بها العالم من أزمة القيم التي يعاني منها .

ان نهوضنا بهذه المسؤوليات على المستويين مرتبط ارتباطا وثيقا باستجابتنا للتحدي الذي تمثله قضية فلسطين . وبكلمة اخرى بموقفنا من الصراع العربي الاسرائيلي . ولقد بدت هذه الحقيقة جلية على مدى سنوات هذا الصراع وجاءت حرب رمضان باحداثها ونتائجها لتؤكدها مرة أخرى. ولقد وضح من هذه الدراسة ان عدونا سيتابع عدوانه وهذا يعني استمرارية الصراع فترة اخرى . فما الذي ينبغي علينا عمله لمجابهة هذا العدوان ولصنع المستقبل العربي في المرحلة القادمة ؟

قلنا انه لا بد ان نحدد مواقفنا ونرسم بدقة خطوط طريقنا . وهذا يقتضي أول ما يقتضي ان تتضح لنا ولعدونا وللعالم طبيعة المشكلة الفلسطينية كما هي عليه اليوم بعد حرب رمضان والحل الانساني الذي نطرحه علاجا لها .

نطالب بهذا الوضوح لانفسنا حتى تنطلق من فوق أرض صلبة لبلوغ هدفنا . ونقضي على الضباب الذي حجب الرؤية عند البعض بفعل الظاهرة المرضية التي رافقت نتائج الحرب فاهتزت لديهم القضية واختلط عليهم الهدف . ونطالب به لعدونا ليكون على بينة من أمره مدركا الى أين سيصل به عدوانه . ونطالب للعالم كي تفهم الاسرة الدولية أصل المشكلة وتدرك ضرورة طرح الحلول الجذريةلها :

لا تزال قضية فلسطين اليوم كما كانت عليه بالامس هي قضية غزو استعماري تقوم به الحركة الصهيونية لاجزاء من الوطن العربي : نتج عنه تشريد شعب فلسطين العربي واغتصاب واحتلال ارضه . وقد اصطنعت هذه الحركة الصهيونية التي نشأت ــ كما رأينا ــ في ظل الاستعمار الغربي وكجزء منه . قومية ليهود العالم الذين ينتسبون لقوميات عدة بغير أساس

علمي أو تاريخي . مستغلة ظروفا خاصة أحاطت ببعض يهود اوروبا في فترات محددة واوجدت بينهم المسألة اليهودية . وعمدت الصهيونية الى مقاومة اندماج اليهود في مجتمعاتهم بأساليب متعددة .

وواضح ان الحركة الصهيونية في المرحلة الراهنة باقية على أهدافها مستمرة في عدوانها . وقد أوضحت الدراسة بما لا يقبل الشك هذه الحقيقة ، كما ان ما يتردد في التجمع الاسرائيلي مؤخرا وبعد حرب رمضان عن اقامة مستوطنات صهيونية جديدة في سيناء والجولان فضلا عن فلسطين مثل من أمثلة كثيرة عليها .

علينا اذن أن نوطن أنفسنا على هذه الحقيقة فذلك هو قدرنا كما أوضحنا ، وطبيعي اننا سوف نجابه هذا العدوان . وعلى العالم من حولنا ان يتوقع والحال هي هذه الحال استمرار الصراع ما دامت هناك حركة صهيونية .

ومن ناحية اخرى فان قضية فلسطين هي قضية شعب شردته الغزوة الصهيونية وأرض لهذا الشعب اغتصبها الغزاة الصهاينة ، ومهما حاول العدو ان يخفي هذه الحقيقة فانها ستبقى ساطعة بفعل وجود هذا الشعب ومقاومته ونضاله لاسترداد حقه . كما ان المحاولات الدولية لمعالجة فروع القضية لن تنهي الصراع وانما ستكون مسكنات مؤقتة التأثير يزول مفعولها فيتفجر الصراع من جديد .

القضية اذن في المرحلة الراهنة هي في أحد وجهيها قضية غزو استعماري استيطاني تقوم به الحركة الصهيونية مستغلة وجود مسألة يهودية في أجزاء من العالم . وهي في وجهها الآخر قضية شعب مشرد ووطن مغتصب وأمة مهددة ونضال دائب يقوم به هذا الشعب وهذه الامة لابعاد الخطر واستعادة الحق .

ان أي حل لهذه القضية يجب ان يأخذ بعين الاعتبار هذين الوجهين ليكون حلا متكاملا .

فبالنسبة للوجه الاول لا بد من حل للمسألة اليهودية بداية ، ولا بد من حل للوجود الاسرائيلي الذي تجمع في فلسطين بفعل الغزوة .

وبالنسبة للوجه الآخر لا بد من حـل ينهي تشريد شعب فلسطين ويسترجع له حقه ويبعد شبح الخطر عن الامة العربية .

نبدأ بحل « المسألة اليهودية » . فنجد اننا كعرب مؤهلين لطرح حل انساني لها . ومعلوم اننا اكتوينا بنار نتائج هذه المسألة الا انه لم تكن لنا صلة بنشأتها حين ظهرت في مجتمعات اوروبا . ولم تعرف أمتنا على مـدى تاريخها الطويل « مسألة يهودية » ، بل قدمت للانسانية مثلا رائعا للتسامح بين الاديان في ظل الحضارة العربية الاسلامية .

اننا ننطلق في هذا الحل الانساني من اعلان حق كل يهودي في العيش الكريم ضمن قوميته وعلى أرض وطنه . فاليهودية دين يعتنقه أقوام مـن اجناس عدة كما تثبت الدراسات الانتروبولوجية[1] . وهؤلاء الاقـوام ينتمون لقوميات عدة ، واذا كان رباط الدين يجمعهم فانه لا يعني وجود قومية واحدة تجمعهم . وهذا يعني اننا نفرق بين اليهودية كدين وبين الحركة الصهيونية التي حاولت أن تصطنع قومية ليهود العالم . ونلاحظ ان اسرائيل منذ قيامها تشهد الازمة تلو الازمة حـول تعريف من اليهودي ؟ ومـن الاسرائيلي ؟ وحول تحديد الجنسية الاسرائيلية[2] ، تأكيدا على بطـلان الزعم الصهيوني .

ان هذا الاعلان عن حق كل يهودي في العيش الكريم ضمن قوميته وعلى أرض وطنه يفرض أن يرتفع الصوت ضد اي اضطهاد ليهودي في

---

(١) من بين هذه الدراسات كتاب جمال حمدان اليهود انثروبولوجيا سلسلة كتب ثقافية .

(٢) يراجع مقال « اليهودية دين لا قومية » في كتاب يوميات المقاومة .

وطنه بسبب يهوديته . ونحن كعرب لا ننسى مقدار ما عانيناه ونعانيه بسبب حدوث هذا الاضطهاد في مجتمعات أخرى في الوقت الذي عاش فيه يهود الوطن العربي قرونا طويلة « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » يتنفسون منـاخ التسامح الذي كان مخيما على الحضارة العربية الاسلامية . ونتـوقع ان يوصل هذا الاعلان الى اندماج اليهود في مجتمعاتهم مع تمسكهم بعقيدتهم. وقد ظهرت ملامح المرحلة الثالثة من مراحل المسألة اليهودية التي تحـدث عنها توينبي في بعض بلاد الغرب . كما ظهر بوضوح فشل الحل الصهيوني للمسألة اليهودية في التجمع الاسرائيلي على أرض فلسطين العربية . وطبيعي اننا كعرب نسلم بحق يهود الوطن العربي في العيش الكريم على الاجـزاء العربية التي ولدوا فيها .

من المتوقع أن تحارب اسرائيل والحركة الصهيونية هذا « الحـل الانساني » للمسألة اليهودية ــ كما سبق أن أوضحنا ــ لانه سوف يفقدها مبرر الوجود ، ولانه يكشف حقيقتها العنصرية ، ولانه يأخذ منها ورقة الابتزاز لتهجير يهود العالم من أوطانهم . ولكن مناخ عالم الغـد هو في صالح نضالنا ونضال أحرار العالم لتغليب هذا الحل الانساني[١] . وعلينا ان نرفع أصواتنا جميعا ضد اي اضطهاد لليهود في العالم وخصوصا حملات الاضطهاد التي تختفي وراءها الصهيونية العالمية ، وان نقاوم بشدة تهجير الصهيونية ليهود العالم الى فلسطين ، وندعو جميع الدول لمقاومة تسـلط الصهيونية على مواطنيها اليهود .

ونأتي للحل الذي نتصوره لمعالجة الوجود الصهيوني الذي تجسـم في فلسطين بفعل الغزوة . ونشير بداية الى ان الحل الانساني للمسـألة اليهودية سوف يفقد الحركة الصهيونية القدرة على تهجير مزيد من يهـود

---

(١) نشير الى رد كاتب هذه السطور على البروفسور مبمي اليهودي الصهيوني في ندوة جريدة لوموند بباريس في نوفمبر ١٩٧٣ .

العالم الى فلسطين العربية . ويوقف بالتالي التزايد غير الطبيعي لسكان التجمع الاسرائيلي في فلسطين . كما تشير أيضا الى ظاهرة النزوح اليهودي من هذا التجمع واستمرارها واحتمالات تزايدها كما سبق ان اوضحنا .

اننا ننطلق فيما نطرحه بشأن مستقبل يهود التجمع الاسرائيلي في فلسطين من نفس منطلق حلنا للمسألة اليهودية . اي اننا نعترف لهؤلاء اليهود بحقهم في العيش الكريم ضمن قومياتهم وعلى أراضي أوطانهم . ومشاركتهم في غزوة الاستعمار الاستيطاني لفلسطين لا تفقدهم هذا الحق بل تعززه لانه عود بالامور الى نصابها . فاليهودي الذي هاجر الى فلسطين بتحريض من الحركة الصهيونية انجليزيا كان أو روسيا أو رومانيا او مغربيا عربيا من حقه العودة الى موطنه والعيش الكريم فيه .

وطبيعي ان هذا الحق يشمل اليهود الذي ولدوا على أرض فلسطين أثناء الاغتصاب الاسرائيلي لها . لانه انتقل اليهم من آبائهم . وهكذا فان اليهودي الصابرا الذي ولد يهودي اميركي هو اميركي . ونظرة دراسية لطبيعة التجمع الاسرائيلي تؤكد هذه الحقيقة وتكشف عن استمرار هذا التفريق بين يهود شرقيين ويهود غربيين في وسط من اصطلحوا على تسميتهم بالصابرا .

اننا كعرب نعلن هذا الحق ضمن طرحنا « الحل » وندعو جميع الدول لتحذو حذونا ، فتفتح أبواب الوطن العربي ليهود الوطن العربي النازحين من التجمع الاسرائيلي وتفتح ابواب دول العالم كي يعود اليها مواطنوها اليهود الذين هجرتهم الحركة الصهيونية الى فلسطين . وبالطبع فان أبواب فلسطين ستكون مفتوحة لليهود الذين استوطنوها قبل الغزوة الصهيونية ليعيشوا فيها كما عاش اجدادهم ، ولجميع يهود العالم كي يزوروا مقدساتها تماما كما هو الامر بالنسبة لجميع المسيحيين والمسلمين . وقد سجل الميثاق الوطني الفلسطيني ذلك .

بدأنا بالوجه الاول المتعلق بالصهيونية ويهود العالم لنعالج أصل العدوان وجذوره . ونأتي للوجه الآخر المتعلق بشعب فلسطين العربي والامة العربية . فنجد ان الحل الانساني الوحيد الممكن هو عودة شعب فلسطين المشرد الى وطنه واستعادته أرضه وانهاء الخطر الذي يتهدد الامة العربية .

ان حق شعب فلسطين العربي في وطنه هو حق أولي من حقوق الانسان . ولا حل للوضع غير الانساني الذي فرض عليه الا بعودته الى وطنه واستعادته أرضه . وكما هو الحال دوما في تجارب الاستعمار الاستيطاني فان الحل الانساني الوحيد الممكن هو تحرير الارض من الغزاة المستوطنين وردهم الى أوطانهم الاصلية . وبالطبع فان هذا الحل لا يكتمل الا بتحرير كل فلسطين ليعود من احتلت ارضه عام ١٩٦٧ ويعود ايضا من احتلت ارضه عام ١٩٤٨. ولقد اصبحت هذه الحقيقة واضحة لعدونا وللعالم أجمع من خلال تأكيد وجود شعب فلسطين ومقاومته المتصلة التي فرضت الاعتراف بوجوده .

ان طرحنا لخطوط هذا الحل المتكامل الانساني لقضية فلسطين في أصولها وفروعها سيمكن من بلورة صيغة محددة تمكن بدورها من بلوغ الهدف النهائي ومعالجة مشكلات فترة الانتقال اليه . وواضح ان هذا الحل الانساني يقتضي عملا طويل المدى لان من طبيعة قضايا الاستعمار الاستيطاني انها تحتاج زمنا لحلها تماما كما احتاجت زمنا لتفاقمها . ولقد أشرنا الى أننا كعرب مؤهلين لطرح هذا الحل لاننا ورثة الحضارة العربية الاسلامية التي كان التسامح أبرز سماتها ــ كما قرر توينبي ــ ولاننا بحكم العقيدة والاصول الحضارية لا نعاني من عقدة حقد على اليهود ولا نلصق بهم تهمة لا تزيل تدينهم كيهود فهم لم يحتاجوا بيننا قط ان يبرؤا من دم السيد المسيح عليه السلام ، ولاننا بعد حرب رمضان على الخصوص تعزز لدينا الشعور بالثقة تجاه المستقبل فانطلقت فينا امكانيات المبادرة والفعل . ويمكننا ان نفهم بشكل أفضل مدى أهمية هذا الشعور بالثقة حين نذكر

ما كتبه كولن ولسن عن حالة الشعور بعدم الثقة فهو يقول « ان الشعور بعدم الثقة تجاه العالم . هو أول نتيجة لفقدان براءة الطفولة . ولا شك بأنه السبب الذي يدفع كثيرا من الاطفال لتطوير الشفقة الذاتية هو استعمال آلامهم وأمراضهم كسلاح لاستدرار العطف من الآخرين . وأحيانا تنمو هذه الشفقة الذاتية في داخل الانسان وتلاصقه دوما . وان أعقد الخطوات الاولى في حياة الانسان . هي التخلص من الشعور بأن العالم يحقد عليه . انها الخطوة الاولى في سبيل النمو نحو الرجولة. وهناك وسيلة بسيطة وخطيرة أيضا وهي اختيار شخص خاص كهدف لاحساس أحدنا بحقد العالم عليه . فيصب حقده على شيء ما مثل اليهود أو الشيوعية أو مؤامرات الاستعمار ليخلص شعور عدم الانصاف تجاه العالم»[1] .

والحق ان خطوط هذا الحل الانساني المتكامل كانت واضحة امامنا منذ بدايات الغزوة الصهيونية . ويلفت النظر ان السلطان عبد الحميد الثاني طرح الكثير منها في ردوده على منطق تيودور هرتزل حين حاول هذا الاخير النفاذ الى الدولة العثمانية والحصول على اذن من السلطان باستيطان اليهود في فلسطين . فقد أدان عبد الحميد كمسلم اضطهاد اليهود في بعض الدول الاوروبية وابدى استعداد الدولة العثمانية لايواء اليهود المضطهدين فيها الى حين زوال الظروف الصعبة المحيطة بهم . ولكنه تشدد في منع تجمعهم في فلسطين أو في جزء واحد من الدولة . وقرن السماح لليهود بزيارة أماكنهم المقدسة في فلسطين بحظر استمرار اقامتهم فيها بعد الزيارة — سواء بالنسبة ليهود الوطن العربي أو يهود الدول الاخرى — تحسبا من محاولات الصهيونية ابقاءهم في مستعمراتها الاستيطانية[2] . كما ان الموقف العربي حرص ان يبرز في الوثائق الرسمية حتى بعد استفحال خطر

---

(١) كولن ولسن ما بعد اللامنتمي ص ٢٣٨ دار الاداب .

(٢) نفصل الحوار بين هرتزل وعبد الحميد في كتابنا « عبد الحميد في التاريخ » وهو قيد الطبع وقد نشر الفصل الخامس بالحوار في جريدة الجمهورية .

الغزوة الصهيونية على فلسطين ادانة اضطهاد اليهود في الدول الاخرى وحذر ان يكون هذا الاضطهاد سببا في انزال الظلم بشعب فلسطين العربي، وقد تضمن مؤتمر بلودان نصا واضحا بهذا الشأن . وحين عادت مقاومة شعب فلسطين الى الانطلاق مرة اخرى وتصاعدت بعد نكسة يونيو (حزيران) ١٩٦٧ حرصت على ابراز طابعها الانساني وطرحت بوضوح بعض خطوط هذا الحل .

وهكذا أعلنت المقاومة ان عداءها هو للحركة الصهيونية ــ التي هي حركة استعمارية فاشية عنصرية ــ وليس لليهود كيهود . وان هدفها هو تحرير فلسطين من الاحتلال الصهيوني لاقامة دولة ديمقراطية يعيش فيها معتنقو الديانات السماوية الثلاثة من مواطنيها جنبا الى جنب في ظل التسامح . وصدرت بعض التصريحات عن منظمة التحرير الفلسطينية تعترف بحق كل يهودي في العيش في وطنه ومن ثم حق يهود الوطن العربي في العيش في الاقطار العربية التي نشأوا فيها . كما صدرت تصريحات عربية على المستوى الرسمي تتصل بهذا الموضوع[1] .

ونلاحظ ان شعار الدولة الديمقراطية الذي طرحته المقاومة ومنظمة التحرير أصبح معروفا في العالم ، بينما لم يعرف بعد شعار عيش اليهود في مجتمعاتهم ولم تنتشر وجهة النظر العربية بهذا الشأن . ولعل مرد ذلك هو عدم تبلور وجهة نظر عربية واحدة حول هذا الشعار تتبناها منظمة التحرير الفلسطينية وجميع الدول العربية . ذلك لان امتنا في المراحل السابقة

---

(١) نقلت بعض الصحف الاسرائيلية حديثا للملك المغرب مع ناحوم جولدمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية خلال زيارة جولدمان للمغرب عام ١٩٧٠ . فنسبت للملك قوله في ختام اللقاء « ان باب المغرب مفتوح لليهود المغاربة الذين هاجروا لاسرائيل كي يعودوا الى وطنهم ، وطلب من جولدمان ابلاغهم ذلك . فكان رد جولدمان وقد شعر بالارتباك امام هذا التصريح «ولكن من قال انهم يريدون العودة؟!» . وقد أعلن رئيس مجلس قيادة الثورة الليبي أثناء زيارته لباريس في نوفمبر ١٩٧٣ ان باب الجمهورية العربية الليبية مفتوح امام اليهود الليبيين ، واهاب بجميع الدول ان تصدر مثل هذا الاعلان . (يراجع نص ندوة اللوموند) .

لنكسة يونيو (حزيران) كانت تركز في طرحها للقضية على شعار واحد هو حق شعب فلسطين في وطنه . وأهملت تماما ربط هذا الشعار بشعارات تساعد المجتمع الدولي على فهم طبيعة الحل الذي نطرحه للقضية . وطبيعي أن يكون التركيز على الشعار الاساسي الذي يعلن حق شعب فلسطين في وطنه ولكن من المطلوب أيضا أن يقترن ذلك بطرح شعار عن حق اليهود في العيش ضمن مجتمعاتهم وقومياتهم بما في ذلك يهود الوطن العربي . وفتح الابواب لمن نزح منهم للعودة . ولقد جاء طرح شعار الدولة الديمقراطية بعد نكسة حزيران خطوة أولى في محاولة سد النقص الذي كان موجودا في الطرح ، فلاقى اهتماما دوليا لانه تضمن شيئا من التحديد في تصور صيغة ما للحل الذي نطرحه. وبقي ان تتبعه خطوات تكمل تحديد الصيغة تماما وبوضوح كامل . وواضح اننا كعرب بعد حرب رمضان في وضع يمكننا من المبادرة لاعلان هذه الخطوات . وسط مناخ دولي بات مهيئا لها أكثر من أي وقت مضى .

وهكذا فان علينا في هذه المرحلة أن نطرح خطوط تصورنا للحل حتى يستقر في ضمير العالم كحل انساني عملي يتفق مع المثل العليا ويعالج القضية من جذورها . فنؤكد حق شعب فلسطين في وطنه وضرورة وحتمية عودته لارضه بعد تحريرها من الاستعمار الاستيطاني الصهيوني . ونؤكد في الوقت نفسه حق يهود العالم في العيش ضمن قومياتهم ومجتمعاتهم على أساس ان اليهودية دين وليست قومية . وندعو العالم الى تأييد نضالنا لتحرير فلسطين من الحركة الصهيونية العنصرية ، والى الوقوف في وجه أي اضطهاد ليهود او اي اضطهاد طائفي أو ديني أو عنصري وفتح الأبواب لعودة من نزح من يهود الدول الاخرى الى أوطانهم ، ومقاومة الحركة الصهيونية كحركة عنصرية سواء في عدوانها على العرب أو في تسلطها على اليهود . وستكون الحاجة ملحة لهذا الطرح في هذا الوقت

الذي تنشط فيه المساعي الدولية للتوصل الى تسوية للصراع تعالج مبررات التوتر فيه وتحاول تهدئته لفترة .

ان وضوح المشكلة والحل هو المنطلق في عملنا لمجابهة العدوان الصهيوني المستمر ولصنع المستقبل العربي في المرحلة القادمة . وواضح ان هذا العمل هو عمل طويل المدى وهو استمرار للنضال العربي على مختلف مستوياته يستجيب به لتحدي العدوان .

فكيف نرى هذا العمل الطويل المدى ؟

نبدأ بالمستوى القومي الذي يخص دائرة « نحن » ويجسد مضمونها؛ ذلك انه لا معنى للحديث عن عمل عربي يجابه العدوان وعن مكان العرب في عالم الغد ما لم تبرز حقيقة الامة العربية الواحدة والوطن العربي الواحد من خلال الموقف العربي الواحد . ولقد أتخذ هذا الموقف العربي الواحد خلا لحرب رمضان فكان له تأثيره الفعال ونبه العالم الى وجود قوة جديدة . كما عرف النضال العربي خلال ربع القرن الاخير مناسبات اتخذ فيها موقف عربي واحد مرات ، فظهر للعالم تأثيره الفعال في كل مرة ودفعه ا لىالحديث عن القومية العربية كقوة في المنطقة . ونلاحظ ان المخططات الاستراتيجية الاستعمارية تأخذ بعين الاعتبار هذه الحقيقة وتتحسب منها فتنطلق من وجود أمة واحدة في المنطقة وتخطط لمنع اتخاذ الموقف الواحد مستغلة تعدد الكيانات ووجود تناقضات داخل هذه الامة.

والحق ان تعدد الكيانات العربية بما يعنيه من توزع الارادات العربية ووجود التناقضات بما ينتج عنه من تصادم هذه الارادات وقف عقبة أمام اتخاذ الموقف الواحد مرات كثيرة ، ومكن للعدوان ان ينال مآربه في وطننا . الامر الذي طرح بالحاح قضية الوحدة العربية في مجال العمل السياسي العربي ، وسلط الاضواء على الوحدة كهدف أصيل للنضال العربي .

ان الشعور بضرورة الوحدة بات أكثر الحاحا بعد حرب رمضان . ليس لقطع الطريق على العدوان فحسب بل للنتائج الايجابية الضخمة التي تسفر عن الموقف العربي الواحد والتي ذقنا شيئا من حلاوتها أثناء الحرب. ويبقى أن يوفق النضال العربي الى اتباع الاساليب الصحيحة لبلوغ الوحدة مستفيدا من هذا الشعور . وهو في هذا المجال لا يبدأ من فراغ فعنـده حصيلة تجارب هامة في العمل الوحدوي العربي يستطيع بدراستهاودراسة الواقع العربي اليوم ان يتوصل الى تحديد هذه الاساليب الصحيحة .

وضمن الايجاز الذي يحكم هذا الحديث نشير الى ان الواقع العربي يؤكد وجود أمة واحدة توافرت لها كل مقومات الامة تعيش في وطنهـا الكبير ضمن دول ، وتمر في طور انبعاث حضاري تعمل فيه بجد للقضـاء على التخلف الذي عاشته قرونا واللحاق بركب التقدم . وتتعدد في هذه الامة الواحدة انماط الحياة فهناك نمط حيـاة البلدة ونمط حيـاة القرية ونمط حياة المدينة . وتتأثر المثل السائدة فيها بهذه الانماط التي يتفاعل في تكوينها الجغرافيا والتاريخ . ويتوزع الولاء في هذه الامة الواحـدة بفعل البنية الاجتماعية والجغرافيا وتعـدد الكيانات والثروة النفطية بين العائلية والوطنية والقومية . وتتباعد بين اجزاء الوطن العربي الواحد ، بل بين أجزاء القطر العربي الواحد المسافات بسبب تأخر ثورة المواصلاتفيها. وتختلف بسبب عواملتاريخية وسياسية واجتماعية واقتصادية انظمة الحكم في الدول العربية .

ان الاساليب الصحيحة لبلوغ الوحدة تأخذ هذا الواقع بعين الاعتبار، وتنطلق منه لتطويره ، ولا تضع رأسها في التراب لتنكر ما لا يعجبها فيه . ولعل من أهم دروس وعبر التجارب الوحدوية العربية خـلال العقـدين الماضيين ضرورة الانطلاق من الواقع وفهم حقائق الجغرافيـا والتـاريخ والاجتماع في الوطن الواحد لايجاد صيغ وحدوية صحيحة . ولقد كشفت هذه التجارب على ان اخلاص وحماس الوحدويين لم يكن كافيا لتحقيق

الوحدة وللتغلب على صعوبات الواقع العربي . كما كشفت ان الوحـدة عانت أيضا من دعاتها الذين حاولوا القفز عن الحقائق فاختلت خطواتهم .

ولعل أهم ما كشفت عنه هذه التجارب هو ايجاد معادلة صحيحـة للعمل الوحدوي توازن وتجمع بين العمل العربي الثوري والعمل العربي الموحد . ولقد استطاعت الثورة العربية ان تتبين هـذه المعادلة وحاولت جهدها ان تشير عليها .

ان أول ما ينبغي أن نحرص عليه في المرحلة القادمة من النضال العربي لمواجهة العدوان الصهيوني هو اتخاذ الموقف العربي الواحد ضده وتنمية التعاون العربي في شتى المجالات ليكتسب هذا الموقف مضمونه الحقيقي، وليضع الامة العربية في مكانها الصحيح في عـالم الغـد . كما ينبغي ان نستهدف في مجال التعاون العربي ايجاد حقائق وحـدوية تكون اساسـا سلبا للوحدة المرجوة . وآفاق العمل العربي الموحد رحبة لتحقيق ذلك . وسيقتضي الامر تقوية المؤسسات التي وجدت لتجسيده وفي مقدمتهـا جامعة الدول العربية والمنظمات العربية المنبثقة عنها . وأمامنا كأمة مجالات كثيرة ثقافية واقتصادية واجتماعية وسياسية ينبغي ان نوجد فيها حقائـق وحدوية لندخل العصر ونجسد وجودنا كأمة واحدة .

ان هذا العمل العربي الموحد يتكامل مع العمل العربي الثوري هـو ثمرة التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في مختلف اجزاء الوطن العربي . وهذا العمل العربي الثوري سيستمر لان هذه التغيرات مستمرة وسوف يصل حين ينضج في بعض الاجزاء الى الوحدة السياسية مستفيدا من الحقائق التي اوجدها العمل العربي الموحد .

ولا بد أن نشير ونحن نتحدث عن مجابهتنا للعدوان الصهيوني الى أهمية ايجاد الحقائق الوحدوية في المجالين العسكري والاقتصادي فضلا عن المجال السياسي . وقد أظهرت حرب رمضان حيوية هـذا الهـدف .

وواضح ان الاساليب الصحيحة قادرة على بلوغه وعلى تحقيق التوازن بين طرفي معادلة العمل العربي . كما ان هذه الاساليب ستكون قادرة على مجابهة خطر الاقليمية في العمل العربي بشتى اشكالها . ومجابهة خطري الرجعية الجامدة والمزايدات الطفولية. وينبغي على النضال العربي انيستفيد من عدم التناقض بين الوطنية والقومية وبين القومية والانسانية . ليحشد الطاقات العربية ويقضي على الاقليمية . ذلك ان الاعتراف بالمشاعر الوطنية واشباعها هو السبيل لبلوغ النضج القومي وتجاوز ما تعبر عنه الاقليمية من افتقار للنضج . كما ان ادراك التشوفات الانسانية يعطي قوة للقومية ويفتح أمامها آفاقا رحبة ويبعد عنها خطر العنصرية والاستعلاء .

ان النضال من أجل الوحدة والموقف العربي الواحد في المرحلة القادمة مرتبط ارتباطا وثيقا بالنضال من أجل بلوغ هدفي الحرية والاشتراكية . فالحرية السياسية حق لامتنا في مختلف اجزاء وطنها . والحرية الاجتماعية شرط لأستكمال الحرية السياسية وتحقيق التقدم . ذلك ان مفهوم الكفاية والعدل الذي تتضمنه الاشتراكية متصل اتصالا وثيقا بمفهوم التقدم والمعاصرة ، وبحقيقة الديمقراطية .

وهكذا لا بد أن يكون الشاغل الاول للجهد العربي في المرحلة القادمة هو بناء الانسان العربي الجديد .. وتوفير الحياة الحرة الكريمة له . فهذا هو الهدف الاسمى الذي من أجله كانت الاهداف الاخرى . وفي هذا المجال يرد التأكيد على الشورى والديمقراطية كضرورة لازمة لهذا البناء ولاسعاد الانسان ، وعلى تنمية ثرواتنا البشرية التي هي أساس التنمية الاجتماعية . والانسان العربي المطلوب لمجابهة تحدي العدوان وللقيام بمسؤوليات النضال تجاه أمته وتجاه العالم هو انسان حر يتكلم اللغة الجديدة ويستشعر بعمق دوره الانساني وحقيقة كونه خليفة الله في الارض .

ان العمل لتحقيق هذه الاهداف سيتطلب تحديد مهام المرحلةالقادمة على ضوء التخطيط المستقبلي . وهـذا يعني ضرورة مباشرة التخطيـط لمستقبل الوطن العربي بنظرة قومية تعي حقائق واقع التجزئة القائم وتدرك أبعاد عالم الغد . وهكذا يتحقق التكامل في العمل العربي للنهوض في شتى المجالات ويوجد الحقائق الوحدوية . وان غيـاب النظـرة القومية عنـد التخطيط لمستقبل اي قطر عربي بمفرده سيؤدي في كثير من الاحيان الى بروز مشكلات التضارب والتراكم . ومن هنا تأتي أهمية البدء بالتخطيط القومي الشامل ويمكن لمؤسسات العمل العربي الموحد ــ وفي مقدمتها مؤتمر القمة العربي ــ أن تباشره . أو يكون الحرص ــ كأضعف الايمان ــ على التخطيط القطري بالنظرة القومية . وأمامنا تجربة السوق الاوروبية المشتركة كمثل على التخطيط بين قوميات عدة تجمع بينها القارة الاوروبية والحضارة الغربية .

وضمن هذا التخطيط القومي الشامل لنا ان نتـوقع توزع الادوار وتكاملها بين الاقطار العربية ، كما لنا ان نتصور مجالات التعاون الواسعة بينها للقيام بمهام المرحلة ، وعلى الخصوص من أجل استصلاح الاراضي والري والزراعة والمواصلات والصناعة ، وقبل ذلك كله التربية والتعليم . وسيغني هذا التعاون عن طلب المعونات المالية من الدول الكبرى ، ويتيح الفرصة للمال العربي كي يستثمر في الارض العربية ، ويمكن من اقامـة صناعة أسلحة متقدمة في الوطن العربي تحقق حـدا أدنى من الاكتفـاء الذاتي في مجال السلاح وتعالج احتمال وصول الدول الكبرى المنتجة له الى الاتفاق على تحديده في المنطقة.

ان هذا العمل على المستوى القومي سيجعل العرب قادرين على مجابهة العدوان في المرحلة القادمة وعلى احتلال مكانهم بين الامم في عالم الغد . ولا بد له ان يتكامل مع عمل على المستوى الدولي ينشغل بالعلاقات العربية الدولية .

ويمكننا على ضوء ما رأيناه من تقسيمات عالم الغد ، وما خبرناه في التحرك العالمي للثورة العربية خلال العقدين الماضيين أن نحدد منطلق النضال العربي على المستوى الدولي . فنحن ننطلق في هذا النضال من فكرة الحياد الايجابي وعدم الانحياز التي تأكدت سلامتها مع ما شهده العالم من متغيرات ؛ ومن كوننا جزءا من العالم الثالث الذي يناضل ضد الاستعمار والتخلف .

لقد خرجت الثورة العربية من تجربتها في تبني سياسة عدم الانحياز بمفهوم واضح لهذه السياسة . فهي « ليست تجارة حرب باردة . والتغيرات الدولية في أوضاع الكتل لا تؤثر فيها ، وانما يبقى لهذه السياسة تعبيرها عن ضمير الانسانية الملتزم بميثاق الامم المتحدة سواء كانت هناك كتلتان أو ثلاث أو أربع . وهي في صورتها النهائية تجسيم لبلوغ السلام القائم على العدل »[1] . وعلى الرغم من الصعوبات التي برزت امام هذه السياسة منذ ظهورها فانها استطاعت ان تشق لها طريقا في عالمنا المعاصر . وتؤثر على الخصوص في الضمير العالمي بما تقوم عليه من مبادىء وما تطرحه من قيم جديدة فاضلة .

ان الحاجة ملحة اليوم وغدا على المستوى الدولي ـ كما ألحت منذ الحرب العالمية الثانية ـ لاستمرار فكرة عدم الانحياز والحياد الايجابي واغنائها ، ولقيام دائرة الافريقية الآسيوية والدائرة الاسلامية ضمنها بدورها في طرح القيم الجديدة وتغليبها في عالم الغد الذي يتطلع للخلاص من أزمة القيم . وهذا يعني ان عدم الانحياز والحياد الايجابي لا يقتصر على التحرك السياسي بل يطرح افكارا ومبادىء وقيما .

من هذا المنطلق نستطيع ان نحدد وجهة حركتنا الدولية وتقوم بدورنا

---

(١) من خطاب جمال عبد الناصر في المؤتمر الثاني لعدم الانحياز • يراجع كتابنا عبد الناصر والثورة العربية ص ٢١٠ وما بعد للاستزادة •

العالمي ونرسم خطوط السياسة الخارجية العربية . وان حقيقة كوننا جزءا من العالم الثالث نحمل معه فكرة الحياد الايجابي وعدم الانحياز تفرض ان تكون الاولوية في تحركنا الخارجي له . فالتحرك العربي داخل دوائر العالم الثالث عامل اساسي في دفعه الى احتلال مكانه في عالم الغد ، وهو أيضا عامل هام في تحقيق انطلاقة العرب عالميا وفي تسكين الامة العربية من تحرير أراضيها .

ولقد تحدثنا في فصل سابق عن العالم الثالث في عالم الغد وتعرفنا على موقفه من الصراع العربي الاسرائيلي ، وعلى ضوء الصورة التي رأيناها يمكننا ان نتأكد من كونه مجالا هاما وارضا خصبة للنضال العربي . كما نستطيع أيضا ان نرسم خطوط سياستنا مع دوله ، فلا بد ان تقوم هذه السياسة على أساس الالتحام به ، وقيامنا كعرب بدورنا في دائرته الاسلامية ودائرته الافريقية ودائرة عدم الانحياز . وهذا يعني ان تكون سياستنا أصيلة بعيدة عن الارتجال ، وان تضع نصب عينها انها تستهدف بناء حضارة لا مجرد تحركات سياسية ، وستثمر هذه السياسة تلقائيا ثمارا يانعة في مواجهتنا للعدوان . كما تحدثنا في موضع آخر عن السياسة الاسرائيلية تجاه دول العالم الثالث وتوقعنا تركيزها على علاقاتها بتركيا وايران واثيوبيا للقفز على الحصار العربي ولمحاولة ضرب الوطن العربي من اجزاء مجاورة له ، وقلنا ايضا انها رغم الصدمة التي تلقتها في افريقيا ومن دول عدم الانحياز عامة فانها ستعاود الكرة للتغلغل في افريقيا وللنفاذ الى بعض دول العالم الثالث غير المنحازة . والامر يقتضي ان ينشغل تحركنا السياسي القائم على المبدأ بمجابهة هذه المخططات وقطع الطريق امامها باقامة العلاقات العربية مع دول العالم الثالث على أساس الالتحام بهذه الدول ، وان نصبر على بذل غاية الجهد من أجل تقدم العالم الثالث ولا تعد اعيننا عنه أمام بريق أية مكاسب سريعة اخرى تحققها علاقات مع الدول المتقدمة.

نأتي بعد ذلك الى علاقاتنا العربيــة مع الكتل الاخرى . ويمكننا ان نرسمها على ضوء هذا التصور لمكان الوطن العربي في العالم .

هناك العلاقات العربية مع الدول الاشتراكية ؛ وهي لا تبدأ من فراغ فأمامها رصيد تجربة غنية خاضتها الثورة العربية وهذه الدول عـلى مدى العقدين الماضيين . وقد أظهرت حصيلة هذه التجربة امكانية قيام روابط صداقة وتعاون بين العرب والمعسكر الاشتراكي قائمة على الفهم المتبـادل والالتقاء في مواجهة تسلط الاستعمار الغربي والمصالح المشتركة ؛ كمـا برزت في هذه التجربة ايجابيات وسلبيات . وان تمسكنا كعرب بفكـرة الحياد الايجابي وعدم الانحياز وفهمنا لموقع هذا المعسكر في عالم الغـد يقتضي منا الحرص على علاقات الصداقة والتعاون مع الدول الاشتراكية والعمل على تخليصها من السلبيات التي برزت . وان مما يساعدنا على ذلك تجاوز النظرة العاطفية «الرومانسية» لهذه العلاقات والاستفادة من التجربة لتعزيز الفهم المتبادل وتحديد المصالح المشتركة ونقاط اللقاء على ضوء وعي الاختلاف العقيدي وحصره برفض الاحتواء العقيدي من حيث المبدأ . واعتراف المعسكر الاشتراكي بطريق عدم الانحيـاز مثلما نعترف نحـن بطريقه .

ولقد تعرفنا على مكان الاتحاد السوفيتي ــ قطب الرحى في المعسكر الاشتراكي ــ في عالم الغد ، ودرسنا موقفه من الصراع العربي الاسرائيلي مستقبلا ، كما درسنا السياسة الاسرائيلية تجاهه . وعلينا على ضوء ذلك كله ان نتحرك لتعزيز الصداقة العربية السوفيتية ونصب اعيننـا هـدف الانتقال بالاتحاد السوفيتي الى موقف رفض وجود كيان صهيوني عنصري قائم على الابتعمار الاستيطاني في فلسطين العربيـة ، ومـن ثم رفضـه الضغوط الصهيونية الاستعمارية لتهجير يهود الاتحاد السوفيتي . ويكون نصب أعيننا أيضا التعاون لاقامة السلام القائم على العدل وتدعيم حركات

التحرير العالمية وتحقيق التقدم . ولا بد لاسلوب تحركنا ان يأخذ بعين الاعتبار الصداقة العربية السوفيتية ويستفيد من التجربة .

كذلك فان المجال واسع امامنا كعرب لتعزيز علاقات الصداقة مع الصين الشعبية التي تعرفنا على مكانها في عالم الغد وعلى موقفها من الصراع العربي الاسرائيلي . ولا بد ان نتحرك لتحقيق هذا الهدف ونصب اعيننا ما للصين من حضارة شرقية فيها نقاط لقاء وتشابه بحضارتنا ، وما لها من تجربة غنية في محاولة القضاء على التخلف ، والموقف المبدئي الذي تتخذه من الوجود الصهيوني . دون ان نغفل عن الظروف المحيطة بها .

هناك أيضا العلاقات العربية مع أوروبا الغد . وواضح من تعرفنا على مكان أوروبا في عالم الغد وما طرأ من متغيرات على سياسات دولها الاستعمارية وعلى مواقف هذه الدول من الصراع العربي الاسرائيلي ان المجال مفتوح لقيام علاقات تفاهم وتعاون يمكن ان تتطور الى صداقة بين العرب واوروبا . وهكذا فاذا كانت علاقاتنا كعرب مع أوروبا الامس ، وعلى التحديد مع دولها الاستعمارية هي علاقات عداء حافلة بمرارات الجرائم التي اقترفها الاستعمار الاوروبي بحق امتنا وشعوب العالم الثالث، فان علاقاتنا بأوروبا الغد يمكن ان تقوم على اسس جديدة من التفاهم ولقاء المصالح والتفاعل الحضاري . ولا بد من جهد يبذل في هذا المجال للافادة من المناخ المناسب الذي ساعدت حرب رمضان على تهيئته . ومن الممكن ان تثمر هذه العلاقات موقفا افضل تتخذه دول اوروبا الغربية من الصراع يعترف بالحق العربي ويدين وجود الكيان العنصري الصهيوني من حيث المبدأ . ويعاون في ايجاد الحل .

وعلى ضوء ما عرفناه عن اليابان في عالم الغد يمكننا ان نطور العلاقات العربية اليابانية لمزيد من التعاون ومن اجل موقف افضل تقفه اليابان في تأييد الحق العربي .

ونصل الى علاقات العرب بالولايات المتحدة الاميركية ، وهي أيضا علاقات لا تبدأ من فراغ . ولها أهمية خاصة في التأثير على مستقبل الصراع العربي الاسرائيلي . ولقد نبعت هذه الاهمية الخاصة من موقف الولايات المتحدة المؤيد والداعم بغير حدود الوجود والعدوان الاسرائيلي والمعادي للحق العربي في فلسطين وللثورة العربية في الوطن العربي . الامر الـذي أوصل الولايات المتحدة الى ان تكون طرفا مباشرا في الصراع ، والى ان يتجمع نتيجة موقفها هذا في نطاق علاقات العرب بها رصيد من المرارات وفصول من العداء حافلة بالمواقف الاميركية المتتاليـة ومن آخرهـا دعم الولايات المتحدة العسكري لاسرائيل عبر جسر جوي في حرب رمضان .

لقد وضح لنا من دراستنا للولايات المتحدة في عالم الغد ان سياستها الخارجية ستتوزع بـين استسلام المـارد لغطرسة قوته وبين استجابتـه للضغوط من حوله وفي داخله . كما وضح لنا اهتمام الولايات المتحدة في ايجاد حل وسط لقضية فلسطين . ورأينا انها تحاول بهذا الحل الوسـط الجمع بين هدفين متناقضين هما التمسك بدعم اسرائيل ومحاولة كسب الود العربي حفاظا على مصالحها .

ان مبررات الصدام بيننا كعرب وبين الولايات المتحدة لا تزال قائمة سواء على مستوى الوطن العربي ككل حيث توجد لها مصالح كثيرة او على مستوى فلسطين حيث يوجد الكيان الصهيوني العنصري الذي اختارته كاحدى وسائلها لتأمين تلك المصالح . ولكن من الواضح ان ما طرأ مـن متغيرات عالمية داخل الولايات المتحدة نفسها وفي العالم من حولها وما برز من قوة للموقف العربي الواحد يفتح بابا لحوار عربي اميركي يستهدف تحديد مبررات الصدام وحل المشكلات القائمة . وسيكون دافع الولايات المتحدة من هذا الحوار الحفاظ على مصالحها ، كما سيكون احد دوافـع العرب تحويل الولايات المتحدة عن موقف المؤيد الداعم بغير حدود للوجود الاسرائيلي وانهاء التطابق الاميركي الاسرائيلي . وبالطبع فان ولوج هذا

الباب أمر مفهوم وضروري في مرحلة التفاهم الدولي التي دخلتها العلاقات الدولية عامة . كما انه مفهوم وضروري بالنسبة لنا كعرب تنطلق من موقع عدم الانحياز والحياد الايجابي . وقد كان للثورة العربية محاولتها في هذا المجال . ولنا ان نتوقع نتائج ايجابية للجهد الذي يبذل في هذا المجال ومن أهم هذه النتائج على مستوى الصراع قطع الطريق على السياسة الاسرائيلية الرامية الى ادخال الولايات المتحدة كطرف مباشر في الصراع يتطابق معها . ولكن يخطىء خطأ كبيرا من يتصور ان مبررات الصـدام مـع الولايات المتحدة قد انتهت ، وان جميع الابواب قد فتحت امام صفحة جديدة من العلاقات العربية الاميركية .

ان الاوراق التي بأيدينا ونحن نحاول تغيير علاقاتنا بالولايات المتحدة كثيرة وهامة . وهي مرتبطة بموقف عربي واحد قوي يفرض على الولايات المتحدة ان تعترف من خلاله بوجود القوة العربية في عالم اليوم . كما انها مرتبطة بالتحام العرب بالعالم الثالث وقيامهم بدورهم في دعم ثورة التحرير العالمية ، وبتدعيمهم لعلاقات الصداقة التي تربطهم بالدول الاشتراكية .

ان لنا ان نتحرك عـلى المستوى الدولي ونحن مدركين ان مستقبل الجيوب الاستعمارية العنصرية الباقية في العالم واسرائيل في مقدمتها مظلم والطريق أمامها مسدود ، بحكم المناخ السائد في عالم الغد . ويبقى ان نقوم بدورنا ونركز جهدنا على النضال ضد العدوان الواقع علينا عالميا وعدوان متوقع ستقوم به اسرائيل ضدنا .

لا بد ان يتجسد هذا النضال بالكفاح المسلح في فلسطين والاراضي العربية المحتلة . فالنضال العسكري يتكامل مع نضـالنا السياسي عـلى المستويين القومي والدولي . واذا كانت حرب رمضان قد هيأت ــ كمـا أوضحنا ــ المناخ لبلوغ هدف مرحلي لنا ، وفتحت بابا واسعا للنضـال السياسي ، فان احتمالات نكوص العدو وتشبثه بالاراضي التي احتلهـا

عام ١٩٦٧ أو باجزاء منها احتمالات كبيرة . واذا كان فك الارتباط عـلى الجبهتين يحمل في طياته معنى فسح المجال للسياسة كي تأخذ فرصتها ، فان استمرار الاحتلال يفرض ضرورة استمرار المقاومـة . تماما كما ان نكوص العدو وفشل المساعي السياسية سيفرض الحرب مرة اخرى .

ان النضال العربي في هذه المرحلة يتطلب اهتماما خاصا بالساحـة الفلسطينية التي ستشهد استمرار المقاومة ويجب ان تشهد تصاعدها ايضا. وستبقى المقاومة في هذه المرحلة كما كانت في مراحل النضـال السابقـة عنصرا رئيسيا في معركتنا ضد العدوان يتكامل مع عنصر الحرب النظامية.

ولقد ساهمت المقاومة في صنع ايجابيات حرب رمضان . واخذت منها في الوقت نفسه دفعا قوية وفقا لحقيقة تبادل التأثير بين العنصرين المتكاملين. وأثمر هذا الدفع العمليات المتميزة التي حدثت مؤخرا داخل اسرائيل وهزت التجمع الاسرائيلي من اعماقه .

ينبغي علينا اذن ان نعمل على تصعيد مقاومتنا في الوقت الذي نطرح فيه على العالم حلنا الانساني لقضية فلسطين ، لان المقاومة هي السبيـل الافضل لافهام العالم سلامة هذا الحل . وعلى الرغم من صعوبات التصعيد مع صمت المدافع على الجبهات العربية فان تجربة الاعـوام الثـلاثة التي سبقت حرب رمضان اوضحت امكانيته ، فكيف بعد الحرب وقد تحقق ذلك الدفع القوي للمقاومة .

ولعل من أوجب ما يتطلبه هذا التصعيد هو تحقق الوحدة الوطنية في الساحة الفلسطينية ضمن اطار منظمة التحرير الفلسطينية وتحقق الموقف العربي الواحد في الساحة العربية القومية . والصلة وثيقة بين ما يجري في الساحة الفلسطينية وما يجري في الساحة العربية حتى لكأن احدهما انعكاس للآخر . وان الوحدة الوطنية والموقف العربي الواحد على أساس

تمسكنا بهدف التحرير وبمتابعة النضال هو الكفيل بالزام الجميع بالموقف القومي ومنع الاندفاع نحو التفريط بالحق او الدخول في مزايدات مقامرة ولنتذكر دوما اننا نخوض صراع بقاء مع عدو محتل غاصب ، ولا يجوز لنا ان تتشغل عنه بصراع بين « عرب وعرب » . وخصوصا وان عدونا يراهن كثيرا على ورقة الخلافات العربية . وعلى هذا ينبغي الا نفسح المجال لتقسيم امتنا ومنظماتنا او انظمتنا الى « رافضين وقابلين » امام ما يطرح من مقترحات تسوية ، لاننا نتشبث بضرورة توحد الجميع على النضال من أجل تحرير أراضينا وضرب العدوان واجتثاثه من جذوره .

ان توجهنا بعد حرب رمضان هو لاستمرار النضال وخطوط طريقنا واضحة امامنا . وان نجاحنا في امتحان صنع الموقف العربي الواحد هو من أوجب الامور في هذه المرحلة لان فيه تأمين قوتنا وافشال عدونا . كذلك فان نجاحنا في تصعيد المقاومة امر هام للغاية وهو يستوجب مثله مثل العمل السياسي العربي دعم الكيان الفلسطيني الذي تجسده منظمة التحرير الفلسطينية الممثلة لشعب فلسطين العربي. ولقد تعرفنا على موقف العدو البالغ العداء للكيان الفلسطيني باعتبار هذا لا يهدد وجوده الكياني. واستطاعت فكرة الكيان ان تشق طريقها خلال السنوات العشر الماضية بعد انقامت المنظمة لتكون ارضا رمزية يلتقي عليها ابناء فلسطين. وسيكون لدعم الكيان وتصعيد المقاومة اثرهما الكبير في تفجير التجمع الصهيوني من داخله .

ان استمرار النضال يستوجب ايضا ضمن صنع الموقف العربي الواحد ومن أجل دعم الكيان الفلسطيني ، التعاون الفعال بين دول المواجهة وصولا لوحدة عمل عسكري تنطلق من الحد الادنى الذي تحقق في حرب رمضان لتبلغ صورة اكمل . ويستلزم ذلك بالطبع ايجاد حقائق وحدوية في شتى مجالات الحياة لتقوم على أرضها وحدة العمل العسكري . وسيبقى لمصر العربية دور خاص في مجابهة العدو بحكم عوامل الجغرافيا والتاريخ

والديموجرافيا من جهة وما بنته الثورة العربية فيها من جهة اخرى . وهذه الحقيقة هي التي تدفع العدو الاسرائيلي الى محاولات اخراج مصر من الصراع : وهو الشعار الذي طالما ردده بن جوريون ويردده الآن رابين . وبالطبع فان هذا الدور الخاص لمصر يتكامل مع دور هام لسوريا والعراق الجناح الآخر في المجابهة ، ومع دور ينتظر لشرق الاردن وللبنان : ومع أدوار بقية الاقطار العربية التي تشل العمق لدول المواجهة استراتيجيا واقتصاديا .

لا بد ان يحقق استمرار نضالنا العربي في المرحلة الراهنة قطف الثمرة التي انضجتها حرب رمضان : وهي انسحاب عدونا من الاراضي التي احتلها بحرب ٦٧ . ولكن ليس لنا ان نتوقع الوصول الى ذلك من خلال مؤتمر جنيف لان عدونا سيلجأ في جنيف الى الاساليب التي شرحناها في الوقت الذي يمارس فيه الاحتلال ليصل الى شن حرب جديدة . وعلى ذلك لا يجوز ان يكون الخلاف العربي حول جنيف سببا في تخريب الموقف العربي الواحد وتمكين العدو من تحويل الصراع عنه ليصبح صراعا بين عرب وعرب . كما لا يجوز بحال ان ترد فكرة الاعتراف بالوجود الصهيوني وابرام الصلح معه وقبول شروطه التعجيزية .

ويجب ان يكون واضحا لنا ان مستقبل ما سيتحرر من فلسطين في هذه المرحلة باستمرار النضال ، تصوغه حقيقيا ضرورة وجود الكيان الفلسطيني وضرورة التحام هذا الكيان بدول المواجهة . وستركزالسياسة الاسرائيلية على ضرب هاتين الحقيقتين ببعضهما : فتصل الى القبول بالكيان شريطة حبسه في قوقعة الاقليمية وعزله ، او تشترط اذابته في الاردن . ولا بد من التشبث بالصيغة التي يشرها تفاعل الحقيقتين . كما لا بد من التشبث في الوقت نفسه بحقنا في بقية اراضي فلسطين واخضاع تحركناالسياسي لهذا المبدأ .

وبعد ..

فواضح انالصراع مستمر وأمامنا ان نخوض معارك ضارية اخرى على المستويين السياسي والعسكري ، لنمنع عدونا من فرض الامر الواقع علينا.

وهكذا نستكمل محاولتنا للاجابة عن السؤال الذي بدأنا به هـذا الكتاب .

ماذا بعد حرب رمضان في الوطن العربي ؟

ونوجز هذه الاجابة بأن بعد حرب رمضان مرحلة جديدة من النضال العربي آفاقها رحبة ومسؤولياتها كبيرة ينطلق فيها الانسان العربي الجديد للقيام بدوره في شتى مجالات الحياة ليصل الى تحقق الاهداف التي بلورها النضال العربي والى تبليغ رسالة امته الحضارية ، وليحرر على الخصوص أراضيه المقدسة ويخلصها من الكيان الصهيوني الاستعماري الذي كانت حرب رمضان بداية النهاية في وجوده .

محتويات الكتاب

كتب للمؤلف .

١ ــ السنوسية نشاتها ونموها فى القرن التاسع عشر	١٩٦٧
٢ ــ احاديث عن تاريخ ليبيا خلال القرنين ١٨ و ١٩	١٩٦٨
٣ ــ من المقاومة الى الثورة الشعبية فى فلسطين	١٩٦٩
٤ ــ ليبيا قبيل الاحتلال الايطالى	١٩٧٠
٥ ــ عبد الحميد فى التاريخ ــ نشر فصولا	١٩٧١
٦ ــ هذه الليلة الطويلة (مسرحية سياسية)	١٩٧١
٧ ــ عبد الناصر والثورة العربية	١٩٧٢
٨ ــ ماذا بعد حرب رمضان	١٩٧٤
٩ ــ وثائق تاريخ ليبيا ــ الوثائق العثمانية	١٩٧٦
١٠ ــ بدايات اليقظة العربية الحديثة فى ليبيا ــ وثائق	١٩٧٦
١١ ــ الحوار العربى الأوروبى ــ وجهة نظر عربية ووثائق	١٩٧٦
١٢ ــ العــرب وتحــديات المستقبل	١٩٧٦
١٣ ــ الفلسطينيون فى الوطن العربى ــ مشاركتهم فى الاشراف والتحرير	١٩٧٨
١٤ ــ نظرات فى تاريخ فلسطين ــ نشر فصولا	١٩٧٨
١٥ ــ رحــلات ولحظات ممتدة	١٩٧٩
١٦ ــ العرب فى مواجهة عالم متغيــر	١٩٧٩
١٧ ــ منظمة التحرير الفلسطينية والحوار العربى الأوربى	١٩٨٠
١٨ ــ الصراع العربى الاسرائيلى ومسيرة الشعب الفلسطينى فى الثمانينـــات	١٩٨٠
١٩ ــ عروبة واســـلام ومعاصرة	١٩٨١
٢٠ ــ رؤى مستقبلية عربية للثمانينات	١٩٨٣
٢١ ــ نحو استراتيجية عربية للمواجهة	١٩٨٤
٢٢ ــ صبرا وشتيلا ــ الجريمة الاسرائيلية والمسئولية الأمريكية	١٩٨٤
٢٣ ــ فكر وفعـــل	١٩٨٥

٢٤ ــ حوار ومطارحات	١٩٨٥
٢٥ ــ وثائق الحوار العربى الأوروبى	١٩٨٦
٢٦ ــ بداية الصحوة العربية فى مواجهة الغزوة الصهيونية	١٩٨٦
٢٧ ــ عن شعب فلسطين العربى	١٩٨٦
٢٨ ــ نظـرات فى قضايا معاصرة	١٩٨٧
٢٩ ــ مستقبل الصراع العربى الصهيونى	١٩٨٨
٣٠ ــ الانتفاضة الفلسطينية والصحوة العربية	١٩٨٨
٣١ ــ الانتفاضة الفلسطينية والتحرير	١٩٨٩

هــذا الكتــاب

كتبت كتاب « ماذا بعد حرب رمضان » فى أعقاب حرب السادس من اكتوبر عام ١٩٧٣ العاشر من رمضان عام ١٣٩٣ وذلك فى محاولة للاجابة عن سؤال ماذا بعد ، وطرحت فيه رؤية لمستقبل الصراع العربى الاسرائيلى ، فهو كتاب ينتمى اذن الىحقلالدراسات المستقبلية التىتحمست لها من موقع التخصص فى الدراسات التاريخية ، واستشعر دوما الحاجة اليهــا فى التعامل مع قضايا الانسان العربى ·

يتضمن الكتاب طرح السؤال وتقويم الحرب ونتائجها الأولية ورؤية تاريخية لمكانها فى مجرى الصراع ، ثم رؤية لعالم الغـد ومناخه النفسى وتقسيماته ونظرته للصراع ، ولمستقبل الصهيونية واسرائيل فيه ، ولغـد فلسطين والوطن العربى · ويتضح من ذلك كله أن الحرب كانت بداية مرحلة جديدة فى مسار النضال العربى ·

هذه طبعة جديدة من الكتاب ، تصدر بعد مضى ست عشرة سنة على حرب رمضان · وهى طبعة تضع الكتاب بين أيدى جيل جديد من شـــبابنا العربى ، لم يع أحداث تلك الحرب ، فتيسر له التعرف عليها ، وتتيح الفرصة أمام القارىء لسبر أغوار « دراسة مستقبلية » بعد مضى أربع عشرة سنة على صدورها ، فيتحقق من مصداقيتها ، ويرى مدى صمودها بعد ن أصبح « بعض المستقبل » حاضر ثم ماضيا ، ويستشرف فيها ما هو آت مما تم عرضه على المدى المتوسط والمدى البعيد ، ولما يصبح ماضيا بعد ·